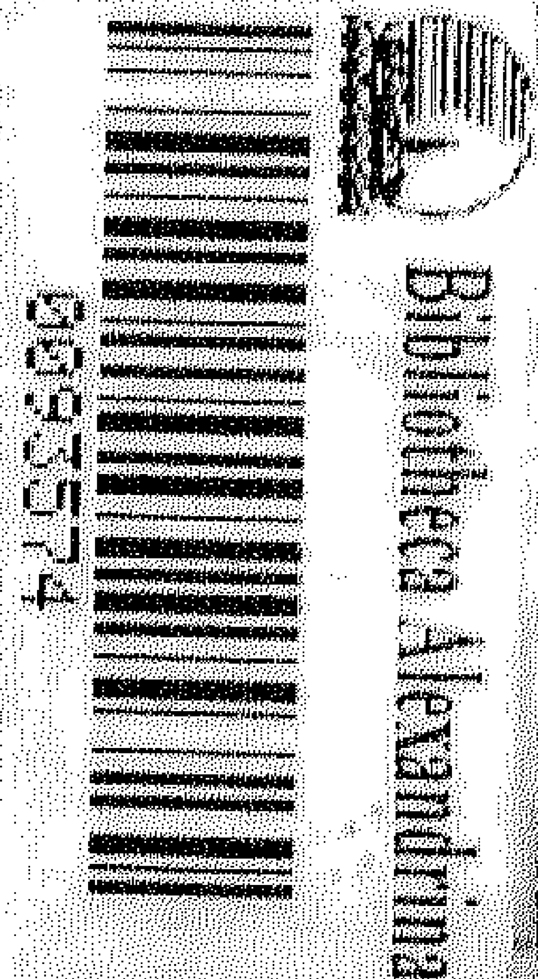
تاريخ أفريقية والمغرب

للرقيق القيروانى

تقديم وتحقيق وتعليق

دكتور / محمد زينهم محمد عزب



تاريخ أفريقية والمغرب

للرقيق القيرواني

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

تاريخ أفريقية والمغرب

للرقيق القيروانى

تقديم وتحقيق وتعليق

الدكتور محمد زينهم محمد عزب

دار الفرجانى للنشر والتوزيع

١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

بسمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

وصلى الله على سيدنا محمد

وعلى آله وأصحابه أجمعين وبعد

كان قيام دولة الأغالبة فى أفريقية عام ١٨٤ هـ - ٨٠٠ م مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بما كان يسود بلادها من اضطراب وفوضى وصراع مذهبى وثورات الجند العرب والبربر فى الفترة الممتدة من خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ هـ - ١٢٥ / ٧٢٤ م - ٧٤٣ م) إلى نهاية الدولة الأموية ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م(١) .

وفى الحقيقة كانت الخلافة العباسية مشغولة بمشاكلها فى المشرق لتثبت كيانها ووجودها . فكان عليها محاربة الزندقة والقضاء على حركات العلويين ووقف أخطار البيزنطيين ، ولهذا لم يتسع وقت الخليفة أبى العباس السفاح للاهتمام كثيرًا بما يقع ويحدث فى بلاد المغرب ، لأن تفكيره كان منصبا نحو المشرق ، ومع ذلك لم تغفل عيناه عن الجناح الغربى لدولة الإسلام والذى كان يشتمل على « مصر وبرقة وإفريقية » ، فاكتفى بالاستجابة إلى ما طلبه عبد الرحمن بن حبيب فقد كان عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة ابن عقبة بن نافع زعيمًا سياسيا واسع النشاط ، يعتمد على ما حققه جده عقبة بن نافع من شهرة وسمعة وإنجازات حربية ، ولكنه فى نفس الوقت انحرف عن نمط سياسة جده ، فكان رجلاً طامعًا فى الحكم فلم يقم بتنظيم أمور دولته كما فعل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (١٣٨ هـ - ١٧٢ هـ) ولكن كل همه البقاء فى إمارته دون سند شرعى(٢) .

---

(١) محمود إسماعيل عبد الرازق : الأغالبة ص ٩ .

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب فى أخبار المغرب ج ١ ص ٦٣ وابن خلدون فى كتاب « العبر من ديوان المبتدأ والخبر ج ٤ - ص ١٨٩ - ١٩٠ » . ونفس المعنى . عبد الواحد المراكشى فى « المعجب فى تلخيص المغرب ص ١٦ » .

وكان عبد الرحمن بن حبيب من أكبر قواد العرب البلديين بإفريقية ولذا كان أشدهم تطلعاً إلى ولاية إفريقية ، فقد كان يرى نفسه أهلاً لها رغم معارضة الكثيرين من أمثاله من قادة العرب البلديين فى إفريقية . ولم يسبق فى تاريخ المسلمين حتى ذلك الحين أن وافقت دولة الخلافة على أن يستقل أحد الولاة بولايته عن الدولة سواء أكان استقلالاً تامًّا أم غير تام .

ولكن الأحوال فى دولة الإسلام كانت تمر – أثناء فترة الانتقال من الأمويين إلى العباسيين والتى بدأت من منتصف حكم مروان بن محمد الجعدى وطوال خلافة أبى العباس السفاح وجزء من ولاية أبى جعفر المنصور – بحالة من الفوضى وعدم الاستقرار ، ولم تستقر الأمور إلا بعد عشر سنوات من ولاية المنصور ، وأصبح الخليفة المنصور سيد الدولة الإسلامية بلا منازع(١) .

فلما أعلن عبد الرحمن بن حبيب نفسه أميرًا على القيروان بعث بطاعته إلى أبى جعفر المنصور ، ولم يكن لدى الخليفة العباسى حينئذ متسع من الوقت للنظر فى أمر إفريقية بعناية ، فأقره ريثما تسمح ظروفه(٢) بالتفرغ للجناح الغربى من دولته الكبيرة ثم طالبه المنصور بالمال ، وكان ذلك طبيعيًّا من المنصور لأنه كان خليفة المسلمين والمفروض على جميع ولاة الدولة أن يرسلوا للحكومة المركزية بالمال المتبقى من خراج ولاياتهم ليستعين به الخليفة على مطالب الخلافة ، وقد فوجىء عبد الرحمن بن حبيب بهذا الطلب لأنه إلى ذلك الحين لم يكن صاحب السلطان على إفريقية لكى يستطيع استخراج المال الكافى منها لينفق على إدارتها ومرافقها من ناحية ، ثم لكى يرسل ما يتيسر له إلى الخلافة ، وكان يستطيع أن

---

(١) د/ حسين مؤنس معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٦٧ .

(٢) وكان عبد الرحمن بن حبيب قد كتب إلى المنصور « أن إفريقية اليوم إسلامية كلها وقد انقطع السبى منها والمال ، فلا تطلب منى مالاً » فرد عليه المنصور « إنى ظننت أن هذا الخائن يدعو إلى الحق ويقوم به ، حتى تبين لى خلاف ما بايعته عليه من إقامة العدل وإنى الآن قد خلعته كما خلعت نعلى هذا ، وقذفه من رجله » . انظر النويرى : نهاية الراب فى فنون الأرب ج ٢٤ ص ٦٦ ، وابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٤ ص ٢٨ .
وابن عذارى البيان المغرب فى أخبار المغرب ج ١ ص ٦٧ .

يشرح أمره للخليفة المنصور ولكن بدلاً من ذلك قام عبد الرحمن بن حبيب بنزع شعار السواد ، وهو شعار بنى العباس ، وقطع ذكر اسم المنصور فى الخطبة وهذا أول الأخطاء الكبرى التى وقع فيها عبد الرحمن بن حبيب لأنه ظن أنه يستطيع التغلب على كل منافسيه فى ولاية إفريقية ، وفى نفس الوقت كان يعتقد أن الخليفة لا يملك قوة كافية لاستعادة السلطان على إفريقية ، إذ لم يكن من المناسب له وهو فى مرحلة تثبيت أمره أن ينفصل عن الدولة العباسية ويحمى نفسه من جيوشها ، خاصة وقد كان له الكثير من المنافسين من أمثاله فى ولاية إفريقية ، ثم إن الدولة العباسية كانت شديدة الاهتمام بولاية إفريقية التى كانت تشمل طرابلس وأفريقية والزاب تأميناً لولاية مصر والتى كانت تعتبر من أهم ولايات الدولة الإسلامية سياسيًا وعسكريًّا وماليًّا(١) .

وبعد أن أعلن عبد الرحمن بن حبيب انفصاله عن الدولة العباسية ، شرع فى تثبيت سلطانه معتمداً على ما كان تحت إمارته من الجند العربى ومن استطاع إدخاله فى خدمته من أهل إفريقية ، وساعده على ذلك أن أخاه إلياس بن حبيب كان قائداً عسكرياً قادراً وهو الذى ثبت أقدام دولة أخيه ، وبدلاً من أن يتعاون عبد الرحمن بن حبيب مع أخيه ويظهر له موفياً لما اتفق معه عليه من أن يكون إلياس ولياً لعهده ، نجده يتخوف منه ويفكر فى عزله عن ولاية الجند ، ولكنَّ إلياس نجح فى جمع طائفة كبيرة من الفرسان والمقاتلين من الجند البلدية فى إفريقية بجانبه(٢) .

وزاد فى ضعف مركز عبد الرحمن بن حبيب أنه لم يفكر فى توحيد العناصر العربية الموجودة فى البلاد أو الاستعانة بالعنصر البربرى فى إدارة شئون الإمارة لكى يستطيع التثبت فى ولايته ، إذ ما ظهر له منافس أو ثار عليه ثائر أو خرج عليه خارج ، وتعجل

---

(١) ابن الرقيق القيروانى : تاويخ إفريقية والمغرب ص ١٣٤ ، والنويرى : نهاية الأرب ج ٢٤ ص ٦٧ . وابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٤ ص ٢٨١ . وابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٦٧ . ومحمد ضياء الدين : الخراج ١٤٩ .

(٢) ابن الأبار الحلة السيراء : ج ١ ص ٨٢ .

عبد الرحمن بن حبيب الأمر فعزل أخاه عن القيادة وأزمع المبايعة لابنه حبيب بولاية العهد مما جعل إلياس يحرض أهل إفريقية ويتآمر مع أخيه عبد الوارث لقتله .

وإزاء كل هذه الأخطاء لعبد الرحمن سواء من ناحية الدولة العباسية أو من ناحية إفريقية تحرج مركزه ووقع القتال بينه وبين أخيه إلياس ، وكان معه معظم رؤساء الجند ، فكانت النتيجة أن قتل عبد الرحمن بن حبيب فى سنة ١٣٧ هـ ، وفر ابنه حبيب إلى تونس(١) .

وهكذا أسدل الستار على عبد الرحمن بن حبيب الفهرى بعد أن قضى فى الإمارة عشر سنوات وسبعة أشهر قضاها كلها فى حروب مع البربر .

ثم استعان ابنه حبيب بجماعات البربر لاستعادة ملك أبيه فى إفريقية ، ونجح فى قتل عمه إلياس ولكن لم يدم حكمه حتى استولى عمه عبد الوارث على القيروان ، ففر حبيب إلى قبيلة بربرية كبيرة مستعربية تعرف باسم ورفجومة(٢) وهى قبيلة طارق بن زياد ، وكان يرأس هذه القبيلة عاصم بن جميل(٣) ، وكان من الخوارج الصفرية وهو ابن أخت طارق بن زياد الذى تمكن من القضاء على حكم ونفوذ بنى حبيب فى إفريقية ، واقتحم مع رجال قبيلته القيروان وأقام فيها حكماً خارجياً صفرياً واضطهدوا أهل السنة حتى قيل إنهم دخلوا بخيلهم المسجد الجامع بالقيروان ، ولما بلغ ذلك أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى إمام الخوارج الإباضية فى جبل نفوسة غضب لما أصاب المسجد ، فسار بجموعه

---

(١) الرقيق القيروانى ، تاريخ إفريقية والمغرب ص ١٣٤ . والنويرى نهاية الأرب ج ٢٤ ص ٦٨ .
والرقيق القيروانى المصدر السابق ص ١٣٩ .

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ج ١ ص ٨٠ . والسيد عبد العزيز سالم تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى ٢٥١ . ود . حسين مؤنس معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٦٩ ، وابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ٤٩٧ .

(٣) كان عاصم بن جميل زعيماً كاهناً « إدعى النبوة والكهانة » فبدل الدين وزاد الصلاة وأسقط ذكر النبى ﷺ من الأذان ، وقيل هو من بطون نفزاوة .

انظر : ابن خلدون : العبر من ديوان المبتدأ والخبر ج ٤ ص ٤٠٩ ، وابن الأثير: الكامل فى التاريخ ج ٤ ص ٢٨٠ ، والرقيق القيروانى : تاريخ إفريقية والمغرب ص ١٤١ .

ودخل القيروان وقتل عاصم بن جميل ، وبذلك انتهى حكم بنى عبد الرحمن بن حبيب فى إفريقية .

كل هذه الحوادث أفزعت أبا جعفر المنصور ، فأمر واليه على مصر آنذاك محمد بن الأشعث الخزاعى بالمسير إلى إفريقية وإخراج الإباضية الذين استولوا على إفريقية من الخوارج الصفرية وإعادتها إلى دولة أهل السنة والجماعة ، وكان جيش واليه يضم حوالى ٤٠,٠٠٠ مقاتل ، وقد استطاع أن يعيد به إفريقية مرة ثانية إلى مذهب السنة مذهب الدولة العباسية .

غير أن محمد بن الأشعث عين نائباً له فى إفريقية يسمى أبا الأحوص عمرو بن الأحوص العجلى ولكنه لم يتمكن من التغلب على ما كان يحدث فيها حتى طرده زعيم الخوارج الإباضية أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح بن مالك المعافرى ، وزاد خطر الخوارج الإباضية مما جعل المنصور يطلب من واليه بمصر مرة أخرى سرعة التوجه إلى إفريقية ودارت معركة فى منطقة تاورغا (الواقعة إلى الشرق من طرابلس) قتل فيها أبو الخطاب زعيم الإباضية ، فتولى زعامة الإباضية بعده يعقوب بن حاتم المعروف بأبى حاتم الملزوى[1] .

وقام محمد بن الأشعث الخزاعى والى القيروان الجديد بعدة أعمال تميل إلى القسوة نذكر منها : أنه أنشأ معسكراً جديداً ، واتبع الشدة مع سكان القيروان حتى أنه أمر بقتل[2] كل رجل يسمى بأسماء أموية مثل سفيان ومروان ، ولا نعرف سببا لهذه الظاهرة ، ولعله أراد أن يتخلص من كل شخصية يخشى منها على السلطة العباسية وإفريقية التى هى مسرح الحوادث ، وأمام هذا لابد أن نقف بعض الوقت عند هذه الولاية ، لنرى كيف كانت فى ذلك الوقت .

---

(١) انظر فى ذلك : النويرى ، المصدر السابق جـ ٢٤ ص ٧٠ ــ ٧٤ ، وابن أبى دينار المؤنس فى أخبار إفريقيا وتونس ص ٤٦ ، وابن عذارى ، المصدر السابق جـ ١ ص ٨٣ ، والأنصارى المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب ص ٦٦ ، ود/ محمود إسماعيل عبد الرازق الخوارج فى بلاد المغرب ص ٧٦ .

(٢) د. حسين مؤنس فتح العرب للمغرب ص ٨٢ .

لمحة سريعة عن إمارة إفريقية :

بعد أن انتصر المسلمون على الروم فى موقعة سبيطلة ٢٧ هـ - ٦٤٨ م بدأت ولاية إفريقية فى الظهور عندما أنشأ عقبة بن نافع الفهرى مدينة القيروان(١). ومسجده ومسجدها الجامع فيما بين سنتى (٥٠ هـ - ٥٥ هـ / ٦٧٠ م - ٦٧٥ م) .

قامت ولاية إفريقية الإسلامية ولاية مستقلة بنفسها ، ولها واليها وإدارتها المستقلة عن إدارة مصر .

وعندما تولى تلك الولاية حسان بن النعمان الغسانى (٧١ هـ - ٨٥ هـ / ٦٩٠ م - ٧٠٤ م) وضع أساس النظام الإدارى لتلك الولاية الجديدة وكانت حدودها الجغرافية والسياسية مطابقة لولاية إفريقية البيزنطية ، فإن إفريقية البيزنطية كانت تشمل ولاية طرابلس مضافاً إليها إفريقية نفسها ، وتقابل على وجه التقريب جمهورية تونس الحالية ثم جزءاً مما عرف فيما بعد بأقليم الزاب عند الجغرافيين المسلمين .

وكانت إفريقية البيزنطية بهذه الحدود ولاية كبيرة تضم مساحة واسعة من الشمال الإفريقى ، وإذا كنا نستطيع أن نحدّ حدودها الغربية بشكل دقيق نقول : إنها كانت تشمل إقليم قسطيلية وما يليه شمالاً حتى ساحل البحر ، ويمتد غرباً فيشمل النصف الشرقى من جبال أوراس وتقف عند حدود ما يعرف اليوم ببلاد القبائل فى الجزء الشرقى من

---

(١) قال ياقوت الحموى : القيروان معرب وهو بالفارسية كاروان ، وهذه مدينة عظيمة بإفريقية غبرت دهراً ، وليس بالغرب مدينة أجل منها إلى أن قدمت العرب بإفريقية . وقال اليعقوبى : مدينة القيروان التى اختطها عقبة بن نافع الفهرى سنة ستين من خلافة معاوية . وقال الإدريسى : أم الأمصار وقاعدة الأقطار ، وكانت أعظم مدن الغرب قطراً وأكثرها بشراً وأيسرها أموالاً وأوسعها أحوالاً وأتقنها بناء . وقال البكرى كانت موضع القيروان وادياً كثير الأشجار غيضة مأوى للوحوش والحيتان بينما قال المؤرخ : NEVILLE BAROUR كانت القيروان أول عاصمة جديدة أنشئت فى بلاد المغرب .

انظر فى ذلك : معجم البلدان ج ٧ ، ١٩٣ ، البلدان ١٣٦ ، نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ٢٨٤ ، A Survey of North The West Africa .

جمهورية الجزائر الحالية - فتدخل فيها قلعة أو قلاقل لميزة وباغاية وتصل إلى البحر فتشمل ولاية بيجيا الحالية وتصل إلى مجرى نهر شلف ، ونظن أن هذه كانت حدود ولاية إفريقية فى التنظيم الذى وضعه حسان بن النعمان(١) .

وعندما تولى أمور إفريقية موسى بن نصير اللخمى أكمل هو وأولاده فتح المغرب الأوسط والمغرب الأقصى ، وأنشأ موسى ثلاث ولايات جديدة الأولى ولاية المغرب الأقصى وتشمل النصف الشمالى للمملكة المغربية الحالية ، والثانية ولاية سلجماسة وكانت تطلق على النصف الجنوبى من المملكة المغربية الحالية ، أما الولاية الثالثة فهى تلك المساحة التى امتدت من الحدود الغربية لولاية إفريقية إلى حدود ولاية المغرب الأقصى وهى تشمل جزءاً كبيراً من أراضى جمهورية تونس الحالية(٢) .

وفى أواخر الدولة الأموية ونتيجة لأحداث الفتنة المغربية الكبرى التى بدأت فى المغرب من سنة ١٢٢ هـ فى ولاية عبيد الله بن الحبحاب واستمرت حتى نهاية العصر الأموى . ورغم الجهود الكبيرة التى بذلها هشام بن عبد الملك لإيقاف هذه الفتنة والقضاء على ثورات الجماعات الخارجية ما بين صفرية وإباضية التى كانت قد أخرجت المغربين الأوسط والأقصى عن السلطان الفعلى للخلافة الأموية ، فلم يبقَ لها سلطان ملموس إلاَّ على نهر شلف الذى ينبع من جبال أوراس ويتجه إلى الشمال حتى جنوب مدينة الجزائر الحالية ، فيتجه غرباً ويقترب من البحر ويواصل سيره حتى يصب فى البحر المتوسط إلى الشرق من مدينة وهران الحالية . ويفهم من كلام الجغرافى اليعقوبى(٣) أن سلطان دولة الخلافة لم يجاوز المجرى الأعلى لهذا النهر وعلى الأخص من العصر العباسى ، وواضح أن العباسيين عندما ورثوا الخلافة من الأمويين وجدوا أن دولتهم تمتد وتغطى مساحة شاسعة جداً لم

---

(١) انظر فى ذلك اليعقوبى ، البلدان ص ٣٤٥ ، والنويرى نهاية الأرب فى فنون الأدب ج ٢٤ - ص ٣٦

(٢) انظر ابن الأبار الحلة السيراء ج ٢ - ٣٣٢ - ٣٣٣ ، والرقيق القيروانى تاريخ إفريقية والمغرب ٦٨ - ٦٩ .

(٣) وانظر كذلك : د . حسين مؤنس معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٦٣ ، واليعقوبى المصدر السابق ٣٤٧ .

تستطع قواهم أن تسيطر عليها سيطـرة كاملة خاصة وأن انتقال مـركز الدولة من دمشق إلى بغـداد زاد من مسئوليتهـا الآسيـويـة ، وفرض عليهـا مطـالب جديـدة لم تكن تشغل بـال الأمويين بالصورة التى كانت عليها أيام العباسيين .

ونتيجة لذلك نجد أن العباسيين ركزوا جهـدهم كله فى المحافظة على ذلك الجزء الذى كان لدولتهم بصورة فعلية من إفريقية .

أما ما وقـــع غربى نهر شـــلف أى بيـد المغربين الأوســط والأقصى فليس لـدينا ما يـــــدل على أن العبـاسيين كـان لهم قيد من ســلطان أو حتى حـاولـوا أن يبسطوا عليـه سلطانهم ، وهـذا هو الـذى جعل عبد الـرحمن بن رستم[1] بعد هزيمـة الخوارج الإباضية ومقتل أبى الخطاب عبد الأعلى بن السمح بن مالك المعافرى سنة ١٤٤ هـ يفر إلى غرب نهر شلف ويحاول إنشاء دولة خـارجية إباضية فى بلاد كانت خارج سلطـان العباسيين وبذلك يأمن على دولته من جيوشهم .

ولم تتمكن الحكـومة المركـزية العبـاسية من أن تسيطـر على ولاية إفـريقية بسبب عـدم الاستقرار فيها نتيجة للصراع الداخلى الـذى شغل الخلافة العباسية ، ولم يترك لها من الفراغ ما يمكنها من محاولة بسط سلطانها على بقية بلاد المغرب .

ولما عزل محمد بن الأشعث الخزاعى ، أسند أبو جعفر المنصور ولاية إفريقية لزعيم من زعماء العرب وهو الأغلب بن سالم بن عقال التميمى[2] وكان من كبـار جند مصر ، فسار

---

(١) هو عبـد الرحمن بن رستـم بن بهرام الفارسى ، وكـان بهرام جده من مـوالى عثمان بن عفان ، وقـد ذكر بعض الكتاب أن نسبه يرجع إلى ملوك الفرس القـدماء ، تربى عبد الرحمن بن رستم فى القيروان وأخذ العلم عن فقهائها ومال إلى تعـاليم الخوارج حيث تأثر بسلامة بن سعيد الذى كـان يدعوا إلى مذهب الخوارج الإباضية . انظر فى ترجمته : الـدرجينى : طبقات مشايخ إفريقية ج ١ - ١٩ ، وابن خلدون العبر من ديوان المبتدأ والخبر ج ٦ - ١٢١ ، والبكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٧ .

(٢) ذكـر البـلاذرى أن أصله يـرجع إلى مـرو الـروذ بمعنى أنـه كان من الجنـد العـربى الخراسـانى أى من أصحـاب أبى مسلم الخراسانى ، وفـد مع القـوات العباسيـة إلى مصر وأصبح من جنـدها ، عـرف الأغلب بالشجاعة والبلاء وحسن الرأى ، ولقب بلقب الشهيد .
انظر ترجمته فى السلاوى : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ - ٥٧ ، والبلاذرى : أنساب =

الأغلب بن سالم وابنه إبراهيم إلى إفريقيـة غير أن زعيم الخوارج أبو حاتم تمكن من قتله وفر ابنه إبراهيم إلى منطقة الزاب ، وبدأ يمهد الأمر لنفسه .

وكانت الدولة العباسية تنظر إلى إفريقية على أنها بلد بعيد عن مركز الخلافة يعيش فيها جماعات متعددة متحاربة متعـادية بعضهم سنة ، وبعضهم من الخوارج بشتى مذاهبهم ، وبعضهم عرب ، وبعضهم بـربر ، فانتهى رأى المنصـور إلى تقليد ولاية إفريقيـة لرجل من ذوى الكفـايـة وهو مـن بنى المهلب بن أبى صفـرة القائد المعـروف الـذى حقق المنجـزات والانتصارات العسكـرية فى العصر الأموى ، هـذا الوالى هو عمـر بن حفص بن قبيصة بن المهلب ويكنى أبا جعفر والمعروف بهزار مرد يعنى ألف رجل أى يعادل ألف رجل فى ميدان الحرب وهذا مبالغ فيه(١) .

ولما كـان عمـر بن حفص هـذا لا يستطيـع أن يثق بـالقـواد الخراسـانيين المقيمين فى إفريقيـة ، ولا بالقبائل العربيـة المستوطنة هناك ، فقـد جلب معه جيشًا جديـدًا ، وبرغم تغلغل الجيش العباسى فى إفريقية فإن الخوارج ظلوا يحتفظون بسمعة طيبة وشعبية كبيرة من العرب والبربـر أيضًا ممـا جعل الجيش العباسـى يرابط فى القـلاع والحصون دون الانـدماج بسكان إفريقية .

وفى عهده انفجرت ثورات الخوارج الإباضيـة بقيادة أبى حاتم يعقوب بن تميم الكندى وتمكنـوا من الاستيلاء على القيروان ، أمـا فى طبنة كما يقـول ابن عذارى فقـد اتحد الخوارج الصفرية والإباضية على قتال الجيش العباسى تحت لواء أبى قرة الصفرى المغيلى الذى أعلن نفسه إمـاماً وحـاصروا القائد العباسى عمـر بن حفص الذى استطـاع أن يكسر حصارهم ويفر بحياته عائدًا إلى القيروان ، ثم تفككت وحدة الخوارج الإباضية والصفرية ولم يتمكنوا من الاستيلاء عليها ، واستمرت القيروان للوالى العباسى(٢) .

= الأشراف ٣٥٠ ، ود . السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ٢٦١ .

(١) انظر د . حسين مؤنس معالم تاريخ المغرب والأنـدلس ٥٥ ، وابن حزم جمهرة أنساب العرب ٣٧٠ ، والنويرى المصدر السابق ج ٢٤ - ٧٩ .

(٢) انظـر : النـويرى المصـدر السـابق ج ٢٤ ، ٨١ ، والـرقيق القيروانى المصـدر السـابق ١٤٣ ، وابن عذارى المصدر السابق ج ١ - ٨٨ ، وابن خلدون والعبر من ديوان المبتدأ والخبر ج ٤ - ١٩٣ .

كتب عمر بن حفص إلى المنصور يطلب منه إرسال النجدات الجديدة ولكنه قتل قبل أن تصله النجدات والتعزيزات سنة ١٥٤ هـ / ٧٧١ م ، واحتل أبو حاتم الإباضى القيروان سنة ١٥٥ هـ / ٧٧٢ م ، وهكذا تمكن الخوارج من السيطرة على إفريقية وأصبح تعداد أنصارهم ما يقرب من ٤٠,٠٠٠ مقاتل .

استخدم المنصور الحماس الدينى ضد الخوارج باسم الجهاد ، فأسند ولاية إفريقية ليزيد بن حاتم بن قبيصة المهلبى لما كان للمهالبة من أدوار بارزة فى محاربة الخوارج والقضاء عليهم فى العصر الأموى .

وكان يزيد بن حاتم كثير الشبه بجده المهلب بن أبى صفرة فى حروبه وكرمه ويكنى أبا خالد ، فاشتهر يزيد بن حاتم بالكفاءة والمهارة السياسية وحسن القيادة ، وكان قد تقلد لأبى جعفر المنصور عدة ولايات منها أرمينية والسند ومصر وأذربيجان(١) .

وكانت أكبر الولايات التى تولاها يزيد بن حاتم هى مصر التى حكمها من ١٤٤ هـ إلى ١٥٢ هـ ، فأعد المنصور جيشاً من ٥٠ ألف مقاتل بالإضافة إلى مقاتلين من الشام والجزيرة وأرسلهم إليه ، وأمره بالمسير إلى إفريقية وأنفق المنصور بسخاء على إعداد الجيش حيث بلغ ما أنفقه عليه ٦٣ مليون درهم ، وللتأكيد على أهمية الحملة رافق المنصور الجيش حتى وصل إلى مدينة القدس فى فلسطين ، وبعد عدة معارك طاحنة استطاع الوالى يزيد بن حاتم أن يقضى على معظم ثورات الخوارج بإفريقية ويقتل أبا حاتم الإباضى سنة ١٥٥ هـ / ٧٧٢ م بالقرب من مدينة طرابلس على حين فر بقية أصحابه إلى مناطق جبال نفوسة التى كانت تسكنها جماعات من الخوارج .

مكث يزيد بن حاتم واليًا على إفريقية حوالى خمسة عشر عامًا ، تعد من أحسن فترات الولاة على إفريقية وأكثرها خيرًا سواء من الناحية الاقتصادية أو الاجتماعية أو المعمارية :

---

(١) انظر فى ذلك : ابن أبى دينار المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس ٤٦ ، والنويرى نهاية الأرب ج ٢٤ - ٨٢ ، ومحمود إسماعيل عبد الرازق الأغلبية ١١ وابن الخطيب أعمال الأعلام ج ٣ ص ٨٢ ، وابن عذارى المصدر السابق ج ١ ص ٩٣ ، والرقيق القيروانى المصدر السابق ١٥١ .

فأعاد بناء المسجد الأعظم بالقيروان ، وأعطى للفقهاء المالكية مكانة وأهمية كبيرة واعتمد عليهم فى محاربة الخوارج ، فكان يستشيرهم ويأخذ برأيهم ، مما جعل إفريقية قاعدة للمذهب السنى أو قاعدة للسنة على مذهب الإمام مالك بن أنس فى بلاد المغرب ، وهذه صبغة ذات مغزى بعيد فى تطور تاريخ المغرب الإسلامى وسنتحدث عن ذلك بالتفصيل فيما بعد(١) .

ولما توفى يزيد بن حاتم تقلد ولاية إفريقية بعده ابنه داود الذى أخذ له يزيد البيعة بولاية العهد فى أثناء مرضه ، فاستمر فى الحكم تسعة شهور ونصف يحارب أمراء قبائل البربر الخوارج ، فثار عليه زعيم البربر نصير بن صالح الإباضى فبعث داود إليه أخاه المهلب بن يزيد فهزموه وقتلوه هو ومن معه من أصحابه ، فوجه إليهم داود قائده سليمان بن يزيد فى جيش يقدر بـ ١٠٠٠٠ مقاتل ، فهرب البربر من أمامه ، فتتبعهم وقتل منهم أكثر من عشرة آلاف قتيل ، وظل داود مقيماً فى إفريقية حتى قدم عمه روح بن حاتم ليتقلد إمارة إفريقية من قبل هارون الرشيد ، أما داود فأسند إليه هارون ولاية مصر ثم ولاية السند وظل بها حتى مات فيها .

كان روح قد تقلد عدة مناصب إدارية قبل مجيئه إفريقية منها ولاية البصرة والكوفة وطبرستان وفلسطين والسند ، وكان روح أكبر سناً من أخيه يزيد ، ولكنّ حكمه لإفريقية لم يدم ، إذ عزله الرشيد وأسند ولايتها لنصر بن حبيب المهلبى .

وعلى أى حال فقد كان آخر أمراء المهالبة لإفريقية الفضل بن روح بن حاتم الذى تولى سنة ١٧٧ هـ/ ٧٩٣ م ولم يمكث فى حكمه إلا سنة ونصف تقريباً ، وثار عليه جند إفريقية والمغرب لاستبداده بالسلطة ، فقام عبد الله بن عبدويه الجارود قائد جند تونس ، فتمكن من الإستيلاء على السلطة وقتله سنة ١٧٨ هـ - ٧٩٤ م(٢) .

---

(١) انظر فى ذلك : د . حسين مؤنس معالم تاريخ المغرب والأندلس ٥٧ ، والنويرى المصدر السابق ج ٢٤ ص ٨٦ - ٨٨ ، وابن الأبار الحلة السيراء ج ١ ص ٧٣ .

(٢) انظر فى ذلك : ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٩٩ - ١٠٦ ، والسيد عبد العزيز سالم المرجع السابق ص ٢٧٣ ، والطبرى تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٢٧٢ ، والنويرى نهاية الأرب ج ٢٤ ص ٨٩ .

وهكذا انتهت رئاسة المهالبة فى إفريقية التى استمرت حوالى ربع قرن من الزمان أى من أواخر أيام أبى جعفر المنصور إلى عهد هارون الرشيد ، ذلك لأن تجربة إسناد حكم إفريقية إلى فرد بعينه مع بقائه على التبعية لدولة الخلافة كانت تجربة ناجحة ، فقد أفادت إفريقية فائدة محققة من فترة المهالبة فاستقرت خلالها الأحوال ، وعمرت المدن وبنيت المساجد واطمأن الزراع والتجار وزاد الدخل خصوصاً فى أيام أكبر أولئك المهالبة وهو يزيد بن حاتم الذى حكم خمسة عشر سنة .

وبعد نهاية حكم المهالبة عادت إفريقية إلى التبعية المباشرة لدولة الخلافة وتوالى عليها ولاة بغداد ، ولكن الفوضى سادتها إذ اشتد تنافس زعماء العرب فى البلاد فى الوصول إلى السلطان فى القيروان أو الانفراد بالسلطة السياسية فى نواحيهم .

ولمّا كانت الخلافة العباسية شديدة الاهتمام بشئون ولاية إفريقية التى تشمل طرابلس وإفريقية والزاب ، والتى ذكر اليعقوبى الذى زار إفريقية فى عصر الأغالبة أن منتهى سلطة العباسيين غربًا كانت حتى مدينة إربة الواقعة على المجرى الأعلى لنهر شلف - وَلّى هارون الرشيد على إفريقية عاملاً عربياً من طراز فريد فى معدنه هو هرثمة بن أعين وكان من أكبر رجال الحزب العربى فى بلاط الرشيد ، وكان شيخًا مجربًا فى فن الحروب وحكم الولايات(١) .

حكم هرثمة بن أعين إفريقية قرابة من العامين من (١٨٠ هـ - ١٨١ هـ/ ٧٩٦ م - ٧٩٧م) وخلال هذه الفترة القصيرة ساد إفريقية هدوء واستقرار ، فعمل هرثمة على تجديد ما تخرب من المدن والموانىء والمنشآت ليعيد ثقة الناس فى الدولة العباسية ، فجدد ميناء تونس ، وأصلح مسجد القيروان ونظم الأسواق فيها ، واهتم ببناء قصور العبادة .

---

(١) راجع فى ذلك : د . حسين مؤنس معالم تاريخ الغرب والأندلس ص ٧٩ ، وابن عذارى : المصدر السابق ١١٠ ، والنويرى المصدر السابق ج ٢٤ ص ٩٥ - ٩٦ .

وبعد هاتين السنتين – كما يذكر ابن خلدون – رأى هـرثمة بن أعين أنه قد قام بمهمته فى إفريقيـة فى إرساء قـواعد الأمن والاطمئنان فى البـلاد ، ولكن الحقيقة أنـه تعب وضاقت نفســه وفضل العودة إلى بغـداد ، فعاد إليهـا سنـة ١٨١ هـ – ٧٩٧ م وأصبح من خـواص هارون وأهل ثقته ، فأُسنِدَ إليه منصب قائد الحرس[١] .

وفى ســنة ١٨١ هـ ولّى أمير المؤمنين الرشــيد على إفـريقيـة بعـد هـرثمة محمـد بن مقاتل العكى[٢]، وكان رضيع الـرشيد ، وكان أبـوه من كبار أهل دولتـه ، ولم يكن محمود السيرة فيما تولى للـرشيد من ولايات ، ولـذلك فإنه عنـدما دخل إفريقيـة لم يسَر فى حكمها بطريقة تعجب النـاس ، فاضطربت الأمور فى إفريقيـة ، وعلى الأخص فيما فعله مع الفقيه البهلول بن راشـد بضربه بـالسياط حتى مات ممـا أثار عليـه غضب الفقهاء والعلماء وأهل إفريقيـة لما كان يتمتع به هـذا الفقيه من مكانة ومنـزلة فى نفوس أهلهـا ، كما اختلف عليه جنـده لإنقـاص رواتبهم ممـا جعلهم ينضمـون إلى ثـورة تـزعمهـا ابن تميم التميمى[٣] .

---

(١) انظر فى ذلك :
ابن الخطيب المصـدر السابق ج ٣ ص ١١ ، وأحمد بن الضيـاف اتحاف أهل الزمـان ج ١ ص ٩٨ ، وابن خلـدون المصدر السـابق ج ٤ ص ٤١٩ ، وابن أبى دينـار المصدر السـابق ص ٤٨ . والطبرى المصدر السابق ج ٨ ص ٣٢٣ ، والنويرى المصدر السابق ج ٢٤ ، والـرقيق القـيروانى المصـــدر السابق ص ٢٠٣ .

(٢) وكان جعفر بن يحيى البرمكـى شديد العناية بمحمـد بن مقاتل العكى ، فقدم إلى القـيروان سـنة ١٨١ هـ ، وكـان أبوه من كبـار القائمين بالـدعوة العبـاسية ، وحضر مع قحطبـة بن شبيب حروب المارونية ، ثم قتله عبد الله بن على لما خلع وإدعى الأمر .
انظر ابن الأبار : الحلة السيراء ج ١ ص ٨٨ – ٨٩ .

(٣) هو تمام بن تميم التميمى جد أبى العرب محمد بن أحمد بن تميم بن تمام صـاحب كتاب طبقات إفريقية وهو ابن عم إبراهيم بن الأغلب صاحب إمارة الأغالبة ، خرج تمام بتونس على محمد بن مقاتل العكى والى إفريقية واستطـاع دخول القيروان فى رمضان سنة ١٨٣ هـ ، فنهض إبراهيم بن الأغلـــب الذى كـان فى ذلك الوقت حـاكم الـزاب لنصرة محمد بن مقـاتل العكـــى ، فكتــب تمـام إلى إبـراهيم بن الأغلب كتابـاً يستدعيه ويستعطفه ، وقـد وصف لنا ابن الأبار كيفيـة اســتقبال تمام كتـاب إبراهيم ومدى الخوف والرعب الـذى نزل به نقلاً عن فلاح الكـلاعى أنه قال (« كنت عند تمام يـوم قرأ كتاب إبراهيم ، فذهب لونه ثم ارتعد حتى سقط الكتاب من يده ») وكان تمام مشهوراً بالصرامة والشـجاعة

وســـادت البـلاد الفوضـــى ووقعت الحـــروب بين زعـــماء الجنـد ، وفى هذه الظروف برز إبراهيم بن الأغلب على مسرح الأحداث السياسية فى إفريقية .

(=) قال أبو العرب عن جده (« تمام بن تميم هذا هو جدنا، وهو ابن القادم من المشرق ، وتوفى سنة سبع وثمانـين ومائة ببغداد ») وذكر فى كتاب المغرب ، فى أخبار المـــغرب : أن إبراهيم بن الأغلب لما صـار الأمر إليه بُعِـث بـه وبجـماعة معه من وجوه الجند الذين كان شأنهم الوثـوب على الأمراء إلى الرشيد ، فأما تمام فإنـه حُبِسَ إلى أن مات فى حبسه . وهناك روايـة حكيت أن الرشيد وعد أخـاه سلمة بن تميم بإطلاق صراح تمام ، فلما بلغ ذلك إبراهيم بن الأغلب كتب إلى عمته وهى ببغداد فى سمه ، فاشتهى تمام حوتاً فسمتـه له فمات من أكله بعد أن ذهب بصره فعلم الـرشيد بذلك فترحم عليه ويـوجع له ، وأحسن إلى سلمة أخيه وصرفه إلى إفريقية .

الحَياة الاجتماعية فى إفريقَية
حتّى قيَام دَولة الأغالبَة

أما عن الحياة الاجتماعية فى إفريقية قبل قيام دولة الأغالبة فيجدر بنا أن نأتى بنبذة عن تاريخ انتشار الإسلام فى إفريقية لكى نتبين كيف تم هذا العمل العظيم من أيام المهالبة وحتى قيام العصر الأغلبى فنجد إفريقية بلداً إسلامياً عربياً يعيش فيها العرب والبربر المستعربون كما كان يعيش فيها قلة من الروم .

١ ـ **الروم** : وهم البيزنطيون الذين وجِدُوا فى البلاد إذاك وكانوا حكام البلاد ، ومع الفتح العربى اختفى معظمهم ولم يبق منهم إلا جماعات قليلة كانت تقيم على السواحل ومدنها وخاصة قرطاجنة وكذلك فى بعض بلاد الجريد ، وأغلبهم اعتنقوا الإسلام وذابوا فى سكان البلاد إلا من هاجر منهم إلى صقلية وغيرها من بلاد الجنوب الأوربى .

٢ ـ **البربر** : وهم سكان البلاد الأصليون ويقسمون إلى طائفتين : طائفة البربر الحضر المعروفين بالبرانس الذين يسكنون النواحى الخصبة والسفوح المزروعة ، وهؤلاء يعملون بالزراعة والصناعة ، نتيجة لاتصالهم بحضارة القرطاجيين واللاتينيين والبحر المتوسط ، وطائفة البربر البدو المعروفين بالبتر الذين يقيمون فى الصحارى والواحات وهؤلاء يعيشون على الرعى ويميلون إلى الإغارة على ما يجاورهم من نواحى العمران(١)

٣ ـ **الأفارقة أو الأفارق** : فهم أخلاط من الناس كانوا يسكنون النواحى الساحلية حيث يعملون بالزراعة والصناعة ، وقد ذكر ابن عبد الحكم فى تاريخه عنهم قوله : « وأقام الأفارق وكانوا خدماً للروم على صلح يؤدونه إلى من غلب على بلادهم » .

---

(١) راجع فى ذلك : د . السيد عبد العزيز سالم المرجع السابق ص ٣٣٣ ، ود . حسين مؤنس فتح العرب للمغرب ص ٢٨٤ ، ود . حسين مؤنس أيضاً فى تاريخ معالم المغرب والأندلس ص ٢٣ .

أما العنصر العربى فقد دخل مع مطلع الفتوحـات الإسلامية لبلاد المغرب ، فالعنصر العربى دخل بلاد المغرب فى صورة جيوش فاتحة ، وقد استقر رجال هذه الجيوش فى نواحى المغرب كله بعـد إتمام الفتح ، ولحقت بهم جماعاتٍ أخرى من الجند والمهـاجرين العرب مع استمرار حركـة الفتح ، وكانت نتيجة ذلك قيام مجتمعـات عربية صغيرة معظمهم فى المدن والمعسكرات ، ومن هذه المراكز بـدأوا ينتشرون فى نواحى البلاد ، ولحقت بهم جماعات من المهاجـرين غير العسكريين أو غير الرسميين ، وهؤلاء جميعـاً تكون منهم ما يعرف بـالعرب البلديين[1] أى عرب إفريقية فهم الذين استقروا فيها واعتبروها وطناً لهم دون أن يتخلوا عن عروبتهم ، فكـانوا يتمسكـون بأصولهم القبلية ويتحـدون ضد الجنـد العربى الـذى كانت ترسلهم الحكومة المركزية لإقرار الأمن فى البـلاد ، وقد عُرِفَ هؤلاء الجند العربى بالشاميين لا لأنهم جميعاً من أهل الشام ، بل لأنهم كانوا يأتون من الشام وهى قاعدة الحكم فى العصر الأموى .

ومن الواضح أن الجنـد العربى كان يتحـول الكثير من رجالهم إلى عرب بلـديين نتيجة للاستقـرار فى البلاد ومخالطـة أهلها ، وبهذه الطريقـة كانت أعداد البلـديين تتزايـد بصورة مستمرة حتى نهايـة العصر الأموى مما جعـل غالبية هـؤلاء البلديين – مع أنهم العنصر الهام للسلطان – يتحـولون بمرور الزمن وتعـاقب الأجيال إلى عرب إفـريقيين ، ومن بينهم ظهر كبار الفقهاء والعلماء أمثال بهلول بن راشد وعبد الرحمن بن حبيب الفهرى وأسد بن الفرات وحبيب بن سعيـد وأخيـه سحنـون وغيرهم ، ومـع تخطيط عقبـة بن نـافع الفهـرى لمدينـة القيروان ٥٠ هـ – ٥٥ هـ بدأت فى إفريقية حـركة التعرب بـانتشار الإسلام واللغة العـربية وعلوم الفقـه والحديث ، حيث دخل نفر من البربـر الإسلام ، وقد ذكـر ابن خلدون أسماء القبائل البربرية التى اشتركت فى بناء القيروان واعتنقت الديـن الإسلامى وهى لواته ونفوسه ونفراوة[2] .

---

(١) ابن عبد الحكم فتوح مصر والمغرب ١٨ .

(٢) ابن خلدون العرب من ديوان المبتدأ والخبر ج ٦ ص ٤ .

وقد دخل فى عهد حسان[1] بن النعمان – واضع أسس النظم الإدارية فى بلاد المغرب – عدد كبير من البربر فى الإسلام على الرغم من أن هذه الفترة كانت فترة حروب الفتح والمعارك الطاحنة بين البربر والعرب الفاتحين ، قُتِلَ فيها من القواد عقبة بن نافع وابن أبى المهاجر وزهير بن قيس إلا أن بعض القبائل البربرية دخلت الإسلام مثل قبيلة أوربة .

وبإيعاز من عبد العزيز بن مروان تولّى بعد حسان موسى بن نصير[2] ، وكان يريد فتح المغربين الأوسط والأقصى ، ولكن إتبع فى ذلك أساليب عنيفة ، فنفر كثير من البربر ، فقد وجه موسى همه إلى غزو القبائل البربرية والحصول على المغانم وإرسال عدد كبير من السبى إلى دمشق إرضاء للخليفة الأموى ، وكان لذلك أثر سيء فى نفوس البربر .

ثم تولى عمر بن عبد العزيز خلافة الدولة الأموية وكانت سياسته تهدف إلى نشر الإسلام وإدخال الناس فيه من أهل البلاد المفتوحة بالرفق والحسنى والدعوة إلى الإسلام ، فكانت أول خطوة اتخذها نحو ولاية إفريقية أن أسندها إلى إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر بدلاً من محمد بن يزيد القرشى الذى تقلدها من قِبَلِ سليمان بن عبد الملك ، والمعروف عن محمد بن يزيد أن أسرته لم تكن محمودة نتيجة لما ارتكبه من أخطاء فى حق أهل إفريقية مما أدى إلى ثورة البربر عليه وقتله[3] .

---

(١) وهو أول أمير شامى يدخل إفريقية أيام الأمويين ، وكان يلقب بالشيخ الأمين ، وقيل إن الخليفة أطلق فى يده خراج مصر أثناء فتح بلاد المغرب ، وقيل عنه : لو امتدت ولاية حسان لجنى المغرب على يديه كثيراً من الخير .
راجع فى ذلك ابن أبى دينار : أخبار إفريقية وتونس ١٧ ، والمالكى : رياض النفوس ج١ ص ١١ ، ود . حسين مؤنس : فتح الرب للمغرب ص ٢٣٩ .

(٢) لما أراد والى مصر عبد العزيز بن مروان الانتقام من حسان بن النعمان لمكانته الحربية عند الخليفة عبد الملك بن مروان ، فأمر أخاه بعزله وإسناد مهمة الفتح لأحد خواصه وثقته وهو موسى بن نصير ، فقد قيل عنه إنه نهب خراج ولاية البصرة ، أما عن أبيه نصير فكان يعمل فى خدمة وحراسة معاوية ابن أبى سفيان .
انظر : محمد زينهم محمد عزب ، الإدارة المركزية للدولة الأموية – رسالة ماجستير ص ٦٧ .

(٣) ابن الأثيرالكامل فى التاريخ ج ٥ ص ٥٥ ، وابن الأبار المصدر السابق ج ٢ ص ٣٣٥ ، والسيوطى تاريخ الخلفاء ص ٢٤٧ ، والنويرى المصدر السابق ج ٢٢ ص ٨٣ .

اتفقت المصادر والمراجع على أن إسماعيل بن عبيد الله « دعا من بقى من البربر إلى دين الإسلام [1]» وأنه « كان خير أمير وخير والٍ ، وما زال على دعاء البربر إلى الإسلام حتى أسلم منهم عدد عظيم فى دولة عمر بن عبد العزيز ، وهو الذى علم أهل إفريقية الحلال والحرام [2] ، وأنه « لم يزل حريصًا على دعاء البربر للإسلام حتى تم إسلامهم على يده[3]» .

طلب عمر بن عبد العزيز[4] من واليه الجديد أن يبذل كل جهده فى سبيل نشر الإسلام بين البربر ، وقد وصف الدباغ[5] هذا الوالى بأنه « كان فقيهًا ، صالحًا ، فاضلاً ، زاهدًا » وكان عمر بن عبد العزيز قد أرسل إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر ومعه عشرة من التابعين ، وهؤلاء التابعون هم : أبو عبد الرحمن بن يزيد المعافرى[6] الإفريقى ، وأبو مسعود سعيد بن مسعود التجيبى[7] وإسماعيل بن عبيد الأنصارى[8] ، وأبو الجهم

---

(١) ابن عذارى المصدر السابق ج ١ ص ٣٤ .

(٢) السلاوى الاستقصاء ج ١ ص ٤٦ .

(٣) د . حسين مؤنس المرجع السابق ص ٢٩٦ .

(٤) ابن عبد الحكم سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٥٧ .

(٥) الدباغ معالم الإيمان ج ١ ص ١٥٤ .

(٦) شهد فتح الأندلس مع موسى بن نصير ثم سكن القيروان واختط بها دارًا ومسجدًا فى ناحية تونس . مات سنة ١٠٠ هـ بالقيروان .
انظر ترجمته فى : ابن الحجر : تهذيب التهذيب ج ٦ ص ٨١ ، ابن حيان ، مشاهير علماء الأمصار ص ١٢١ ، المالكى : رياض النفوس ج ١ ص ٦٤ ، البخارى ، التاريخ الكبير ج ٣ ص ١ ، الدباغ : معالم الإيمان ج ١ ص ١٨٠ - ١٨١ .

(٧) سكن القيروان وكان رجلاً صالحاً ، عالماً مشهوراً بالدين والفضل ، قليل الهبة للملوك ، توفى بالقيروان .
له ترجمة فى : أبو العرب : طبقات علماء إفريقية ٢١ ، الدباغ : المصدر السابق ج ١ ص ١٨٤ ، ابن أبى حاتم : الجرح والتعديل م ٢ ج ١ ص ٩٤ .

(٨) من أهل الفضل والعبادة والنسك ، كثير الصدقة والمعرفة مع الفقه والعلم ، سكن القيروان وبنى بها مسجداً كبيراً فى الزيتونة .
راجع ترجمته فى رياض النفوس للمالكى ج ١ ص ٦٩ ، وعند ابن الحجر : تهذيب التهذيب ج ١ ص ٣١٨ ، وأبو العرب : المصدر السابق ٢٥ .

عبد الرحمن بن رافع التنوخي[1] وأبو سعيد جعثل بن هاعان بن عمير الرعيني[2]، وإسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر المخزومي[3] ، وحيان بن أبي جبلة القرشي[4] ، وعبد الله بن المغيرة بن أبي بردة الكناني[5] ، وموهب بن حبي المعافري[6] وطلق بن جابان الفارسي[7] .

بدأ هؤلاء التابعون في تعليم البربر وأولادهم أصول وقواعد وتعاليم الدين الجديد ، ويبدو أن أهل إفريقية أقبلوا على الإسلام بنفس راضية لما وجدوا فيه من سماحة ومساواة وعدالة ، وتركوا ما يخالف عقيدة الإسلام[8] ، وقال ابن عذارى « وكانت الخمر بإفريقية

---

(١) هو من أول قضاة القيروان ، ثقة ، ومن فضلاء التابعين مات سنة ١١٣ هـ انظر الخزرجي : خلاصة تهذيب الكمال ٩٢ ، الذهبي : ميزان الاعتدال ج ٢ ص ١٠٣ ، المالكي : المصدر السابق ج ١ ص ٧٢ ، ابن الحجر : المصدر السابق ج ٦ ص ١٨٦ ، البخاري : المصدر السابق ج ٣ ص ١ ، ابن حيان : المصدر السابق ص ١٢١ .

(٢) كان فقيهاً صالحاً ، ولاه هشام بن عبد الملك قضاء جند إفريقية وهو أحد القراء التابعين ، توفي سنة ١١٥ هـ .
انظر المالكي ، المصدر السابق ج ١ ص ٧٢ ، ابن الحجر : المصدر السابق ج ٢ ص ٧٩ .

(٣) كان فقيهاً صالحاً ، فاضلاً زاهداً ، تقلد منصب القضاء في إفريقية ، أسلم على يديه عدد كبير من عامة البربر ، توفي سنة ١٢٢ هـ .
له تراجم في ، ابن الأبار : الحلة السيراء ج ٢ ص٣٣٥ ، البخاري : المصدر السابق ج ١ ص ٣٣٦ ، ابن حيان : المصدر السابق ١٧٩ ، أبو العرب المصدر السابق ٢٠ .

(٤) كان من أهل الفضل والدين ، سكن القيروان وانتفع أهلها بعلمه توفي سنة ١٢٥ هـ .
انظر : المقري : نفح الطيب ج ٢ ص ٥٣ ، ابن حجر : المصدر السابق ج ٢ ص ١٧١ ، المالكي المصدر السابق ج١ ص ٧٣ ، ابن أبي حاتم : المصدر السابق م ١ ج ٢ ص ٢٤٨ .

(٥) كان من فضلاء التابعين وأهل الورع ، تقلد قضاء القيروان لسليمان بن عبد الملك .
له ترجمة في : الخشني : طبقات علماء إفريقية ٢٣٤ ، المالكي : المصدر السابق ج ١ ص ٨١ .
أبو العرب : المصدر السابق ٢٢ ، ابن أبي حاتم المصدر السابق م ٢ ج ٢ ص ١٧٥ .

(٦) كان من فضلاء التابعين ، سكن القيروان ، ونشر فيها علمه الغزير .
له ترجمة في : البخاري : المصدر السابق ج ٤ ص ٢ ، الدباغ : المصدر السابق ج ١ ص ٢١٣ .

(٧) كان فقيهاً عالماً صالحاً وهو من أهل مصر ، سكن القيروان ومات بها .
انظر المالكي : المصدر السابق ج ١ ص ٧٦ ، أبو العرب : المصدر السابق ٢٠ ، الدباغ : المصدر السابق ج ١ ص ٧٥ .

(٨) د/ حسين مؤنس فتح العرب للمغرب ٢٩٦ .

حلالٌ حتى وصل هؤلاء التابعون فبينوا تحريمها رضى الله عنهم »(١) .

ونلاحظ أن معظم هـؤلاء التابعين كانوا يقيمـون فى القيروان ولذلك كَثُرَ بناء المسـاجد التى كـانوا يُعلمُـون فيها النـاس قواعـد الإسلام ، وكـان البربر يَفِـدُون على هذه المسـاجد فيستمعـون إلى الـدروس التى كـانت تُلّقَى فيهـا ، وعلى أيدى هـؤلاء التـابعين بنُيت عـدة مساجـد نذكـر منها مسجد الـرباطى الـذى بناه أبـو عبد الرحمن الحبلى عبـد الله بن يـزيد المعافرى الإفـريقى ، وجامع الزيتونـة الذى بناه إسماعيل بن عبيد اللـه الذى اشِتُهِرَ بلقب تاجر الله .

وبفضل هـؤلاء التـابعين وضعت أول بزور العلـم والفقه الإسـلامى حيث تتلمـذ على أيديهم الطبقة الأولى من علماء إفـريقية أمثال أبى كريب المعافرى وعبـد الله بن عبد الحكم البلـوى وأبى خالـد عبـد الرحمن بن زيـاد بن أنعم المعـافرى وأبى محمـد خـالد بن عمـران التجيبى وسعيد بن لبيد المعافرى وأبى زكريا يحيى بن سلام وغيرهم .

وكان هـؤلاء المتعلمون من أهل إفريقيـة يقضون بعض الوقت للـدراسة فى القيروان ثم يعودون إلى قبـائلهم ونواحيهم فيتقلـدون وظائف القضاء والـدين ويعلمون النـاس أصول ومبادىء الإسلام ، فقد ذُكِرْ فى سيرةأسد بن الفرات بـن سنان أن أباه قَدِمَ إلى إفريقية وأمه حامل به ، فَولِدَ أسد بتونس سنة ١٤٥ هـ وقرأ على عليّ بن زياد(٢) .

والشيء الملفت للنظر فى تلك الفترة أن العرب لما نـزلوا إفريقية كانـوا شديدى الاهتمام والحرص على أن يتخذوا لأبنائهم الكتـاتيب الصغيرة الملحقة بالمساجد ليدرسـوا فيها القرآن والحديث والدين واللغة العربية ، ويعجبنى قول الأستاذ الكبير حسن حسنى عبد الوهاب فى تعليقه على هـذه الظاهرة : « إنهم عندمـا أناخوا بمعسكـرهم وخطوا قيروانهم ، أنشأوا

---

(١) ابن عذارى البيان المغرب ٢ / ٣٤ .

(٢) المالكى رياض النفوس ج ١ ص ٦٥ ــ ٦٦ ، وص ١٠٧ ـ ١٠٨ ، والدباغ المصدر السـابق جــ ١ ص ١٣٨ - ١٤٨ . د/ حســـين مؤنس المرجع السابق ص ٢٩٦ ، وابن الأبـار الحـلة السيـراء ج ٢ ص ٣٨٠ .

الدور والمساجد ، ثم التفتوا إلى تعليم صبيانهم ، فاتخذوا لهم محلاً - كُتّاباً - بسيط البناء يجتمعون فيه لقراءة كتاب الله العزيز[1]» .

ومع قيام الخلافة العباسية لم يجد العنصر العربى سواء أكانوا قيسية أم يمنية فى إفريقية سنداً من الدولة العباسية حيث وفدت عناصر جديدة من الخراسانيين فى الحملات التى كان يبعثها العباسيون من وقت لآخر لبلاد إفريقية .

صحيح أنه حدثت فى بداية الأمر اضطرابات وصدامات مباشرة بين الجند العربى والخراسانى مما هدد بقاء السلطة العباسية فى إفريقية وكانت السبب مقتل محمد بن الأشعث الخزاعى ، ولكن بمرور الوقت اندمج العنصر العربى الخراسانى بأهل البلاد الأصليين (البربر) عن طريق المصاهرة ، فقد برز من العنصر الخراسانى عدد من الفقهاء والعلماء كان لهم دورًا هامًّا فى حدوث نهضة فقهية وعلمية فى إفريقية من أمثال محمد بن عبدوس .

ولكن من كان يقلق بال الدولة العباسية فى إفريقية هم الخوارج بشتى مذاهبهم ؛ لأن الخوارج كانوا من العوامل الرئيسية فى إسقاط الحكم الأموى ، مما دعا الخليفة المنصور أن يطلق يد ولاة مصر من أجل القيام بالحملات المتوالية للقضاء على الخوارج فى المغرب ، ومثال ذلك حملة محمد بن الأشعث التى تكلفت أموالاً باهظة ، ونجح هذا الوالى فى قتل زعيم الخوارج الإباضية ، وهو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح بن مالك المعافرى ، ولكن سرعان ما استولى أبو حاتم الإباضى على القيروان ، وانتصر على واليها العباسى محمد بن الأشعث وقتله .

واستمرت مشكلة الخوارج تثير مخاوف وذعر بنى العباس ، فكان المنصور يرسل الحملة وراء الحملة ، وأخيراً أسند هذه المهمة للمهالبة الذين برعوا منذ العصر الأموى بقدراتهم فى التصدى للخوارج[2] .

---

(١) حسن حسنى عبد الوهاب ورقات القسم الأول وكذلك أداب المعلمين ص ٩ .
(٢) ابن الأبار المصدر السابق ج ١ ص ٣٥٦ - ٣٥٧ ، والمالكى المصدر السابق ج ١ ص ٣٦٠ ، والنويرى المصدر السابق ج ٢٤ ص ٧٢ .

وقد أنجز المهالبة هذه المهمة حيث ترك الخوارج منطقة إفريقية واتجهوا إلى مناطق أخرى فى بلاد المغرب فأسس بنو مدرار دولتهم فى سلجماسة (وأصلهم من البربر) ١٤٠ هـ - ٧٥٧ م وبنو رستم الإباضية فى المغرب الأوسط (ويقال إن أصلهم فارسى) .

ففى فترة المهالبة هذه ظهر تعاطف البربر مع العباسيين فى تصديهم للخوارج وهذا يرجع لدور الفقهاء ، والمعلمين والتابعين الذين يمثلون المذهب السنى شعار دولة بنى العباس إلى جانب الكتاتيب الصغيرة العلمية ، والمساجد التى يُلقى فيها الدروس عن مساوىء الخوارج ومذاهبهم المدمرة للإسلام أى ما نطلق عليه اليوم بالتوعية الدينية .

وتعتبر فترة المهالبة هذه من فترات الرخاء والاستقرار والهدوء التى عاشتها إفريقية خاصة فترة يزيد بن حاتم المهلبى ، إذ برع يزيد بن حاتم فى قيادة ولاية إفريقية قيادة حسنة حيث قام بعدة إنجازات ، وأعمال شهد له بها المؤرخون والرواة ، من أهمها - كما ذكرنا - قضاؤه على ثورات الخوارج فلم نسمع فى عهده عن قيام ثورة ، أو تمرد خارجى من جانب الخوارج ، كما اهتم بالبناء والعمارة فبنى المسجد الأعظم بالقيروان ، كما اهتم أيضاً بالفقهاء والعلماء والشعراء ، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر عبد الرحمن بن زياد بن أنعم والبهلول بن راشد وابن فروخ(١) .

١ ــ قيام دولة الأغالبة : (١٨٤ - ٢٩٦ هـ ـ ٨٠٠م) .

ووسط كل هذه الظروف التى ذكرناها فى الفصل السابق ظهر « إبراهيم بن الأغلب » على مسرح الحياة السياسية فى بلاد إفريقية فقد قيل كان ظهوره نتيجة خدمته فى جيوش بنى المهلب(٢) ، وقد ذكر « ابن الأثير » أن إبراهيم بن الأغلب كان بولاية الزاب سنة

(١) د/ محمود إسماعيل عبد الرازق المرجع السابق ص ١١٢ ، وابن عذارى المصدر السابق ج ١ ص ٦٧ ، وحسن حسنى عبد الوهاب ورقات القسم الأول ص ٦٨ والنويرى المصدر السابق ج ٢٤ ص ٨٦ - ٨٧ .

(٢) ابن عذارى المصدر السابق ج ١ ص ١١٢ .

١٨٠ هـ ، وأنه لاطف « هرثمة بن أعين » وقدم له الهدايا فولاه ناحية الزاب ، وكانت بلاد الزاب منزل الكثير من التميميين قوم ورهط بنى الأغلب ، فكانت سنداً قوياً لإبراهيم بن الأغلب فيما بعد(١) .

وعندما خلع الرشيد هرثمة بن أعين من ولاية إفريقية بدأ إبراهيم بن الأغلب يتطلع إليها بشغف ، وهناك ظروف وأسباب مهدت له الطريق للوصول إلى هذه الولاية ، فمنها أن الوالى « محمد بن مقاتل العكى » أساء معاملة جنده ، وقطع عنهم رواتبهم كما ذكرنا ، فثاروا عليه وناصبوه العداء إلى جانب انقلاب أهل القيروان عليه نتيجة علاقته مع البيزنطيين فى صقلية ، فقد قيل إنه لاطفهم عن طريق إرسال النحاس والسلاح والجلود والهدايا الثمينة إليهم .

وليس لدينا ما يثبت ذلك ولكن على أى حال شاع هذا الأمر بين الناس ، وقد حذره الفقيه بهلول بن راشد من إرسال هذه المواد التى تعتبر موارد عسكرية إلى أعداء الدين ، وهذا يدل على أن الفقهاء لم يقتصر عملهم على الناحية الدينية فحسب ، بل كانت لهم مواقفهم القومية(٢) .

وفوق ذلك كله كانت براعة إبراهيم بن الأغلب فى القضاء على ثورة تمام بن تميم الذى بث الذعر والخوف والرعب لأهل إفريقية كلها حيث استعان إبراهيم بأهل إفريقية ، وهذه ميزة من ميزات الأغالبة عن أسرة آل طولون ، وقد اختلف الرواة والمؤرخون حول الدوافع والأسباب التى جعلت الخليفة هارون الرشيد يوافق على إسناد ولاية إفريقية لإبراهيم بن الأغلب ، فقد ذكر لنا « ابن الأبار » أن حصول إبراهيم على هذه الولاية كانت نتيجة نجاحه فى الكيد للأدارسة(٣) .

---

(١) ابن الأثير الكامل فى التاريخ ج ٦ ص ١٥٤ .

(٢) الرقيق القيروانى المصدر السابق ٢٠٥ ، ومحمود إسماعيل عبد الرازق الأغالبة ٢٢ .

(٣) انظر : النويرى نهاية الأرب ج ٢٤ ص ٩٩ . وابن الأبار الحلة السيراء ج ١ ص ٩٩ . والأدارسة نسبة إلى إدريس بن عبد الله بن الحسن الذى فر إلى المغرب الأقصى بعد انهزام إخوته فى موقعة الفخ بمكة سنة ١٦٩ هـ وتمكن من الإفلات من الموت مع مولاه راشد إلى مصر ، ومنها إلى الطرف الغربى من العالم الإسلامى حيث استقر ببلدة « ليلى » قاعدة جبل زرهون فى سنة ٧٢ هـ ، وبايعه ، بربر أوربة بالإمامة ونجح فى تأسيس دولة شيعية فى هذا الصقع من بلاد المغرب ، ثم انضمت إليه قبائل أخرى

بينما ذكر النويرى « أن الرشيد قلده إيـاها نتيجة لما فعله مع « محمد بن مقاتل العكى » فى مســاعدته فى القضاء على ثـــورة تمـام التميمى وهنــاك رأى آخـــر يقـول : « إن تنازل « إبراهيم بن الأغلب » عن الإعـــانة السنوية التـــى كانت تُجْلَب له مـــن مصـــر وتقـدر بمائة ألف دينار ، وتعهده بدفع أربعين ألف دينار سنوياً للخلافة العباسية جعلت هارون يستجب ، ويرحب بتقلده ولاية إفريقية(١) » .

وقيل إن صـاحب البريد « يحيى بن زيـاد(٢) » له الفضل فى تقلـد إبراهيم إفـريقية ، حيث كـان يطلع الخليفة هـارون بأمـور وأحوال هـذه الولايـة وبإخـلاص وكفاءةِ إبـراهيم السياسية والحربية .

كما يذكر الـدكتور حسين مؤنس (٣)بأن سيـاسة الرشيـد كانت تهدف إلى تـأمين ولاية أفريقية ، لأنها كانت كل ما بقى لدولة بنى العبـاس فى الجناح الغربى لدولة الإسلام ، وقد سبق أن ذكرنـا أن حدود دولة بنى العباس وقفـت عند نهر شلف الفاصل بين ولاية إفـريقية والمغرب الأوسط ، ولهذا فعنـدما أيد هـرثمة بن أعين فكـرة تولية إبـراهيم بن الأغلب أمور إفـريقية ، ومنحـه استقلالاً محليـاً طبقاً للشروط السـابق ذكرهـا وافق الرشيـد على ذلك ، وأصبحت ولاية إفريقية فى بيت إبراهيم بن الأغلب(٤).

(=) منها زواغة وسدرنـة وغياثة ومكناسة وغمارة . تطلع إدريس بن عبد الله إلى تـوحيد المغرب ، وكان من الطبيعى أن يخشى الخلفاء العباسيـون من مطامع الأدارسة فى المغرب ومصر ، فاستجـاب الرشيد لطلب إبراهيم بن الأغلب حتى تكون دولة الأغالبة فى المغرب الأدنى حاجزاً بين البلاد الخاضعة للدولة العباسيـة وبلاد الأدارسـة فى المغرب الأقصى الـذين كانـوا يتطلعون إلى فصل المغـرب عن بقيـة العالم الإسلامى ، بل كانوا يهدفون إلى توحيد المغرب والمشرق العربيين تحت قيادتهم .

وقد أورد الأستاذ الدكتور « أحمد مختار العبادى » نصاً لرسالة وجهها إدريس بن عبد الله إلى المصريين يمكن أن نستنتج منها مدى اتصال الأدارسة بأهل مصر .

ابن الخطيب : أعمال الأعلام ج ٣ ص ١٧ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٢٩٨ - ٢٩٩ .

(١) النويرى نهاية الأرب ج ٢٤ ص ١٠٠ - ١٠١ ، وابن خلدون العبر من ديوان المبتدأ والخبر ج ٤ ص ١٩٦ .

(٢) السلاوى الاستقصا ج ١ ص ١٤٧ .

(٣) د/ حسين مؤنس فتح العرب للمغرب .

(٤) كانت أم هارون الرشيد هى الخيزران البربرية من المغرب ، فنشأ محباً للعرب .

انظر : محمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٣ ص ١٣١ .

صفوة القول إن كل الأحداث التى مرت بها المغرب جعلت الخلافة العباسية تفكر فى إسناد هذه الولاية لرجل يتميز بصفات القدرة على الحكم والولاء للدولة والإخلاص للبيت العباسى ، والذى شجع العباسيين على إسناد هذه الولاية لإبراهيم بن الأغلب تلك التجربة السابقة مع المهالبة ، وهم بيت من الحكام طالت ولايتهم واحداً بعد واحد على إفريقية فى طاعة الدولة العباسية ، لأن بنى العباس كانوا يرون إفريقية عبئاً كبيراً عليهم ، ويريدون أن يطمئن بالهم عن ناحيتها خاصة أنها كانت تكلفهم الكثير من المال ، فإذا عرض عليهم أحد رجالهم القادرين أن يحمل عنهم عبء إفريقية مع بقائه على طاعتهم وحفظ الأمن فى الولاية دون أن يكلفهم مالاً . فكان من الطبيعى أن يرحبوا بمثل هذا العرض فما بالنا بإبراهيم بن الأغلب الذى عرض فى هذه الصفقة أن يتنازل عن مبلغ مائة ألف دينار كانت مصر ترسلها معونة لوالى إفريقية ، وهذا المبلغ سيئول إلى خزانة الدولة العباسية فى هذه الحال ، لكل هذا وافقت الدولة العباسية على جعل ولاية إفريقية فى بيت إبراهيم بن الأغلب مع البقاء على الطاعة والولاء .

واستطاع إبراهيم بن الأغلب أن يحقق التزاماته نحو الخلافة فكوّن قوة عسكرية كبيرة من البربر المستعربة الذين عملوا كجند فى الجيش الأغلبى كما استكثر إبراهيم بن الأغلب من الصقالبة و « هم جند من أصل أوربى كانوا يُشترون صِغاراً من تجار الرقيق الذين يجلبونهم من أوربا ، وكانوا يُرَبَّوْنَ تربية عربية إسلامية ليكونوا بعد ذلك جنداً وخدماً للدولة فى القصور والوظائف » ، وكما أضاف إليهم بعد ذلك قوة من السود[1] .

كذلك كوّن إبراهيم بن الأغلب قوة بحرية هائلة مكنت الأغالبة بعد ذلك من غزو صقلية ومالطة والسواحل الإيطالية ، ولم يطمئن على حكمه إلا بعد أن تم له إنشاء كل هذه القوات خلال السنوات الأولى من حكمه لإفريقية ، كما أقام إبراهيم الخطبة لبنى العباس على المنابر ، ورفع شعار بنى العباس ، ودفع الخراج المقرر عليه وهو أربعون ألف دينار ،

---

(١) د/ السيد عبد العزيز تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى ٣٣٤ ، والنويرى المصدر السابق ج ٢٤ ص ١٠٢ .

ونقش اسم الخليفة على السكة ، وشيد مدينة جديدة أطلق عليها العباسية (القصر القديم) تمجيداً لهم وهى تقع على بعد ثلاثة أميال جنوبى القيروان ، وفى عهد إبراهيم بن الأغلب ثار بتونس رجل من كبار رجالات العرب يُسمى حمد يس ونزع السواد شعار بنى العباس ، فأرسل إبراهيم قائده عمران بن مجالد فى جيش كبير للقضاء على حركته ، فالتقى عمران معه فى معركة قرب تونس انهزم فيها حمد يس وأنصاره ، وقتل منهم نحو عشرة آلاف مقاتل ، وتمكن عمران من دخول تونس ، وبرغم أن عهد ابن الأغلب لم يخل من الثورات والفتن ولكنها كانت لا تقاس بالثورات التى كانت تضطرم فى إفريقية فى العهود السابقة ، على أى حال تمكن إبراهيم بن الأغلب بفضل ما لديه من كفاءة وشجاعة وذكاء وقوة مؤيديه من الجماعات اليمنية والقيسية من أن يقيم دولة جديدة تمثل الدولة العباسية فى بلاد إفريقية[1] .

وكان لتربية إبراهيم بن الأغلب الدينية أثر كبير فى ثقافته الظاهرة ، فقد كان حافظاً للقران الكريم ، فقيهاً عالماً مؤيداً لمذهب أهل السنة ، كثير الزيارات لشيخه الذى تتلمذ على يديه وهو الليث بن سعد الفهمى الذى وهب لإبراهيم جارية تدعى جلاجل ، وهى أم ولده زيادة الله ، كما كان شاعراً خطيباً ذا رأى وحزم وبأسٍ وعلم بالحروب والمكايد ، وهذا هو ما قرب بينه وبين الفقهاء من أهل الدين ، وهذا بدوره أكسبه تأييد الناس فاتخذ من الفقهاء مستشارين له كانوا خير عون له فى ضبط أمور الدولة ، ودفعها إلى طريق العلم والحضارة والرقى .

ووسط هذا الجو الذى كان يحمل الهدوء والاستقرار برز عدد كبير من العلماء والفقهاء الذين لعبوا دورًا هامًا فى النهضة الفكرية للمذهب المالكى السنى ، كما تصدوا للخوارج

---

(١) د / أحمد مختار العبادى سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس ١٩٦ - مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية ، العدد ١ ، ٢ ، ١٩٥٧ والقلقشندى صبح الأعشى ج ٥ ص ١٢٠ ، وابن عذارى المصدر السابق ج ١ ص ١١٧ ، وابن خلدون المصدر السابق ج ٤ ص ٤١٩ ، والسيد عبد العزيز سالم المرجع السابق ٢٨٩ ، وسعد زغلول عبد الحميد تاريخ المغرب العربى ج ٢ ص ٢٨ .

الذين كانوا يشكلون خطراً على كيان أهل السنة ، وخطراً على السلطان لبنى العباس فى إفريقية قبل قيام دولة الأغالبة وبعدها(١) .

٢ـ الحضارة والعمران :

ذكرنا - من قبل - أن فترة الأغالبة فى إفريقية تعتبر من أمجد فترات تاريخها كما يروى المؤرخون ، فقد دامت هذه الفترة أكثر من قرن من الزمان ساد فى أثنائها الاستقرار السياسى النسبى لبلاد إفريقية ، وكان للمذهب السنى وشيوخه نصيب كبير فى إقامة وتثبيت دعائم هذا الاستقرار ، فقد تمكن الفقهاء بمعاونة أمراء الأغالبة من إخراج الخوارج من بلاد إفريقية ، فلم يعودوا يعيشون إلا فى جبل نفوسة جنوب ولاية طرابلس من أملاك الأغالبة ، أما طرابلس نفسها فقد كانت سنية يسودها الفقه المالكى ، وعندما أقام الخوارج الإباضية دولة لهم أقاموها خارج بلاد الأغالبة فى إقليم تاهرت ، وهو الجزء الغربى من المغرب الأوسط(٢) .

إن قيام دولة الأغالبة جعل لإفريقية وأهلها شخصية مميزة وفريدة تختلف كل الاختلاف عن بقية بلدان المغرب ، فكانت المدن والقرى الإفريقية محطات ومراكز العلم والشيوخ والتجار ، فنهضت حركة العمران والإنشاء إلى جانب الزراعة والرعى ، وكانوا ينتقلون من مكان إلى آخر ، واحتلت تونس بخطواتها السريعة هذه محل مدينة قرطاجنة فهى تشتمل على معالم الحياة من مبانى وأسواق ودار صناعة للسفن التى أنشأها حسان بن النعمان ، ومَنْ جاء بعده من الولاة والحكام الأغالبة ، مما جعل العرب من سكان إفريقية يصُابون بالغرور والكبرياء والتمرد على الحكام فى القيروان(٣) .

---

(١) ابن أيبك الدرة المضية فى أخبار الدولة الفاطمية ج ٦ ص ٢٣ - ٢٥ ، والباجى المسعودى الخلاصة النقية بأمراء إفريقية ٢٢ - ٢٣ ، وابن عذارى المصدر السابق ج ١ ص ١١٦ .
(٢) انظر : د/ حسين مؤنس معالم تاريخ المغرب والأندلس ٩٥ ، والأنصارى المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب ج ١ ص ٦٨ ، وابن عذارى المصدر السابق ج ١ ص ٨٩ .
(٣) حسن حسنى عبد الوهاب ورقات ج ١ ص ٣٩ .

وإذا كان من المعروف عن فترة المهالبة أنهم قد أعطوا اهتماماً كبيراً فى إفريقية لإقامة الأبنية والمنشآت التى تميزت بها ، وخاصة فى فترة يزيد بن حاتم(١) الذى كان له دور كبير فى توسيع جامع القيروان ، وإنشاء العديد من الأسواق فى مدينتى تونس والقيروان وغيرهما كما أنشأ هرثمة بن الأعين القصور للمرابطين والزهاد والمحاربين على الساحل ، فإن الأغالبة قد جلبوا المدينة والحضارة فى إفريقية والمغرب الأوسط .

فمن أعظم إنجازات الأغالبة المعمارية تجديد مسجدى القيروان وتونس وهما المعروفان بمسجد عقبة بن نافع ومسجد الزيتونة - فمسجد القيروان قد تعرض لعدة تجديدات منذ أن أسسه عقبة بن نافع الفهرى إلى نهاية عصر الأغالبة ، وذلك فى عهود : حسان بن النعمان وحنظلة بن صفوان وزيادة الله بن الأغلب الذى أدخل عليه التجديدات الحاسمة ، ورفع قبابته ومئذنته وإعطائه صورته الحالية ، ويذكر ابن عذارى(٢) أن زيادة الله أنفق أموالاً كثيرة فى هذا العمل ، وكان يفتخر بهذا العمل فيقول : « ما أبالى ما قدمت عليه يوم القيامة ، وفى صحيفتى أربع حسنات : بنيانى المسجد الجامع بالقيروان ، وبنيانى قنطرة أم الربيع ، وبنيانى حصن مدينة سوسة ، وتوليتى أحمد بن أبى محرز قضاء إفريقية »(٣) .

وقال الأستاذ أحمد فكرى عن جامع القيروان فى كتابه « آثار تونس الإسلامية ومصادر الفن الإسلامى » : « ولا يقتصر فضل القيروان على التخطيط ، فإن هذا المسجد العظيم يحوى عناصر معمارية ظهرت فيه لأول مرة فى تاريخ العمارة أو على الأقل يبقى فيها أقدم الأمثلة التى لاقت من بعده انتشارًا كبيرًا فى بلاد الشرق والغرب ، وأصبحت من العناصر المميزة للعمارة الإسلامية ، وأذكر من هذه العناصر أقواس مسجد القيروان »(٤) .

---

(١) الرقيق القيروانى المصدر السابق ١٩٥٠ ، وحسن حسنى عبد الوهاب ورقات ج ١ ص ٦٠ ود/ السيد عبد العزيز سالم المرجع السابق ٢٧٦ والمالكى ورياض النفوس ج ١ ص ٤٥ .
(٢) ابن عذارى المصدر السابق ج ١ ص ١٣٨ .
(٣) أحمد فكرى آثار تونس الإسلامية ومصادر الفن الإسلامى ٥٧ .
(٤) حسن حسنى عبد الوهاب ورقات ج ١ ص ١١٣ ، وزكى محمد حسن فنون الإسلام ٦١ .

وكذلك قام زيادة الله بتجديد وتوسيع مسجد جامع تونس ، ولكن المنية أدركته قبل أن يُكملها ، فتولى بعده إبراهيم بن أحمد سادس أمراء الأغالبة فهو الذى أمر ببناء قبابه المضلعة ، ووضع فيه أعمدة الرخام وزينه بالزخارف والنقوش والكتابات الكوفية الجميلة ، وكذلك أمر إبراهيم بن أحمد ببناء القبة الكبيرة الموجودة الآن فى جامع القيروان ، وهى من أجمل القباب فى تاريخ المساجد الإسلامية . وحول القباب فى مسجد القيروان يقول الدكتور أحمد فكرى : « ولاشك أن أول مثل إسلامى للنظام المبتكر للقباب المرتكزة على أقواس يظهر أيضاً فى مسجد القيروان ، وسواء أكان الفضل فى وضع هذا النظام الجديد يعود إلى الفرس أو إلى الرومان ، وسواء أكان الأصل فى اشتقاق هذه القباب يرجع إلى مصر القبطية أم إلى إفريقية البيزنطية ، وأياً كان الأصل فى هذه القباب فإنه لا يُضعف شأن بنيان القيروان »(١) .

ثم قام أبو العباس محمد بن الأغلب خامس أمراء الأغالبة ببناء جامع سوسة الذى يعتبر من أجمل الآثار المعمارية الإسلامية فى إفريقية ومن منشآته أيضاً رباط سوسة المعروف بقصر الرباط(٢) .

وإذا كان بنو الأغلب قد اعتنوا بالمنشآت الدينية فإن عنايتهم بالمنشآت العسكرية والمدنية لا تقل أهمية ، فقد أنشأ الأغالبة الكثير من الأسوار والأبراج للمدن وخاصة التى تقع على الساحل ، ولا ننسى دار تونس لبناء السفن ودار سوسة لصناعة الأسلحة واللتان كانتا لهما أمجاد فى تاريخ البحرية الإسلامية وخاصة فى حوض البحر المتوسط وخير مثال على ذلك فتح جزيرة صقلية(٣) .

ومن أشهر المنشآت العسكرية فى عصر الأغالبة الرباطات ، وهى قريبة الشبه بالقصور السابق ذكرها ، ولكنها كانت تُخصص للمجاهدين والمرابطين ما بين حاميات

---

(١) أحمد فكرى ، مسجد القيروان٧٨ .
(٢) سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربى ج ٢ ص ٧١ .
(٣) السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ٣٦٣ .

رسمية وأفراد من المتطوعين ، ولكن من المعروف أن الرباط كان للأفراد ، أما الجند الرسمى فكانت تبنى لهم معسكرات ، وقد وصف لنا الأستاذ الدكتور حسين مؤنس الرباطات فقال(1) : « يحيط بالرباط عادة سور مرتفع ، وتقوم على أركانه وعلى مسافاتٍ منه أبراج يقف فيها الحراس ، وتوقد فيها النيران وقت الخطر » ، وقد بقى لنا من رباطات عصر الأغالبة رباط سوسة وهو من بناء زيادة الله بن الأغلب أسسه سنة ٢٠٦ هـ ، وتاريخ الإنشاء مسجل على لوحة من الرخام بأعلى مدخل المنار ، وتقرأ عليها النص التالى « مما أمر به الأمير زيادة الله بن إبراهيم أطال الله بقاءه على يد سرور الخادم مولاه فى سنة ستٍ ومائتين ، اللهم أنزلنا منزلاً مبارك وأنت خير المنزلين » ، ويقع رباط سوسة على خليج قابس ، وهو داخل سور المدينة من ناحية البحر وطول ضلع سوره أربعون متراً تقريباً ، وبداخل السور ثلاث قاعات واسعة تسمى الأسطوانات مرفوعة على عمد وفوقها سقف يتكون من ثلاث قباب ، وهذه القاعات والأسطوانات يؤدى بعضها إلى بعض وهى تستعمل للنوم والأكل ، ويليها صحن الرباط وهو مساحة واسعة مسورة تدور حولها البوائك ، وهذه البوائك طابقين وهى تفتح أو تطل على صحن الرباط ، وفى ركن من الصحن يقوم مسجد الرباط(2) .

وحول الرباط وقصره قال الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب : « فى فجر المائة الثالثة للهجرة وجه الأمير زيادة الله عناية كاملة لإعادة الحصن الذى أقامه أبو إبراهيم الأكبر فى مكان الرباط الخالى ، فيأمر أحد فتيانه بتوسيع نطاق الحصن الأول ، ويجعله على طابقين أسفل وأعلى ويقيم فيه ثلاثين غرفة لسكنى المرابطين علاوة على الحمام والمرحاضات ، وينصب فى الطابق العلوى مسجداً جامعاً للصلاة والخطبة ، ويُبنى المسجد على أقواسٍ متماسكة العقود ، وهو أول مسجد يُبنى أى قبل إنشاء فنائه وقبل الجامع الكبير الآتى

(١) د/ حسين مؤنس ، المرجع السابق ٩٧ .

(٢) Creswell A Short Account P.232 . ود / السيد عبد العزيز ، المرجع السابق ٣٦٤ ، وحسن حسنى عبد الوهاب ، ورقات عن الحضارة بإفريقية التونسية ج ٢ ص ٢٤ .

(٣) حسن حسنى عبد الوهاب ، المرجع السابق ج ٢ ص ٢٤ .

ذكرهما ، فمن يقطن سوسة وقتئذ كان يقصد الرباط لأداء الجمعة والأعياد[٣] .

وكان رباط سوسة قريب الشبه برباط المنستير[١] وهو أقدم وأجمل منه من الناحية الهندسية ، وقد إتسع هذا الرباط حتى أصبح على شكل حصنٍ كثير المساكن ، والرباط عبارة عن طابقين يخصص الأول منهما للمسجد وقاعات للدرس والاجتماعات والطعام الذى كان المرابطون وأهل الرباط يتناولونه معهم أحياناً ، ويخصص الثانى للحراسة والعبادة والخلوة ، وفى العادة يتولى الرباط شيخ من أهل التقوى والورع والصلاح وهو الذى يتولى تنظيم وتسيير العبادة أو الحراسة فيه[٢] .

---

(١) المنستير ميناء يقع بين سوسة والمهدية ، وكانت فى الأصل رباطاً أو قصراً يرابط فيه المسلمون لحماية ثغور إفريقية من الغارات البحرية التى كان يقوم بها الروم ، بناه هرثمة بن أعين والى إفريقية من قِبَل الرشيد فى سنة ١٨٠ هـ .
وقد وصف البكرى هذا الرباط فقال « وبالمنستير البيوت والحجر والطواحين ومراجل الماء ، وهو حصنٌ عال البناء مُتقن العمل وفى الطبقة الثانية منه مسجدٍ لا يخلو من شيخ خير فاضل يكون مدار القوم عليه ، وفيه جماعة من الصالحين والمرابطين قد حبسوا أنفسهم فيه منفردين دون الأهل والعشائر ، وهو قصرٌ كبيرٌ عالٍ داخله ربضٌ واسع ، وفى وسط الربض حصنٌ ثانى كبير كثير المساكن ، والمساجد والقصاب العالية طبقات بعضها فوق بعض ، وفى القبلة صحن فسيح من قبابٍ عالية متقنة ينزل حولها النساء المرابطات وله يوم عاشوراء موسم عظيم ومجمع كبير ، وكان أهل القيروان يخرجون إليهم بالأموال والصدقات الجزية ، ويُقرب المنستير محارس خمسة متقنة البناء ، ومعمورة بالصالحين . انظر البكرى : المصدر السابق ٣٦ ، وابن الخطيب : المصدر السابق ج ٣ ص ١١ .
(٢) د/ حسين مؤنس معالم تاريخ المغرب والأندلس ٩٧ .
(٣) يبدو أن سبب بناء ابن الأغلب لهذه المدينة يرجع إلى سكان القيروان وبما كانوا يتصفون به من تدين وورع حيثُ ابدوا سخطهم على الأمير لإقباله على الخمر وانغماسه فى حياة اللهو والملذات ، فاضطر ابن الأغلب لإقامة هذه المدينة للاستمتاع بالحياة بعيداً عن أنظار رعيته فلايناله شىء من تقريع فقهائهم وانتقادهم لسلوكه ، وربما يكون اتخذها تقليداً للخلفاء الأمويين والعباسيين فى اتخاذهم القصور خارج عواصمهم أو إشباعاً ، لرغبته فى الظهور بمظهر العظمة والأبهة ، وقد اشترى الأغلب لهذا أرضاً من بنى طالون ، وبنى قصراً للإمارة ، نقل إليه السلاح والعدد سراً ، وأسكن حوله عُبيده وفتيانه ومواليه وأهل الثقة من خدمه ، وسُمِىَ بالقصر القديم بالنسبة لقصر رقادة الذى بناه إبراهيم بن أحمد سنة ٢٦٤ هـ وعُرِف بالقصر الأبيض ربما لبياض لون جدرانه .
وفى هذه المدينة استقبل الأمير رسل شارلمان إليه سنة ١٨٥ هـ عندما قَدِمُوا لنقل رفات القديس سان سيبرين . (=) .

أما المنشآت المدنية وخاصة مدينة القصر القديم(٣)- التى بناها إبراهيم بن الأغلب، وتبعد ثلاثة كيلـو مترات جنوبى مدينة القيروان لتكون معسكرا لجنده ، ومقـاماً له ومعتقلاً لأسرته و كـانت تتكون من قصورٍ وحـدائق ومعسكرات وأماكن للعبـادة ، ولم يبق من آثار هذه المدينـة (الآن) شيء ، كما كانت تسمى العباسيـة ثم سمِيت بالقصر القـديم تميزاً لها عن مدينة القصر الجديد (رقادة)(١) التى بناها إبراهيم بن أحمد سنة ٢٦٤ هـ/ ٧٨ م .

واعتنى الأغالبة كذلك ببناء صهاريج الميـاه وجبابها ، والصهريج عبارة عن خزان ماء فـوق الأرض ، أمـا الجبُ فلا يكـون إلا فى بـاطن الأرض ، والجبُ مخزن واسع يتكـون من حجرة واسعة قد يصل قطرهـا إلى أربعين متراً ، وعُمقُها نحو عشرين متراً ثم يبنون عند الماء حجرة أو قبواً واسعاً بـالحجر أو الطوب الأحمر أو الطوب المغطى بالبلاط الـذى لا تؤثر فيه المياه .

كـذلك أكثر الأغـالبة من بنـاء المواحــل ، والماحــــل عبارة عن أحـــواض مـاء واســعة ، وعميقة تشبه الفسقيات يتجمع فيها مـاء المطر وهى دائماً مكشوفة ، وقد يُقَام فى وسط الماحل جَوسَقٌ يجلس فيه الأمير للراحـة ، ومواحل القيروان وسوسة وتونس تُعتَبر من الآثار الجميلة التى تستحق المشاهدة (٢) .

(=) انُظر ابن عذارى : المصدر السابـق ج ١ ص ١١٧ ، واليعقوبى : البلدان ٣٤٧ ، وياقوت الحموى : معجم البلدان ج ٢٤ ص ٣٦٢

Marcais L'Architecture Musulmane P . 26 - 27 .

(١) يصفهاالبكرى بقـول : « وأكثرها بساتين وليس بإفـريقية أعدل هواء ، ولا أرق نسيم ولا أطيـب تربة من مدينـةرقادة » وسُمِيَتْ رقـادة لأن الأمير إبراهيم أرَقَ يومـاً ، وشرد الكرى عن جفنيـه فلم ينم وأمر بالخروج والسير فلما وصل إلى هذا الموضع نام ، فسُمِيَ رقادة والـذى بنا رقادة واتخذها داراً هو إبراهيم ابن أحمد بن محمد بن الأغلب انتقل إليها من مـدينة القصر القديم وبنى بها قصوراً عديـدة وجامعاً ، وعمرت بـالأسواق والحمامات والفنـادق ، وكان يحيط برقـادة سور من الآجُرّ واللَّبِن أصلحـــه الأمير زيادة الله الثالث يتحصن فيها عند محاصرة أبى عبيد الله الشيعى لها .

انظر البكرى : المصدر السابق ٢٧ ، Marcais oP. CKT 28

(٢) ويصف الإدريسى الماجل الكبير بالقيروان بأنـه « من عجيب البناء لأنه مبنى على تـربيعٍ وفى وسطه بناء قـائم كالصومعة ، وذرع كل وجـه منه مائتـا ذراع وهو مملوء كلـه ماء » . أما البكرى فيـذكر عن الماجل الكبير « أنه مستديـر الشكل عظيم الاتساع ، يتوسط برج مثمن الشكـل ، يعلوه مجلس له =

وقد أنشأ زيادة اللـه الثالث آخر أمراء الأغالبـة فى عهده بركة أو ماجـلاً طوله خمسمائة ذراع وعرضه أربعمائة ذراع وأجرى إليه الماء بـالسواقى وسُمِى هذا الماجل الفسيح بالبحر ، وأقام على إحدى ضفتيه قصراً من أربعة طوابق سماهُ العروس ، وأنفق على إنشائه فيما يقرب من ٢٣٢,٠٠٠ دينار . غير أن الفـاطميين فى عهده كانوا قـد أوغلوا فى بلاد إفريقيـة وكثر جندهم ، واقتربوا من القيروان ، وهنا جمع زيادة الله ألفاً من أهل بيته وهرب بهم إلى مصر تاركاً بلاد إفريقية مقر ملكه للفاطميين(١) .

ومما لا شـك فيه أن الحياة الاقتصـادية قـد ازدهرت فى إفـريقية بقيـام دولة الأغـالبة ، فاستفادوا من وضع البلاد الجغرافى فجمعـوا الثورات الطائلة . وبفضل الموانئ المنتشرة على شاطىء البحـر المتوسط وهى مـوانئ سوسـة وتونس وبجـاية ، أمكن لـلأمراء الأغـالبة أن يقيموا الأسـاطيل ويحرزوا الانتصارات وقـد انعكس أثر هـذا على سكان إفـريقية فـانتعشوا اقتصادياً .

ونتيجة إحكام الأغالبة على زمام البحرية دون منازع ، احتكروا دور الوساطة التجارية

(=) أربعة أبـواب وبأعلاه قبة يحملهـا ١١ عموداً ، وبجوارهـذا الماجل مباشرةً ، وفى الجهة الشماليـة منه ماجل آخـر أقل إتساعاً يُعرف بـالفسقية يتلقى مياهـه من الوادى عند جريـانها ، فيخفف سرعتها ، وعندها يمتلىء بـالمياه حتى ارتفاع قامتين ، وتتدفق فى الماجل الكبير عن طـريق فتحة يسميها الصرح وكان قد شرع فى بنائه الأمير إبراهيم بن أحمد سنة ٢٤٥ هــ وأتمه سنة ٢٤٨ هـ ، ويُروى أنه أعتل أثناء اتخاذ الماجل بالقصر القـديم ، فكان يسأل : هل دخلـه الماء ؟ إلى أن دخله الـوادى ، فعرفـوه بذلك فسر به ، وأمـرهم أن يأتوه بكأس مملـؤة منه فشربها وقال : الحمـد لله الذى لم أمـت حتى تم أمره ثم مات على أثر ذلك .
وكان بالقيروان فيما يذكـر البكرى ١٥ ماجلاً كانت هذه المواجل مستديـرة الشكل ، تكسو سطوحها طبقة من البلاط شديد الصلابة .
انظر ابن الخطيب : المصـدر السابق ج ٣ ص ٢٣ ، والبكرى : المصـدر السابق ٢٥ ، والإدريسى : المصدر السابق ١١٠ .

(١) ابن عذارى المصـدر السابق ج ١ ص ١٨٦ ، وسعد زغلول عبـد الحميد تاريخ المغـرب العربى ج ٢ ص ١٦٧ ، و ص ١٨٢ . ومحمد إسماعيل عبد الرازق الأغالبة ص ٤٠ ، والإدريسى نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ص ١٢١ .

بالنسبة للتجارة العالمية بين الشرق والمغرب وجَنُوا من وراء ذلك أطيب الثمار ، كما اهتموا بالتجارة مع الجنوب فمهدوا طرق القوافل لتسهيل التجارة مع أهل اللثام وبلاد الجريد ، كما راجت دور الصناعة مثل دور تونس وسوسة وغيرها مستفيدة من الاستقرار النسبى للبلاد ، وأصبحت القيروان من أكبر المراكز التجارية فى غرب البحر المتوسط ، وأيضاً سوسة والأربس وقفصة وغيرهم .

كذلك اشتهرت رقادة بالأسواق والفنادق والقصور وكذلك العباسية - وإذا كانت بغداد ودمشق والإسكندرية قد عرفت نظام الأسواق المتخصصة - فإن القيروان أيضاً قد شهدت مثل هذه الأسواق منذ أيام حاتم بن يزيد المهلبى ، وعلا طريقها الرئيسى بالمتاجر ودور الصناعة ، ويحدثنا المالكى عن حوانيت الرفائين والكفايين وتجمعها فى مكان واحد حيث عرفت بالحوانيت الجدد(١) .

وكانت إفريقية الأغلبية تصدر القمح والشعير إلى الإسكندرية والرقيق السودانى إلى بلاد الشام ، كما كانوا يصدرون أيضاً النسيج والأبسطة والأقمشة الفاخرة إلى بغداد(٢) .

ولم يكتف الأغالبة بما تجود به أرضهم من بعض أنواع الزراعة بل استوردوا بعض

---

(١) السيد عبد العزيز سالم المرجع السابق ص ٣٢٣ ، والبكرى المصدر السابق ص ٢٧ ، ٢٨ ، وحسن إبراهيم حسن تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٣٢٠ ، ص ٣٢٥ ، والمالكى رياض النفوس ج ١ ص ١٩٥ - ١٩٦ .

(٢) اشتهرت إفريقية بصناعة المنسوجات ، وإلى سوسة كانت تنسب الثياب السوسية الرفيعة البياض الناصع ، وكانت منسوجات دور الطراز بإفريقية مما يهادى به للخلفاء العباسيين ، ويذكر ابن عذارى أن أبا عبد الله الشيعى لما هزم جيش إبراهيم قائد زيادة الله بن الأغلب ، غنم كثيراً من الأموال والسلاح والسروج واللجم وضروب الأمتعة ، وهى أول غنيمة أصابها الشيعى وأصحابه ، فلبسوا أثواب الحرير ، وتقلدوا السيوف المحلاة وركبوا بسروج الفضة واللجم المذهبة .

انظر فى ذلك : البكرى المصدر السابق ٣٤ ، مجهول : الاستبصار ١١٩ ، ابن عذارى : المصدر السابق ج ١ ص ١٨٥ ، و ص ١٨٧ ، ويذكر ابن عذارى أن زيادة الله الثالث بعث الحسن بن حاتم إلى العراق رسولاً منه بهدايا وطرف . وابن خلدون : المقدمة ص ١٨١ .

المحاصيل الزراعية من المشرق مثل القطن وقصب السكر ، وما جناه الأغالبة من ثروات طائلة ظهرت آثارها فيما أقاموه من منشآت وعمائر بإفريقية(١) .

وتُعتَبر فترة إبراهيم بن الأغلب وابنه زيادة الله الأول من أزهى فترات دولة الأغالبة حيث ساد الرخاء الاقتصادى فى عهدهما فَضُرِبَت الدنانير والدراهم على نمط الطراز العباسى ، كما دونت الدواوين مثل ديوان الخراج وكان من يُسْنَد إليه يعتبر من الشخصيات المرموقة وصاحب ثقة فى البلاط الأغلبى ، وديوان الخاتم وكان إبراهيم بن الأغلب قد أسنده لابنه عبد الله ، وكذلك دار الطراز التى كانت تنتج ما يرسله الأمير من الكساوى والإنعامات إلى مشاهير وكبار رجال الدولة فى المناسبات ، كما عرف الأغالبة الحسبة والعس وكان بلاط الأغالبة صورة مصغرة للبلاط العباسى(٢) .

وكتاب تاريخ إفريقية والمغرب من الكتب التاريخية الهامة التى ألقت الضوء على الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية لبلاد إفريقية (تونس) والمغرب بصفة عامة ، فشمل الكتاب منذ الفتح العربى لبلاد المغرب حتى ظهور دولة الأغالبة .

وأسأل الله العفو والمغفرة يا أرحم الراحمين

والله ولى التوفيق

القاهرة فى ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

الدكتور / محمد زينهم محمد عزب

---

(١) Heyd Histoire Du Commerce Vol . 1 P. 50 وهناك ثروة معدنية فقد اشتهرت «بجانة» بمعادنها الكثيرة وعلى الأخص الفضة والكحل والحديد والرصاص ، ويعتقد الأستاذ مارسيه أن منطقة «بجانة» أصبحت منذ منتصف القرن الثانى الهجرى تتمتع بنشاط اقتصادى بوجود المعادن بكثرة فى أرضها . Marcais op. cit. p. 79

(٢) ويرى الأستاذ مارسيه أن المشرفين على دار السكة كانوا من الموالى والروم أو العبيد أو الفتيان الذين أولاهم أمراء بنى الأغلب كل ثقتهم ، ويذكر مارسيه بعض أسماء هؤلاء الفتيان منهم موسى فى عهد إبراهيم بن الأغلب ، ومسروز فى عهد زيادة الله الأول ، ويذكر ابن عذارى أن زيادة الله الثالث اشتد كلفه بغلام له يُسمى خطاب ، فكتب اسمه فى سكة الدنانير والدراهم .
وابن عذارى : Marcais op . cit p . 82 المصدر السابق .

بسم الله الرحمن الرحيم

ولاية عقبة بن نافع[1] - رحمه الله

رحّل عقبة من الشام ، ولما مر على مسلمة[2] بمصر اعتذر إليه من فعل أبى المهُاجر[3] ، وأقسم بالله : لقد خالف رأيه فيما صنع ، وأنه وصّاه به ، وأمره بتقوى الله وحسن السيرة ، وأن يعزل عقبة أحسن عزل ، فإن أهل بلده يُحسِنون القول فيه ، فخالفنى وأساء عزلك ، فقَبِل منه عقُبةَ ، ومضى سريعاً لحَنَقِه على أبى المهاجر ، حتى قدم إفريقية ، فأوثق أبا المُهاجر فى الحديد ، وأمر بخراب مدينته ، وردّ الناس إلى القيروان[4] ، وركب فى وجوه العساكر من التّابعين والعُبّاد ، فدار بهم حول مدينة القيروان وهو يدعو لها ويقول : « يارب املأها فقهاً وعلماً ، واعْمُرْها بالمطيعين والعابدين ، واجعلها عزّاً لدينك ، وذلاّ لمن كفر بك ، وأعز بها الإسلام ، وامنعها من جبابرة الأرض » .

(ثم عزم) عقبة على الغزو فى سبيل الله ، وترك بها جنداً من المسلمين ، واستخلف عليهم زهيرَ بن قيس[5] ، ودعا أولاده فقال لهم : « إنى بعت نفسى من الله عزّ وجلّ أن

---

(١) وهو ابن خالة عمرو بن العاص ، ولد فى أوائل الهجرة النبوية فاعتبر لذلك صحابى المولد ، وتولى إمارة جيش إفريقية مرتين ، المرة الأولى من سنة ٥٠ هـ - سنة ٥٥ هـ/ ٦٧٠ م - ٦٧٤ م . والمرة الثانية من ٦٠ هـ - ٦٤ هـ/ ٦٨٠ م - ٦٨٤ م . وذلك فى عهد معاوية بن أبى سفيان وولده يزيد .

(٢) كان والى مصر فى أنذاك الوقت .

(٣) هو أبو المهاجر دينار ، تولى إمارة جيش إفريقية فى الفترة التى بين ولايتى عقبة الأولى والثانية أى من سنة ٥٥ هـ - ٦٠ هـ/ ٦٧٤ -٦٨٠ على عهد معاوية .

(٤) قال الأزهرى : القيروان معرب وهو بالفارسية كاروان ، وقد تكلمت به العرب قديماً وهى مدينة عظيمة بإفريقية غبرت دهراً وليس بالغرب مدينة أجَلّ منها إلى أن قدمت العرب إفريقية وأخربت البلاد فانتقل أهلها عنها فليس بها اليوم صعلوك ، يطمع فيه وهى مدينة مصرت فى الإسلام فى أيام معاوية

انظر التفاصيل فى : معجم البلدان لياقوت الحموى

(٥) هو زهير بن قيس البلوى ، وهو الذى استعاد إفريقية من يد كسيلة بعد أن هزمه وقتله سنة ٦٩ هـ فقضى بذلك على قوة البربر البرانس ، وقد استشهد زهير فى إحدى المعارك الساحلية مع البيزنطيين بنواحى برقة .

أجاهد من كفره حتى ألحق بالله ، ولست (ج) أدرى أترونني بعد (يومى) هذا أو أراكم لأن أملى الموت فى سبيل الله أو ردى إليكم كما أحب » ، ثم قال : « اللّهم تقبّل منى نفسى فى رضاك » ، ومضى فى عسكر عظيم حتى أشرف على مدينة باغاية ، فكانت النّصارى تهربُ من طريقه يميناً وشمالاً واحتصر صاحب قلعة مجانة(١) فلجأ النّصارى إلى مدينة باغاية ، واجتمعوا بها ، فنزل عليها وخرجوا إليه ، فقاتلهم قتلاً شديدًا ، فقتلهم قتلاً ذريعًا ، وأخذ لهم خيلاً كثيرة ، ولم ير المسلمون فى مغازيهم أصلب منها ، وكانت من نتاج خيل أوراس(٢) المُطل عليها ، ودخل بقية الروم حصنهم ، وكره عقبة أن يقيم عليها فمضى إلى المسن(٣) وكانت [فى] ذلك الوقت من أعظم مدائن الروم ، فلجأ إليها من كان حولها منهم وخرجوا إليهم فى عدّة وقوة ، فقاتلوهم قتالاً شديدًا حتى ظن الناس أنه الفناء ، فانهزموا فقاتلهم إلى باب حصنهم فأصاب غنائم كثيرة [وكره] المقام عليها ، فرحَل إلى بلاد الزاب(٤) ، فسأل عن أعظم مدينة لهم قدراً ، فقالوا : مدينة يُقال لها « أذنة(٥) » ، ومنها الملك وهى . . الزّاب وكان حولها ثلاثمائة قرية وكلّها عامرة فلما بلغهم أمره لجأوا إلى حصنهم ، وهرب أغلبهم إلى الجبال والوعر ، ونزل وادياً بينه وبينها ثلاثة أميال ، فلقوه عند الوادى وقت المساء ، فكره قتالهم فى الليل ، فوقف القوم ليلهم كلّه ساهرين ، فسماه الناس إلى اليوم « وادى سهر » فلما أصبح وصلى ، أمر بالقتال ، وكانت بينهم حربٌ ما رأوا قطّ ممن حاربوه مثلها حتى يئس المسلمون من أنفسهم ، فأعطاه الله عز وجل الظّفْر ،

---

(١) بالفتح وتشديد الجيم وبعد الألف نون بلد بإفريقية فتحها بسر بن أرطاة ، وهى تسمى قلعة بسر وبها زعفران كثير ومعادن حديد وفضة .
(٢) وهى موجودة فى جمهورية الجزائر الآن .
(٣) له ذكر فى معجم البلدان لياقوت الحموى .
(٤) كورة عظيمة ونهر جرار بأرض المغرب على البر الأعظم عليه بلاد واسعة وقري متواطئة بين تلمسان وسجلماسة والنهر متسلط عليها .
انظر : معجم البلدان لياقوت الحموى .
(٥) بفتح أوله وثانية ونون بوزن حسنة وكسر الذال .
انظر معجم البلدان ١ / ١٣٢ - ١٣٣ .

فانهزم القـوم ، وقُتل فيها أكبر فـرسان البربر ، فـذهب عزهم من الـزّاب ، وذلـــوا آخر الدهر ، فكره أن يقيم عليها ، فرحل حتى نزل على المغرب بتيهرت ، فلما بلغ الروم خبره ، استعانوا بالبربـر ، فأعانوهم ونصروهم ، فقام عقبة خطيبـاً على سيفه ، فقال : « يا معشر المسلمين ، إنّ خيـاركم وأشرافكم السـابقون منكم [الـذين] رضى اللـه عنهم ، بـايعهم رسول اللـه ﷺ بيعة الـرضوان على قتال من كفـر بالله يـوم القيامـة فبيعوا أنفسكـم من رب العـالمين ، فإنكم داخلـون فى تلك البيعة لكم وعليكـم ما عليهم ، وأنتم مـا وطئتم هـذه البلاد إلاّ طلباً لرضاه وغضباً أن يُعبـد شىء سواه ، فأبشروا فكلّما كثر [بشركم] كان أخزى لهم وأعز لدينكم وربّكم ليس يسلمكم ، فألقوه بقلـوب صادقة ، جعلكم الله أولى بأسه الذى لا يُردّ عن القوم المجرمين .

فالتحم القتـال ، وصبر المسلمون ، ولم يكن للـروم والبربر بقتالهم من طـاقة ، فـولّوا هاربين ، فقتلهـم قتلاً ذريعًا ، وفـر جميع الروم عن المدينـة ، وقُتلوا حيث أُدركـوا ، وغنم المسلمون .

ثم رحل حتى دخل طنجة[١] ، فلقيه رجل من الروم يقال له « البيان » وكان شريفًا فى قومه ، فأهدى إليـه هدية حسنة ، فلاطفه فنزل على حكمـه ، فسأله عن بحر الأندلس ، فقال له : « إنه محفوظ لا يرام » « دُلنى على حال البربر والروم » فقال له : « قد تركت الروم خلفك ، ومـا قُدّامك إلاّ البربـر وفـرسانهم » قـال لـه : « وأين موضعهم ؟ » قـال : « فى السّوس الأدنى ، وهم قـوم ليس لهم دين ولم يدخلوا النصرّانية ، يأكلـون الميتة ، ويشربون الدم من أنعامهم وهـم أمثـال البهائم ، يكفرون بالله عز وجل ولا يعـرفونه »[٢] فقال عقبة ابن نافع لجنوده : « ارحلوا على بركة الله » .

فـرحَل من طنجـة إلى السـوس الأدنـى وهـو فى مغـرب مـدينـة طنجـة التى تســمى

---

(١) بلد على ساحل المغرب مقابل الجزيرة الخضراء وهو البر الأعظم وبلاد البربر . قال ابن حوقل : طنجة مدينة أزلية آثارها ظاهرة بناؤها بالحجارة قائمة على البحر .

(٢) إضافة من العبر من ديوان المبتدأ ـ والخبر .

«تارودانت » فانتهى إلى أوائلهم ، فتلقوه فى عدة عظيمة ، وقتلهم قتلاً ذريعًا ، وهرب بقيتهم ، وافترقت خيله فى طلبهم إلى كل موضع هربوا إليه من الأرض لا يزمّهم أحد ومضى كذلك حتى دخل السوس الأقصى ، فاجتمع به البربر فى عدد لا يحصى فلقيهم ، فقاتلهم قتالاً شديدًا ما سمع أهل المغرب بمثله ، وقتل منهم خلقاً عظيماً ، وأصاب منهم نساء لم ير الناس فى الدنيا مثلهنّ ، فقيل : إن الجارية منهنّ كانت تبلغ بالمشرق ألف [دينار وهربوا بين يديه . .] فخرجت العرب منها ، ولم يكن لهم بقتاله طاقة ، لعظيم ما اجتمع معه من البربر والروم ، وأسلموا القيروان وبقى بها أصحاب الذرارى والأثقال فأرسلوا إلى كسيلة : يسألونه الأمان وأجابهم ، وأقام كَسيلة حتى نزل القيروان وأقام أميراً على إفريقية ، وقد بقى من بقى من المسلمين تحت يده ، فما زال على ذلك إلى أن وَلِى عبد الملك بن مروان فاشتدّ سلطان بنى أمية وعظم أمرهم ، واجتمع إليه أكابر المسلمين فسألوه فى قيروان إفريقية أن يخلصها ومن فيها من المسلمين من يد كَسِيلة بن ليوم ، وأن يرد بها الإسلام عزيزًا كما كان ، فقال لهم : « لا يصلح للطّلب بدم عقبة من المشركين وكفرة البربر إلاّ من هو مثله فى دين الله » فأتفق رأيه على زهير بن قيس البلوى ، وقالوا : « هو صاحب عقبة وأعرف الناس بسيرته وتدبيره ، وأولاهم بطلب ثأره وكان زهير مقيماً ببرقة مرابطًا مع أهل من إفريقية ، فوجّه إليه عبد الملك يأمره بالخروج على أعنة الخيل إلى إفريقية ليستنقذ القيروان ومن فيها من المسلمين ، وكتب له قيس بن زهير : يعّرفه بكثرة من اجتمع إلى كَسِيلة من البربر والروم ، ويستَمِّده الرجال والأموال ، فوجّه إليه وجوه أصل الشام .

ولاية زهير بن قيس البلوى

فلماّ حشد له وجوه الرجّال من العرب ، وبعث إليه الأموال وتسرّع الناس معه ، ووفّدت عليه الجنود ، أقبل فى عسكر عظيم ، يريد إفريقية ، فلمّا دنا من مدينة القيروان ، وذلك فى سنة سبع وستين وبلغ كَسِيلة بن ليوم الأوربى قدوم زهير عليه . . لا نهاية له ، وكان كسيلة فى خلق عظيم من البربر والروم ، دعا أشرافهم وأكابرهم فشاورهم

وقال لهم : « إنى أردت أن أرحل إلى ممس(١) فأنزلها ، فإن هذه المدينة فيها خلق عظيم من المسلمين ولهم علينا عهدٌ ، فلا نَغْدرُ بهم ونحن نخاف إذا التحم القتال أن يثبُوا علينا ، ولكن ننزل ممس على ماء كثير يحمل عسكرنا ، فإنّ معنا خلقاً عظيماً فإن هزمناهم دخلنا معهم إلى طرابلس وقطعنا دابرهم من الدنيا ؛ تكون لنا إفريقية داراً إلى آخر الدهر ، وإن هزمونا كان الجبل منا قريباً الشعراء [هـ] فنرجو ألاّ نهلك ولا يفُقد منا إلاّ قليل فوافقوه فرحل إلى ممس فنزلها .

وبلغ ذلك زهير فلم يدخل القيروان ونزل على باب سالم وأقام ثلاثة أيام حتى استراح وأراح من معه وزحف فى اليوم الرابع ، ووقف على كسيلة وعسكره آخر النهار فأمر الناس بالنزول ، فنزلوا وبات الناس على مصافّهم ، ووقفت خيول القوم بعضهم إلى بعض طول الليل فلما اصبح صلى مغلِّساً ثم زحف إليه . وأقبل كَسِيلة ومن معه والتحموا فى القتال ونزل الصّبر وكثر القتل فى الفريقين ، حتى يئس الناس من الحياة فلم يزالوا كذلك حتى انهزم كَسِيلة ، وقتل بممس ولم يجاوزها .

ومضى النّاس فى طلب الروم والبربر ، فلحقوا كثيراً منهم بمزرعة « ملمجنة » وألحوا فيهم وجَدُّوا فى طلبهم ، حتى سقَوا خيلهم من الوادى المعروف بَمْلِوّية من المغرب ، ففى تلك الواقعة هلك رجال الرّوم والمشركين من البربر وفرسانهم وأشرافهم ، ففزع منه أهل إفريقية ، واشتد خوفهم ، فلجأوا إلى الحصون والقلاع ، ثم إنّ زهيراً رأى بإفريقية مُلكاً عظيماً فخاف أن يقيم ، وقال : « إنى قدمت إلى الجهاد ، وأخاف أن تميل بى الدنيا فأهلك ، ولست أرضى بمُلكها ورَغْد عيشها » . وكان من رؤساء العابدين وكُبراء الزاهدين - رضى الله عنهم - فنزل القيروان وأقام بها كثير من اصحابه .

ورحل زهير قافلاً إلى المشرق فى خلق عظيم ، وقد كان بلغ الروم خروجُ زهير من برقة إلى إفريقية لقتال الرّوم ، فأمكنهم ما يريدون فخرجوا إليها فى مراكب كثيرة ، فأغاروا على

---

(١) بالفتح والسكون والسين مهملة مقصورة قرية بالمغرب .

برقة وأصابوا منها سبياً ، ومن الأموال شيئًا عظيمًا ، وقتلوا وسَبوا ، ووافق ذلك قدوم زهير من إفريقية إلى برقة فأخبروه الخبر ، فأمر العسكر أن يمضوا على الطريق ، وأخذ على ساحل البحر فى عدة من أشراف الناس مجدين مبادرين ، رجاء أن يدرك سبى المسلمين ، فأشرف على الرّوم فرآهم فى خلق عظيم فلم يقدر على الرّجوع ، واستغاث به المسلمون وصاحوا ، والرومُ يدخلونهم المراكبَ ، فنادى بأصحابه : « النزولَ رحمكم الله ! » فنزلوا ، وكانوا رؤساء العابدين وأشراف العرب ، فنزل إليهم الروم فتلقوهّم بعدَدٍّ عظيم ، والتحم القتال وأعانوا بعضهم بعضا ، وتكاثر عليهم الروم ، فقتلوا زهيراً – رحمه الله – ومن معه من المسلمين جميعاً ، فما أفلت منهم رجلٌ ، وأدخلت الروم الخيلَ والسلاح والسبى وما أصابوه من برقة ، و انقلبوا وافرين يريدون ملك القسطنطينية .

ومضى المسلمون إلى دمشق ، فدخلوا على عبد الملك ، فأخبروه أن أميرهم وأشراف رجالهم قد استشهدوا ، فعظم ذلك عليه ، وبلغ منه لفضله ودينه ، وكانت مصيبتهُ مثل مصيبة عقبة – رحمهم الله – على الناس ، واجتمع أشراف المسلمين ، وسألوا عبد الملك بن مروان أن ينظر إلى إفريقية من يَسُد ثغرها ، ويُصلح أمرها . فقال لهم عبد الملك : « ما اعرف أحد كفؤاً لإفريقية كحسّان بن النعمان الغسانىّ .

ولاية حسان بن النعمان الغسانى

[وجميع] من بإفريقية منها [– أى الكاهنة –] خائفون والبربر لها مطيعون ، وإن قتلتها يئس البربر والروم بعدها أن يكون لهم ملجأ حتى يلقوا بأيديهم فى يدك ، فيدين لك الغرب كله ، فلما سمع ذلك من أهل إفريقية توجه إليها يريدها ، فلمّا كان موضعاً قريباً من مَجَّانة ، عرف أن الروم قد تحصّنوا بقلعتها فمضى ولم يعرض لها ، وبلغ الكاهنة أمره ، فرحلت من جبل أوراس بعدد لا يحصى فسبقته إلى مدينة باغاية ، وأخرجت منها الرّوم ، وهدمت حصنها ، وظنّت أن حسان إنما يريد حصنَها يتحّصن فيه ، وأقبل حسان حين بلغه الخبر فنزل بوادى مسكيانة ، ورجعت الكاهنة إليه تريده وخرج حسّان حتى خرج بين

الفج والشعراء ونزل على النهر الذى يسمى بلسان البربر « بلى » ورحلت الكاهنة حتى نزلت على هذا النهر ، وكان هو يشرب من أعلي النهر وهى من أسفله ، فلما دنا بعضهم من بعض وتوافت الخيل ، وذلك آخر النهار ، فأبى حسان أن يقاتلها إلا أول النّهار ، فباتوا ليلتهم وقوفاً على سروجهم فلما أصبحوا زحف بعضهم إلى بعض فالتقوا ، فتقاتلوا قتالاً شديداً وما سُمع قط ، فعَظم البلاء وظن الناس أنه الفناء ، فانهزم حسان بن النعمان وقتلت العرب قتلاً ذريعاً وأَسَرتْ من أصحابه ثمانين رجلاً منهم خالد بن يزيد القيسى وكان رجلاً شريفاً مذكوراً . فسمى ذلك الوادى « وادى العذارى » وسمى أيضاً « نهر البلاء » ، وبينه وبين باغاية ثمانية عشر ميلاً ، وأتبعته الكاهنة ومن معها حتى خرج من عمل قابس ، وأسلم إفريقية .

فكتب إلى عبد الملك : بما لقَى المسلمون وحاوره ، وأقام طمعاً أن يلحق به من أفلت من أصحابه ، فعاد إليه الجواب : أن يقيم حيث وصل إليه الجواب ، ولا يبرح حتى يأتيه أمره ، فلقيه الكتاب . . فبنى وأقام بالموضع الذى لقيه فيه الكتاب خمسَ سنين ، فسمى ذلك المكان « قصور حسّان » إلى اليوم ، ثم أنّ عبد الملك أعمل رأيه واستشار فيمن يخرجه إلى إفريقية . . . فوجّه إليه عسكراً عظيماً ومالاً وسلاحاً وقوة ، وكانت الكاهنة حينئذأاسرت ثمانين رجلاً من أصحاب حسان ، فأرسلتهم ، وأحسنت إليهم وحبست عندها يزيد بن خالد القيسى .

فلما انتهى إلى حسّان سألهم عن يزيد بن خالد ، فأخبروه بسلامته ، فسرّه ذلك ، وأن الكاهنة قالت لخالد : « ما رأيت فى الرجال أجمل منك ولاأشجع ! وأنا أريد أن أرضعك فتكون أخاً لولدي ، وكانت لها ولدان أحدهما « قويدر » والآخر « يامين » فقال لها : وكيف يكون ذلك وقد ذهب الرضاع منك ، فقالت : إنّا جماعَة البربر لنا رضاعٌ إذا فعلناه نتوارث به ، فعمدت إلى دقيق الشعير ، فلثته بزيت ، وجعلته على ثدييها ودعت ! ! » ولدَيْها وقالت لهما : « كولا معه على ثديى » وقالت لهم : إنكم قد صرتم أخوة ثم إن حسان توافت إليه فرسان العرب ورجالها ، فدعا عند ذلك برجل يثق به ومناه وكتب معه إلى [ابن ٌ يزيد

وهو . . . طوعاً فى الإسلام ، فلمّا أتى رسول حسان وقف بين يدى خالد فى زىّ سائل فلمّا رآه [ابن] يزيد علم أنه . . . فكتب اللـه تعود إلى ، فلمّا أن خلا أخذ منه الكتاب وقرأه وكتب فى ظهره : إنّ البربر متفرقون ولا يتحدون[1] وإنما ابتلينا بأمر أراده اللـه عسى أن يكرم به من مضى منا بدرجة الشهادة[2] . . . .

حتى خرجت الكاهنة ناشرة شعرها تضرب صدرها ، وتقول : « ويلكم مضى ملككم فيما يأكله الناس ! » فافترقوا يمينا وشمالا يطلبون الرجّل ، فستره الله تعالى حتى وصل إلى حسان فكسر الخبزة فأصاب الكتاب الذى كتبه [ابن] يزيد قد أفسدته النار . . . فقال له حسان : « راجع إليه » قال : « إنى أخاف الموت فإن الكاهنة لا يخفى عليها شىء من هذا قال [حسان] : أنا اخفيه لك فى مكان لا يجده أحد ثم عمد إلى قربوس سرجه ، فنقر فيه ، وأدخل الكتاب وسدّ عليه بشمع ، ومضى الرجل حتى أتى [ابن] يزيد ، فدخل إليه وعرفه أن الأول أحرقته النار فردّ جوابه ووضعه فى قربوس سرجه ومضى ، فخرجت الكاهنة ناشرة شعرها وهى تنادى : « ذهب ملككم فى شىء من نبات الأرض وهو بين فرجين » وكانت الكاهنة قد ملكت إفريقية خمس سنين منذ هزمت حسان ، فلما أبطأ العرب عنها قالت للبربر : « إن العرب إنما يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة ، ونحن إنّما نطلب منها المزارع والمراعى ، فما نرى لكم إلاّ خراب إفريقية حتى ييأسوا منها ، ويقل طمعهم فيها » فوجهت قوماً إلى ناحية يقطعون الشجر ، ويهدمون الحصون .

قال عبد الرحمن بن زياد بن أنعم :[3] فكانت إفريقية من طرابلس إلى طنجة ظلاً وقرى متصلة فأَخْربت جميع ذلك ، ورحل حسان إليها فلقيه من النّصارى فى طريقه

---

(١) إضافة من المطبوع .
(٢) بياض فى الأصل .
(٣) انظر ترجمته فى : معالم الإيمان ١ / ٢٨٩ ، الدرة المضيئة فى أخبار الدولة الفاطمية ٢٤ ، الحلل السندسية ج ١ ق ٣ / ٧٣١ ، ترتيب المدارك ١ / ٣١٦ ، رياض النفوس ١ / ١٤٤ ، المؤنس فى أخبار إفريقيا وتونس ٤٩ .

ثـلاثمائة رجل يستغيثون إليـه من الكـاهنة فيما نـزل بهم من خـراب ومضى حتى وصل إلى قابس ، فخرج إليـه أهلها وكانوا قبل ذلك يتحصّنون من كل أمير مرّ بهم ، فـاستأمنوا إليه وأدخلوا عـامله فأمنّهم على مـال معلوم . فاستطـال طريق القيروان فمال إلى طـريق قفصة وقصطيلية ونفزاوة ، وبعثوا إليه أيضاً يستغيثون بـه من أمر الكاهنة فسرّه ذلك وبلغ الكاهنة قدومه فرحلت من جبل أوراس تريده فى خلق عظيم [فرحل إليها فلما كانت] بالليل قالت لابنيها : « إنى مقتولة ، وأرى رأسى . . . أذنابها إلى المشـرق من حيـــث تأتينا الشـمس [تركض بـه الدواب مقطـوعاً] بين يدى ملك العـرب الأعظم الذى بعث هـذا الرجل » ، وقال لها [ابن] يـزيد : « فإذا كان هذا فـارحلى بنا وخَلِّ عن البلاد » وقـال لها أولادها مثل ذلك ، قالت : « كيف أرحل وأفّر ، وأنا ملكة والملوك لا تفر من الموت ، فأقلّد قومى عاراً آخر الـدّهر » فقالوا لها : « فما الـذى تخافين على قومك ؟ » قالت : « إذا أنـا متّ فلا أبقى الله منهم أحـداً على الدنيـا » فقال لها [ابن] يـزيد وأولادهـا : « ما نحن صـانعون ؟ ! » فقالت : «أمـا أنت ياابن يزيد فسـوف تدرك ملكاً عظيماً عند ملك العـرب الأعظم ، وأما أولادى فسوف يـدركون سلطانـاً مع هذا الرجـل الذى يقتلنى ويعقدون للبربـر عزاً » ، ثم قالت : « اركبوا واستأمنوا إليه فركب خالـد بن يزيد وأولادها فى الليل وتوجهوا إلى حسّان ، فأخبره [ابن] يـزيد بقـولها « أنا مقتولـة » وقال لـه : قد وجهت إليـك بابْنَيْها ، فـأمر بهما فأُدْخِلا العسكر ، وأمر بحفظهما ، وقدم [ابن] يزيـد على أعنّة الخيل ، وخرجت الكاهنة ناشرة شعـرها فقالت : « انظـروا ماذا دهمكم واعملوا لأنفسكم ، فإنى مقتـولة ! » والتحم القتال ، واشتد الحرب ، واستحر القتل فى الفريقين حتى ظـنّ الناس أنه الفناء ، فانهزمت الكاهنة واتبعها حسـان حتى قتلها ، ونزل فى الموضع [الذى قتلت فيه وهـو] بئرها وعليه بقى رأسها ، فسمى الناس هذا [البئر بئر الكاهنة] إلى اليوم .

وكانت مـع حسان جماعة من البربـر . . . فى ولدَىْ الكـاهنة وقـرّبه وأكـرمه ، ثم إن البربر استأمنوا إليه فلم يقبل أمانهم ألا أن يُعطوه من جميع قبائلهم اثنى عشر ألفاً ، يكونون مع العرب مجاهدين فأجابوه وأسلموا على يديـه ، فعقد لوائين لولدى الكاهنة ، لكل واحد

منهما على ستة آلاف فارس ، وأخرجهم مع العرب يجولون فى إفريقية يقاتلون الروم ومن كفر من البربر ، وحسن إسلام البربر وطاعتهم ، وانصرف حسان إلى مدينة القيروان ، وذلك فى رمضان سنة أربع وسبعين ، ودانت له إفريقية ، فدوّن الدواوين وصالح من ألقى بيده على الخراج ، وكتب الخراج على عجم إفريقية ، وعلى من أقام معهم على النصرانية من البربر والروم ، وأقام حسان بعد قتل الكاهنة ، وقد استقامت له إفريقية فلا يغزوا أحداً ولا ينازعه أحد .

موت عبد الملك بن مروان(١)

ومات عبد الملك بن مروان سنة ست وثمانين ، وولى بعده ابنه الوليد بن عبد الملك ، [وكان الروم] أغاروا على مرسى رادس ، فقتلوا من بها وسبوا وغنموا ، . . الوليد بن عبد الملك يعرفّه بذلك ، وبعث إليه منها أربعين رجلاً من أشراف العرب ، وأقام حسان بن نعمان فى رادس مرابطاً حتى يأتيه أمر الوليد ، وكتب علماء المشرق إلى أهل إفريقية : « من رابط عنا يوما برادس حججنا عنه حجة ، وعظم قدر رادس عند العلماء وفضلها » . فلما ورد الخبر إلى الوليد بن عبد الملك بعث إلى عمه عبد العزيز بن مروان وهو على مصر وإفريقية ، وأمره أن يتوجه ألف قبطىّ ، وألف قبطية ، ويحملهم إلى إفريقية ، وأمره أن يخرق البحر إلى تونس ، وأن يجعل بها دار صناعة ، وأن يعمل المركب ويستكثر منها ، ويجاهد الروم فى البر والبحر ، وأن يغير على سواحل الروم ويشغلهم عن بلاد الإسلام ، ثم عزل عبد العزيز بن مروان حسان بن النعمان ، وأمره بالقدوم عليه وبعث إليه أربعين رجلاً من أشراف أصحابه ، وأمرهم أن يحفظوا جميع ما معه . فعلم حسان ما يراد به فعمد إلى الجوهر والذهب والفضة فجعله فى قرب الماء ، وطرحه فى العسكر وأظهر ما وراء ذلك ، فلما قدم حسان بن النعمان على عبد العزيز بن مروان أهدى إليه مائتى جارية من

---

(١) وهو أبو الخلفاء الأمويين لأن كل أولاده تقلدوا منصب الخلافة الأموية .

خيار مـامعه ، وكـان معه من السبى خمسـة وثلاثين ألف رأس ممـا لم يدخل فيهـم وصفاء ووصائف ما رأى الراؤون مثلهم قط ، فتخير ما أحب وأخذ منه خيلاً كثيرة ، ورحل حسان بمن معه من السبى والجمال والأنعام ، حتى قدم على الوليـد بن عبد الملك ، فشكا إليه ما صنع به عبد العزيز ، فغضب الوليد لذلـك وأنكره فقال حسان لمن معه : « ائتونى بالقرب فأُتِىَ بها ، فَفُرغَتْ بين يـدى الوليد مما فيهـا من الجواهر ، والذهب والفضة » فـاستعظمه وأبهته فقال له : « يا أمير المؤمنين ، إنّما خرجت مجاهداً فى سبيل الله ، وليس مثلى خان الله ولا الخليفة » فقال له الوليد : « أردّك إلى عملك وأحسن إليك » فحلف حسان : أنه لاوَلِىَ لبنى أمية ولايـة أبداً . فلما رأى ذلك الوليد غضـب على عبد العزيز . وكـان يسمى حسان الشيخ الأمين

ولاية موسى بن نصير(١)

وكتب الوليـد بن عبد الملك – رحمه الله – إلى عبد العـزيز بن مروان يأمره أن يـوجه إلى إفريقيـة موسى بن نصير من قبل الـوليد وقطع إفريقيـة عن عبد العـزيز . فقدمهـا موسى فوجد أكثر مدنها خالية باختلاف أيدى البربر عليها ، فكان ينقل العجم من الأقاصى إلى . . . قال إن كنيسـة كانت بشِقبَّنارية كـان فيها عجب . . . منها مرآة فى سلطـان الروم ، فإذا اتهم الرجـلُ امرأته . . . المرأة فـرأى المبتلى بالمرأة ، وكـانت البربر قـد تنصرت ، فكان رجل بربرى قـد أظهر اجتهاداً فى النصرانية حتى صار شَمّاساً ، واتهم رجل امـرأته فنظر فى المرآة ، فإذا هو بوجه البربرى الشماس ، فدعا به الملك فقطع أنفه وطرده من الكنيسة ، فلما رأى ذلك قومه طـرقوا المرآة فكسروها ، وأرسل الملك إلى حيهِّم فاستباحـه وخرج موسى من

---

(١) هو القائد التـابعى المعروف عبد الرحمن مـوسى بن نصير اللخمى ولد سنة ١٩ هـ وتـوفى سنة ٩٨ هـ وكان أبوه نصير من كبار حرس معاوية بن أبى سفيـان ، وتولى موسى حكم المغرب مكان حسان سنة ٨٦ هـ على عهد الخليفة الـوليد بن عبد الملك الأموى ، وكانت سياسته متممة للسيـاسة التى بدأها أبو المهاجر دينار .

إفريقيـة غازياً إلى طنجـة ، فوجد البربـر قد هربـوا من المغرب خوفـاً من العرب ، فتبعهم وقتلهم قتلاً فاحشـاً ، وسبى منهم سبياً كثيراً ، حتى بلغ السوس الأدنى لا يـدافعه أحدٌ ، فلما رأى البربـر مـا حلّ بهم استأمنـوا وأدوا الطـاعـة ، فقبل منهم وولىّ عليهم واليـاً ، ثم استعمل مـوسى بن نصير على طنجة طـارق بن زيـاد مولاه ، وتـركه بها فى سبعـة وعشرين رجلاً من العرب ، واثنى عشر ألف فارس وهى العدة التى جعلها عليهم حسان بن النعمان وكانوا قد دخلوا الإسـلام ، وحسن إسلامهم ، فتركهم موسى وانصرف بعسكره من العرب خاصة وكان فى خلق عظيم ، وأمر العرب السبعة والعشرين الذين ترك عند طارق بن زياد أن يعلّموا البربر القرآن وأن يفقهوهم فى الدين .

ثم مضى إلى إفريقيـة فمر بقلعة مجّانة وانحصر صـاحبها منه ، فـرأى موسى بن نصير فلم يعرض لـه ، فلما نزل القيروان دعـا بسر بن أرطاة(١) فعقد على أعنـة الخيل ، وأمره أن يمضى إلى صاحـب قلعة مجّانة . فلما أناخ عليهم عظـم عليهم أمر القتال ، ونظر الروم من العرب صبراً لم يـر مثله قط ، فملأهم ذلك رعباً ، فألقـوا بأيديهم فدخلها ، فقتل المقـاتلة وسبى الذرية وغنم منها أموالاً كثيرة ، فكانت تسمى باسمه « قلعة بشر » لا تعرف إلاّ به ، لأنه هـو الذى افتتحهـا ، فأصاب عـدداً من ولائد ووصفاء وذهباً وفضـة ، فخمس ذلك وبعث بالخمس إلى مـوسى بن نصير ، وبعث موسى الخمس إلى الوليد فكـانت قيمة ذلك الخمس عشرين ألف دينار .

قـال : وتحامل أصحاب طـارق بن زياد ، عامـل موسى بن نصير بطنجـة على أهل البلد ، وأساءوا إليهم وجـاروا عليهم فكتبوا إلى أهل الأندلس يعّرفونهم بما يلقَـونه من جهة البربر وسوء سيرتهم ، فكان طارق يـوماً بطنجة إذ طلعت مراكب ، فأكمن لها المسلمون ، فلما أرست خرجـوا إليها ، وأنزلواأهلها ، فقـال أهلها : « إنّا إليكم جئنا عـامدين فإذا هم

---

(١) وهو بسر بن أرطـاة بن أبى أرطاة القرشـى ، وقيل بشر وهو أحد قـواد معاوية وأكـابر أصحابـه ، غزا طرابلس مع عمرو بن العاصى ، فبعثه إلى ودان فـافتتحها وفرض على أهلها ثلاثمائة وستين رأسا ، ثم خرج مع عقبة بن نافع غازيا ، وافتتح قلعة من القيروان على ثلاثة أيام ، فعرفت بقلعة بشر اليوم .

يعظمون غلاماً حَدَثاً منهم ، يقال له « أليـان » ، فقال له طارق : « ما جـاء بك ؟ » فقال « أنا ابن ملك الأندلس وليس بينك وبينها إلا هذا . . . . إلى جبالها يريه إياهـا . قال لـه طارق : « مـا جاء بك ؟ » ، قـال له : « إنّ أبى مـات ووثب على مملكتنا بطريق يقـال له « لذريق » ، وبلغنى أمـركم وجئت إليكم أدعوكم إليهـا ، وأكون دليلَكم عليها »

ومع طارقٍ اثنى عشر ألفاً من البربـر ، فعزم طارق على غزو الأنـدلس واستنفر البربر فجعل أليان يحمل البربر فى مراكب التجّـار التى تختلف إلى الأندلس ، ولا يَشْعُر بهم أهل الأنـدلس ، ولا يظنون إلا أنها تختلف بمثل مـا كـانت تختلف بـه من منافعهم ومعـايشهم ومتاجرهم ، فجعل ينقلهم فوجاً فوجاً إلى ساحل الأندلس ، وقد تقدم أليان إلى أصحاب المراكب أن لا يعلموا بهم ، وقال لقـومه : « إنى توثَّقْت لكم ، فاعلمـوا أنها دولة العرب ، وهم يملكون الأنـدلس » ، ودعاهم إلى أن يأخذوا نصيبهم منهـا ، فأعجبهم ذلك ورغبوا فيـه ، وكتب لهم طارق بـالأمـان على أنفسهم ، وذراريهم وأموالهم فلما لم يبق لهم إلاّ لَـوْح واحـد ركب طـارق ، ومن بقى معـه ، فجـاز إلى أصحـابه ، فنـزل بهم جبـلاً من جبـال الأندلس حريزاً منيعاً ، فسمى ذلك الجبل من يومئذ « جبل طارق » فلا يُعْلَمَ إلاّ به .

وموسى بن نصير بإفـريقية لا يعلم شيئاً من هذا ، فلمّا بلغ ملـوك الأندلس خبره نفروا إلى الملك الأعظم ، وهو لـذريق وكان طاغياً فى جموع عظيمـة على دين النصرانية ، وزحف إلى طـارق فى عدة عظيمـة وعـاد بسريـر من ذهب مُكلّل بالـدرّ واليـاقـوت فشد السريـر على . . . . ، وحفّت به الـرجال ، وقَعَد لذريق على سريـره ، وعلى رأسه تاج وعليه قفّازان مكلّلان بالدرّ واليـاقوت وجميع الحلية التى يلبسها الملوك قبله ، فلما انتهى إلى الجبل الذى فيه طارق ، خرج إليه طـارق وجميع أصحابه رجّالة ليس فيهم راكب ، فشمروا للمـــوت فقال لرجالـه : « ليس هم أحق بالموت منكم ، قد دخلوا عليكـــم بلادكـم ! » ونـــادى بالنـزول فنزل العسكـر . . . فمشى بعضهم إلى بعض بـالسلاح ، فـاقتتلوا قتـالاً شديداً ، فوقع الصبر حتى ظنّ الناس أنه الفنـاء ، وتواخذوا بالأيدى وضرب الله عز وجلّ

وجوه أعدائه ، فانهزموا وأُدْرِك لـذريق فقتل بوادى الطين ، وركب آثارهم وكان الجبل وعراً فكان البربر أسرع منهم على أقدامهم ، فسبقوهم إلى خيلهم فركبوا خيولهم البربر ، ووضعوا فيهم السيف وأبادوهم ولم يـرفعوا عنهم السيف ثلاثـة أيام ولياليهـا ، فمكث جِيَفُهم دهراً وبقيت عظـامهم إلى حديثٍ مـن الزمـان . وأمر طـارق فـرسان المسلمين أن يسبقـوهم إلى قرطبة ، فأتوهـا وقد وقف المسلمون حولها فقتلوهم ، فكانت قرطبة مـدينة لذريق . . ثغر الأندلس .

ودخل طارق قرطبة فأصاب فيها من الدّر والياقوت والذهب والفضة ما لم يجتمع مثله قط وأصاب من الحرير . . . والنساء والذرارى مـا لا يحصى ولا يعد ، فكانت جملة السبى عشرة آلاف رأس وذلك سنة اثنين وتسعين .

وبلغ موسى بن نصير أن طارق بن زياد فتح الأندلس ودخلها فخاف أن يحظى بذلك عند الخليفة ، فغضب غضباً شديداً ، وكتـب إليه يعنّفه : إذ دخلها بغير أمره ، وأمـره أن لا يجاوز قرطبـة ، وأمر موسى النـاس بالرحيل ورحل معـه وجوه العرب ، وكـان مخرجه فى رجب سنة ثلاث وتسعين ، واستخلف على القيروان ابنه عبـد الله بن موسى ، وكان أسنَّ ولده ، وسار حتى إذا كان بطنجة عبر البحر منها إلى الخضراء ، وهى على مجاز الأندلس ، فكـره طارق أن يخرج إليـه من المدينـة لكثرة العـدو فـوجّه إليـه بـالخفّ ، والحافر والهدايـا والجوارى وغير ذلك .

ولما كان موســى بن نصيــر بطنجة قبل جوازه مال عياض بن عقبة إلى قلعــة يقال لها « سَقْيُوما » وكان فيها بقية قَتَلة عقبة ، ومال معه سليمان بن أبى المهاجر ، وسألا موسى أن يميل معهما فكَـرِه ذلك وقال : « هـؤلاء قوم فى الطـاعة » فأغلظـا لهم الكلام حتى يـرجع فقاتل أهل سقيـوما قتالاً شديـداً حتى أخذوا لواء من ألويـة العرب ، فكانوا يقـاتلونهم به حتى تسـور عليهم عيـاض بن عقبة مـن خلفهم فى قلعتهم ، فانهزم البربـر واشتـد القَتْل عليهم . . . التى دخل عليهم منها عيـاض ، فمات القوم وبادرهم . . . إلى اليـوم . وذكرَ

ابن أبى حسان أن موسى لما فتح [سقيوماً] كتب إلى الوليد بن عبد الملك : إنه صار لك من سبى سقيوما مائة ألف رأس . فكتب إليه الوليد : « ويحك ! إنى أظنّها من بعض كذْباتك ، فإن كنت صادقاً فهذا محشُر الأمة » .

فلما وصل موسى إلى قرطبة ، استجار طارق بابنه عبد العزيز فشفع له عند أبيه ، ودخل موسى قرطبة فأتاه طارق بن زياد فترضّاه ، وقال : « إنما هذا الفتح لك ، وإنما أنا مولاك » فقبل منه وعفى عنه ، فتكاملت بقرطبة الجيوش من العرب والبربر فصاروا فى خلق عظيم ، فلما رأى موسى بن نصير ذلك دعا بطارق بن زياد ، فوجهه على أعنة الخيل إلى مدينة طُلَيْطِلَةَ .

فتح مدينة طليطلة

وهى مما يلى الأفرنج ، فأنتخب له الرّجال ، وسار طارق حتى وقف عليها وأناخ بها وبها اشراف أهل الأندلس وأموالهم وذخائرهم فقاتلهم قتالاً شديداً حتى أفتتحها ، فأصاب فيها جميع كنوزهم وأموالهم ، وغَنِم منها من الجوهر ما لا يجِد له قيمة ، وأصاب فيها مائدةَ سليمان بن داود ــ عليهما السلام ــ وكانت من ذهب مكلّلة بالدرّ والياقوت وضروب الجوهر ، وكان سبب وصولها إلى طُليطلة : أن الروم أخذوا ما كان فى بيت المقدس من مكارم الأنبياء ـ عليهم السلام ـ حملوها إلى مدينة رومية وحمل أسقافة النصارى مائدة سليمان إلى مدينة الأسكندرّية ، فلما غزا عمرو بن العاص مصر هربوا إلى مدينة طرابلس ، فلما نزل عمرو بن العاص « لَبْدَةً » هرب بها الروم إلى قَرْطاجنَّة ، فلما دخل المسلمون إفريقية هربوا بها إلى مدينة طُليطلة ، ولم يكن لهم أمنع منها ، فلمّا ظَفَر بها طارق نظر إلى عجب لم ير مثله قطّ ! فأمر بزبر جدها (أ) فقلع ، وهى مكّللة بالدر والياقوت ، وعمل لها رِجْلاً غيرها ، ونهض بجميع ما معه من الجواهر والأموال إلى موسى ، ونظر من المائدة إلى عجب لم ير مثله ، وذلك سنة أربع وتسعين ، فأتى موسى بن نصير شيخٌ كبير قد عَصَب على حاجبيه من الكبر ، فقال له موسى : « من أنت ؟! » فقال : « رجل من

أهل هذه البلاد » قال له : « مالنا من العلم عندك ؟ » قال : « افتتحتم قمونية » قال : « نعم ! » قال : « فإنكم لابد أن تنتهوا من هذه البلاد إلى منتهاكم » فنهض موسى بفتح مدائن الأندلس مدينة بعد مدينة حتى انتهى إلى مدينة « أَربُونة » فأراد لقاء ملك أفرنجة ، فأخذ حَنَش الصَّنْعاني بلجامه وقال : « سمعتك أيّها الأمير تقول حين فتحت طنجة لم يكن لعقبة ولا لأبى المهاجر من ينصحهما حتى أتيت أنصحك اليوم ، فأرجع ، فقد توغلت بالمسلمين .

وعن يوسف بن هشام : قال : كان جدّى من خاصة موسى ، فأخبرنى ، قال : انتهينا إلى صنم ، فوجدنا فى صدر ذلك الصنم : « ارجعوا يابنى إسماعيل ، فإلى هذا منتهاكم ، وإن سألتم إلى ماذا ترجعون أخبرتكم أنكم ترجعون إلى الاختلاف فى ذات بينكم حتى يضرب بعضكم بعضاً ، وقد فعلتم » .

وذكر عمر بن سهل ، مولى موسى بن نصير ، قال : لما أراد موسى الانصراف من ثغر الأندلس وضعت أكوام الذهب والجواهر والفضة بين يديه ، فأمر بالنيران فأُوقدت ورمى فيها الجواهر والزمرد والياقوت وغير ذلك ، فما صَلُب على النار ولم يَنْفَرِقْ عَزَلَهُ ، وما تفرّق منه ترَكَه ، وأتى بالمائدة فوُضعت ، وذُكِر لموسى شيخٌ كبير فدعا به ، فإذا شيخ قد وقعت حاجباه على عينيه قال له موسى : « اخبرنى كم أتى عليك من السنين ؟ » قال : « خمسمائة سنة » قال له موسى : « ماهذه المائدة ؟! » قال : « هذه مائدة سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ » قال : وكيف وقعت إلى . . . . . النصرانية عن اليهود قتل عيسى ـ عليه السلام ـ . . . . . بها إلى بيت المقدس وحَلَف بطروش الملك لَيَرُدُّ مَنَّ البيت . . . . فحمل عدو الله الزِّبل من الأندلس فى مراكب حتى رماه فى بيت المقدس وغزت النصرانية من كل مكان واقتسموا مافى بيت المقدس فصار لأهل الأندلس الذرارى والمائدة ، وصار لأهل رومية تابوت داود وعصا موسى ـ عليهما السلام ـ ، والتوراة وحُلّة آدم ـ عليه السلام ـ وصار لأهل قسطنطنية الياقوتية » ، فقال موسى : « وما تلك الياقوتة ؟ » قال : « ياقوتة ذى القرنين التى كان يهتدى بها فى الظُّلُمات ، وهذه أول ما رجع إلى بيت المقدس ، وسيرجع كله » .

فاجتاز موسى بالأموال والذّهب والفضة والجواهر والمراكب إلى طنجة ثم حملها على العَجَل ، فكانت وسق مائة عَجَلة وأربع عشر عَجَلة ، تُبدَّل عليها الأزواج فى كل مرحلة ، وقيل لرجل من أصحاب موسى يقال له أبو حميد : « كيف كانت المائدة ؟ » قال : « كانت من ذهب مشوب بشيء من فضة ملوّن بحمرة وصفرة ، وكانت مطوّقة بثلاث أطواق : طوق من ياقوت ، وطوق من زمرجد ، وطوق من لؤلؤ » قلت : « فما كان يحملها ؟ » قال : لما كنا بباغاية أفلت بغل لرجل من أهل العسكر قطع . . . . . الأخبية ، وإذا من فى العسكر موسى بن نصير أحمل (كذا) عليه حمائلاً ، فما بلغ المرحلة حتى تَفَسَّخت قوائمه قال : « إن موسى دعا ذلك الشيخ فقال له : « أين بلدك ؟ » فقال : « قرطاجنة » قال : موسى « كم أقمت بها ؟ قال : « عمّرت به ثلاثمائة سنة وبالأندلس مائتى سنة » .

خبر قرطاجنة ومن بناها

فقال : « كيف كان خبر قرطاجنّة ، ومَن بناها ؟ » قال : « قوم من بقية آل عاد الذين هلك قومهم بالريح ، وبقيت بعدهم خراباً ألف عام ، حتّى أتى الزبير بن لاود بن ثمود الجبّار ، فبناها على البناء الأول ثم احتاج إلى الماء العذب ، فبعث إلى أبيه ، وكان أميراً على الشام ، وعمّه على السّند والهند ، وكان ملكه من قرطاجنّة إلى الأندلس ، فأرسل إليه أبوه المهندسين ، فهَنْدَسوا له الماء حتى وصلوا إلى قرطاجنّة » قال : « وكم كان عمره ؟ » قال : « سبعمائة سنة » فارتادوا له مجرى القناة أربعين سنة ، وكان لما حفر أساسه ، وجد حجراً مكتوباً فيه : « هذه المدينة علامةُ خرابها إذا ظهر فيها الملح » . فبينما نحن ذات يوم فى غدير قرطاجنة إذْ بان الملح على الحجر ، فعندها رحلت إلى هاهنا ، ثم إن موسى بن نصير ولىّ على الأندلس ابنه عبد العزيز وخلف معه حبيب بن أبى عبدة بن عقبة بن نافع وشخص موسى قافلاً إلى الشام فوصل إلى مدينة القيروان ، فى آخر سنة خمس وتسعين فلم ينزلها ونزل منها على ميل من القيروان .

فحكى شيخ من أهل إفريقية . . الهمذانى : أن موسى بن نصير قعد فى مجلسه

وجاءه العرب ممن سافر معه وممن خلفه مع ابنه عبد الله بإفريقية ، فلما احتفـل المجلس ، قال : « قـد أصبحت اليوم فى ثلاث نعم ، اقـرأ ياغلام كتاب أمير المؤمنين » ، فقـرأ كتاب الوليد بشكره والثناء عليه ، ووصف ما أجـرى الله تبارك وتعالى من الفتوحات على يديه ، فحمد الله فقاموا إليه فهنأوه بذلك . ثم قال : اقرأ كتاب ابنى عبد العزيز ، يصف ما فتح الله بعده فى الأندلـس ، فقاموا إليه ، فهنأوه . ثم قـال : « وأما الثالثة ، فأنـا أريكموها » وأمر بـرفع ستر خـــلفه ، فإذا ببهـــو فيه جَـوَارٍ مختلفات الألوان مـن ملساء إلى نـاهد إلى منكسرة ، عليهن الحلى والحُلل ، فهنىء بـذلك ، وعلىٌّ بن رباح اللَّخمىُّ سـاكت . فقال له مـوسى : « ياعلى مالك لا تتكلم ؟! » فقـــال : « أصلح الله الأمير ، قد قـــال القوم » قال : « وقل أنت » قال : « أنا أقول ، وأنـا انصح الناس لك : إنه ما من دار مُلئت حَبْرة إلا امتلأت عَبْرة ، ولا انتهى شىء إلا رجـع ، فأرجعْ قبل أن يُرجع بك ! قـال : « فانكسر موسى . ثم التفت فقال : يـافلان جئنى بهؤلاء الجوارى ، هذه قم يافـلان فخذ هذه حتى أزفَّهُن كلهن ، فأقام بعد عيد الأضحى بقصر الماء ثلاثة أيام بعسكره .

ثم رحَل إلى المشرق ، ومعـه طارق ، وقـد قَفَل بـه وبكل مـا أصاب من (أ) الأمـوال والجوهر والمائدة ، وخلَّف على إفـريقية عبد الله ابنـــه وكان أكبر بنـــيه ، وعلى طنجـة ابنه عبد الملك وسار فلما . . . ومر بخربة عادية ومدينة من مدائن الأولين نزل ، فركع ركعتين ، ومشى فيها ، وفكّر فى معالمها وآثارها وبكى بكاءً كثيراً . ثم إنه ركب يريد الشّام ، فلما كان بالعـريش جـاءه كتاب الوليـد يستعجله ، وجـاءه كتاب سليمان يأمـره بالتربّـص ، وكان سليمان ولى عهده ، وكان الوليد مريضاً بـدير من غوطة دمشق ، فأسرع موسى ولم ينظر فى كتاب سليمان ، ودفع الأموال إلى الوليد ، وأهدى إليه المائدة والدرّ والياقوت ، وذكر موسى للوليد أنـه الذى أصاب المائدة وفتح طُليطلة . فلمّا رأى ذلك طارق دخل على الـوليد وهو مـريض ، أعلمـه بالقصـة وأخبره أن مـوسى تعدَّى فى أمـوال المسلمين وأنفقهـا فبعث إلى موسى ، وجمع بينهما بين يديـه ، وكذّبه موسى ، فقال لـه طارق : « ياأمير المؤمنين ، ادعُ بالمائدة ، وانظر هل ذهب منهـا شىء » فدعا بها الوليد ، ونظـرها فإذا رِجـــْل من أرجُلِها لا يشبه بقية الأَرجل ، فقال له طارق : « سَلْهُ عنها يا أمير المؤمنين ، فإن أخبرك بأَمر الرجل

وإلا استدللت صـــدقي على كذبه » فقـال موسى : « هكـذا وجدتها ؟! » فقـال طارق : « الـرجّل عندى » فلما دعا بها ونظرهـا وضعها فى المائدة ، علم أنها منها فصـدقه الوليد وقَبِل قوله وأختاره ، ونزل منه أقرب مما كان وكذّب موسى وأمر بحبسه ، وأحضر من يعرف قيمة الجوهر ، فقُوِّمت تلك المائـدة بمائتى ألف دينار ، ولم يلبث الوليـد إلاّ ثلاثة أيام حتى مات .

موت الوليد بن عبد الملك
ولاية سليمان بن عبد الملك
سنة ست وتسعين

تـوفى ســلخ جمادى الآخرة سنـة ست وتسعين ، وكانت خـلافته تسع سنين وثمانيـة أشهر ، وبـويع لسليمان بن عبد الملك بالخلافـة حين توفى الوليـد ، فسخط على موسى ، وقال لـه : يايهودىّ ، كتبتُ إليك فلم تنظر فى كتـابى ، هلمّ مائة ألف ! قـال : « ياأمير المؤمنين ، قد أخذتم جميع ما فى يـدى ، فمن أين لى بمائة ألف ؟ » فقال : « لابد من مائتى ألف دينار » فـاعتذر إليـه ، فقال : « لابـد من ثلاثمائة ألف » ، وأمـر بتعذيبـه وعزَم على قتـله . فلجأ موسى بن نصير إلى يـزيد بن المهلب فاستجار به ، وكانت ليـزيد ناحية من سليمان فاستوهبه دَمَه ، فقال : « يؤدّى ماعنده » .

ولاية محمد بن يزيد(1) مولى قريش

قال الواقـدى : « ثم إنّ سليمان بن عبد الملك ، قال لرجاء بن حيـوة : يارجاء ابغنى

---

(١) هو محمـد بن يزيد مـولى قريش تـولى حكم المغرب سنة ٩٧ هــ ـ ١٠٠ هـ / ٧١٦م ــ ٧١٩ م بعد انقضاء أمر آل موسى بن نصير ، وذلك على عهد الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك ، وكان يتميز بهدوء حالة بلاد المغرب ، واعتدال سياسته ، وحسن سيرته .

رجلاً له فضل فى نفسه ونهوض بها ولى أُولِّيه إفريقية » . قــال رجــاء : « سأنظر فى ذلك يا أمير المؤمنين » وسكت أيامـاً ، ثم جاءه ، فقال : « قد وجدت رجـلاً له فضل فى نفسه ونهوض بها ولى » قال : « مـن هو ؟ » قـال : « محمّد بن يـزيد مولى قـريش » قـال : « ما اعرفنى به ، أَدْخلْـه فأدخَلَه رجاء » على سليمان ، فقال له سليمان : « يا محمـد بن يزيد ، اتّق الله وحده لا شريك له ، وقم فيمن وليتك بالحق والعـدلِ ، اللّهم اَشهد عليه » فخرج وهو يقول « مالى عذر إن لم أعدل » .

فولى محمد إفريقية سنـة تسع وتسعين ، وكانت ولايته سنتين وأشهراً ، فى أحسن سيرة وأعـدلها ببركة سليمان ، وكتب سليمان إلى محمـد بن يزيـد : أن يأخذ آل مـوسى بن نصير وكل من التبس بهم حتى يوفـوا ثلاثمائة ألف دينار ، ولا يـرفع العذاب عنهم ، فقبض على عبد الله بن موسى ، فحبسـه فى السجن ، ثم جاء بريدٌ آخـر : بضرب عنقه ، فولى ضرب عنقـه خالـد بـن أبى حبيب ، وأمـا عبد العـزيـز بن موسى ، فإنـه كان عـاملاً لأبيـه على الأندلس ، فتزوج بعد خروج أبيه إلى إفريقيـة امرأة لذريق ملك روم الأندلس ، الذى قتله طارق بن زياد . فجاءته من الـدنيا بشىء عظيم لا يوصف ، فلمّا دخلت عليه ، قالت : « مـالى أرى أهل مملكتك لا يعظمــونك ولايسجـدون لك ، كما كـان أهـل مملكـة زوجى يعظمونه ويسجدون له ؟ » وقالت : « إن هم سجدوا لك وعظّموك أخرجت لك كَنْزَ ملوك الأندلس » . فلما سمع ذلك منها ، أمر بباب فنُقب فى ناحية من قصره قُبَالَة الموضع الذى يجلس فيـه ، وكان يأذن للنـاس منه ، فكـان يـدخل الرجل حين يـدخل منكِّساً رأسـه ، مُكِبًّا على يديه ، لِقِصَر الباب ، وهى على سريرها تنظر إلى الناس من حيث لا يَرَوْنها ، فلما رأت ذلك ظنّت أنّـه سجودٌ ، فقـالت لعبد العـزيز : « الآن أَقْـرَرْتَ عينى ، وأخرجتْ لـه أموالاً عظيمة . وبَلَغَ النّاس أنه إنّما أمر بهذا الباب ، ليخبرها أنه إنما أمــر الناس يسجدون له ، فثار عليه حبيب بن أبى عبيـدة بن عقبة بن نافع الفهرى ، وزياد بن عـابدة البلوى ، وزياد بن نابغـة فيمن معهم من الناس فقتلوه ، وذلك فى آخـر سنة ثمان وتسعين ، فى آخر

خلافة سليمان بن عبد الملك ، ثم مكثوا بعده لايجمعهم إمام .

وقال غير الواقدى :[1] بلغ عبد العزيز مانزل بأبيه وأخيه وأهل بيته ، فخلع ، طاعة بنى مروان ، وخالفهم ، فأرسل إليه يتهدّده ، فلم يرجع إلى الطاعة ، وجاء بالكتاب إلى حبيب ابن أبى عبيدة إلى وجوه العرب ، فقالت لهم الرُّسل : « ما يمنعكم من هذا اليهودى » ؟ قالوا : لا طاقة لنا به . فقالوا : والله لئن لم تقتلوه لنُخْبِرَنّه ، فسقط فى أيديهم . وأقبل حبيب بن أبى عبيدة مُشْتَمِار على سيفه ، فلمّا خرج عبد العزيز إلى صلاة الصبح ، فقرأ فاتحة الكتاب ثم قرأ « الحاقة » فقال له حبيب : « حُقَّت والله عليك يا بن الفاعلة » وعلاه بالسيف ، فقتله ، وحمل رأسه ورأس عبد الله إلى موسى فوضعا بين يدى أبيهما ، ولم يزل موسى يُعذَّب حتى مات ، واستعمل محمد بن يزيد على الأندلس الحسن بن عبد الرحمن القيسى ، وكانت الأندلس إذ ذاك إلى والى إفريقية ، وكان محمد بن يزيد يبعث السرية إلى ثغور إفريقية فما أصابه خمَّسه ثم قسَّمه عليهم ، ثم قسّم الخمس أيضاً .

وفاة سليمان بن عبد الملك
وولاية عمر بن عبد العزيز
فى سنة تسع وتسعين

توفى سليمان بن عبد الملك ، فى ربيع الأول سنة تسع وتسعين ، وكانت خلافته سنتين وثمانية أشهر ، ثم بويع لعمر بن عبد العزيز بالخلافة ، حين توفى سليمان فاستعمل على إفريقية إسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر مولى بنى مخزوم فأقام بها والياً سنة مائة وسنة إحدى ومائة فى خلافة عمر بن عبد العزيز ــ رحمه الله ـ وكان خير والٍ ، وخير أمير ، ومازال حريصا على دعاء البربر إلى الإسلام فأسلم بقية البربر على يديه .

---

(١) وهو محمد بن عمر بن واقد الواقدى الأسلمى مولاهم المدنى قاضى بغداد ، روى عن الثورى والأوزاعى وابن جرير ، وعنه الشافعى ، ومحمد بن سعد كاتبه وأبو عبيد القاسم ، مات سنة ٢٠٧ هـ وقيل سنة ٢٠٩ هـ .

وفاة عمر بن عبد العزيز
ولاية يزيد بن عبد الملك
فى سنة إحدى ومائة

توفى عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ بدير سليمان ، لِستٍّ خَلَوْن من شعبان سنة إحدى ومائة . فكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر ، ثم ولى يزيد بن عبد الملك ، واستعمل على إفريقية يزيد بن أبى مسلم ، مولى الحجاج وصاحب شرطته .

ولاية يزيد بن أبى مسلم مولى الحجاج(1)

فقدمها سنة ثنتين ومائة ، فمكث أشهراً وحرسُه البربرُ خاصة ، ليس فيهم أحدٌ من البَرانِس ، فقام يزيد بن أبى مسلم خطيباً على المنبر ، فقال : « أيّها الناس ، إنّى قد رأيت أن أَسِم حرسى فى أيديهم ، كما تفعل ملوك الروم بحرسها ، فأَسِمُ فى يمين الرجل اسمه ، وفى يساره « حرسى » لُيعرفوا فى الناس بذلك من غيرهم ، فإذا دُفعوا إلى أحد أسرع فيما أمرته به ، فلمّا سمع ذلك حرسه اتفقوا عليه ، وغضبوا ، وقالوا : « جعَلنا بمنزلة النّصارى ! » .

ودَبّ بعضهم إلى بعض وتعاقدوا على قتله ، فلما خرج من داره إلى المسجد لصلاة المغرب ، قتلوه فى مصلاه . فتكلّم الناس على رجل يقوم فيهم حتى يأتيهم أمر الخليفة ، فتراضَوْا بالمغيرة بن أبى بُردة القرشىّ ، وكان شيخاً كبيراً . فقال له ابنه ، عبد الله ، وهو الذى ولى بعد ذلك قضاء إفريقية : « أيّها الشيخ ، إنّ هذا الرجل ، يعنى : يزيد بن أبى مسلم ، قتل بحضرتك ، فإن قمت بهذا الأمر بعده لم آمن عليك أن يظن بك الخليفة قتله ، ويتهّمك أن تكون عملت فيه لنفسك ولكن الرأى أن تتراضى بمحمد بن أوس

---

(1) هو يزيد بن أبى مسلم مولى الحجاج وكاتبه وتلميذه ولاه الخليفة يزيد بن عبد الملك حكم المغرب سنة ١٠١ هـ/ ٧٢٠م ، قتلوه البربر سنة ١٠٢ هـ .

الأنصارى ـ وكان غائباً ـ بصقلية ، فإذا قدم كتب إلى الأمير بالأمر ، فإنه لا يتهمه وهو عامل علينا له ، وسيقبل قوله ويصدّقه . فقبل الشيخ رأى ابنه ، فلم يلبث محمدٌ إلاّ يسيراً حتى قدم بغنائم أصابها ، فقلّدوه أمر إفريقية فكتب إلى يزيد بن عبد الملك يخبره بما كان فى وجهه ، وبما حدث من الأمر بإفريقية ورضاء الناس به ، وبعث فى ذلك خالد بن أبى عبيدة التُّجيبى ، وهو من أهل تونس ، فقبل منه وعفا عمّا كان من حديثهم . قال خالد : « فدعانى ، خالياً ، فسألنى أىّ رجل محمد بن أوس الأنصارى » ، فقلت : « رجل من أهل الدين ، والفضل ، معروف بالفقه » قال : « فما بها قرشى إلاّ المغيرة بن أبى بردة » قال : « قد عرفته ، فما باله لم يقدم » قلت : « إنّى ذلك » . فاستعمل يزيد على إفريقية بشراً .

ولاية بشر بن صفوان الكلبى(١)

فقدمها سنة ثلاث ومائة ، ثم إنّ بشراً وفد بعد ذلك إلى يزيد فألقاه قد هلك فى ربيع الأول سنة خمس ومائة ، فكانت خلافته أربع سنين وشهراً وأربعة أيام ، ثم ولى هشام بن عبد الملك ، فردّ بشر بن صفوا ن إلى إفريقية . فلمّا قدِمها ولّى على الأندلس عبد الله بن سُحيم الكلبي ، وعزل عنها الحسن بن عبد الرحمن القيسى ، ثم إن بشر بن صفوان غزا صقلية بنفسه ، فأصاب سبياً كثيراً ثم رجع من غزوته ، فتوفى بالقيروان سنة تسع ومائة ، فلما حتضر صاحت جارية عند رأسه : « واشماتة الأعداء ياسيداه ! » قال : « قولى للأعداء لا يموتوا » ، واستخلف فى موضعه العبّاس بن ناصعة الكلبى ، فكانت ولاية بشر بن صفوان فى المرة الأولى(أ) ، والثانية سبع سنين . ، فلما انتهى موت بشر بن صفوان إلى هشام استعمل على إفريقية عبيدة .

---

(١) هو بشر بن صفوان الكلبي كان واليا على مصر حينما قتل يزيد بن أبى مسلم والى إفريقية فأمره الخليفة يزيد بن عبد الملك بأن يترك ولاية مصر لأخيه حنظلة ، وأن يتجه فوراً نحو المغرب ، فذهب إلى القيروان فى نفس هذا العام ١٠٢ هـ ، واستمرت ولايته على المغرب بقية خلافة يزيد وجزءاً من خلافة هشام حتى توفى نسخة ١٠٩ هـ/ ٧٢٧ م .

ولاية عبيدة بن عبد الرحمن السلمى(١)

وهو أخو الأعور السّلمىّ صاحبُ خيل معاوية ـ رحمه الله ـ بصفيّن ، فقدمها فى سنة عشر ومائة . فحكى موسى بن أشعث قال : « خرجت من منزلى إلى الرملة ، وكانت سكة للبريد ، فبينا أنا متوجّه نحو القيروان إذا أنا بركبٍ ثمانية على دواب البريد ، فتصدَّيْت للقائهم ، فإذا قوم سُراة ، أجد عَرْفَ المسك كلّما ضربت الريح إلىّ منهم ، فسلَّم أحدهم وهو من أحسنهم هيئة وملبساً ومركباً ، فرددت عليه السلام ، وقال : « سر هاهنا » ، فملت إليه آخذ معهم نحو القيروان ، فسألنى عن بعض حديث الناس والبلد ، سؤال من لايعرف البلد . فقلت : « إذا توالت الغيوث فالواحد مائة » قال : « ينبغى أن يكون فحصاً مِسنَاتاً ، يعطى عاماً فى أعوام » قلت : « أجل ! وقد سألتنى فأخبرتك ، وأنا أحبّ ـ أصلحك الله ـ أن أعرف من أنت ، فإنّى أرى شارة » قال : « أنا أميرك عبيدة بن عبد الرحمن » ، فمازلت أساقطه الحديث ، مرة أنشىء ومرة أجيب ، حتى جئنا مدينة القيروان ، فمال إلى دار الإمارة وذلك يوم الجمعة فألفى العباس بن ناصعة الكلبى قد تهيأ لشهود الجمعة ، ولبس ثيابه ، فقيل له : « هذا عبيدة قد قدم أميراً » فقال : « لا حول ولا قوة إلاّ بالله ، هكذا تقوم الساعة بغتة ! » فألقى بنفسه ، فما حَملته رِجْلاه ودخل عبيدة بن عبد الرحمن يجمع الناس ، وأخذ عمال بشر فحبسهم وأرغمهم وتحامل عليهم ، وعذّب بعضهم وكان فيهم أبو الخطار بن ضرار الكلبى وكان قائداً جليلاً ورئيساً شريفاً فى قومه ، مع فصاحة وبيان ، وقول حسن الشعر ، وولى فى إفريقية ولايات كثيرة فى إمارة بشر ابن صفوان ، وولى بعد ذلك إمارة الأندلس ، فقال :

أَفَادَتْ بَنُو مَرْوَانَ قَيْساً دِمَاءَنَا ... وَفِى اللهِ إِنْ لَمْ يَعْدِلُوا حَكَمٌ عَدْلُ

وَقَيْنَاكُمُ حَرَّ القَنَا بِصُدُورِنَا ... وَلَيْسَ لَكُمْ خَيْلٌ سِوَانَا وَلَارَجْلُ

---

(١) هو عبيدة بن عبد الرحمن السلمى حكم المغرب من سنة ١١٠ هـ ـ ١١٤ هـ/ ٧٢٨ ـ ٧٣٢ م ، وكان هذا الوالى قيسياً مسرفاً فى عصبيته ، فاستبد بالبربر وباليمينية واضطهد عمال بشر بن صفوان الذى حكم قبله ، وكان يمنيا ، فكاد يوقع المغرب فى فتنة عصبية ، فعزله هشام ، وأقام مكانة عبيد الله بن الحبحاب .

وولى هشام إفريقية كلثوم بن عياض القشيرى[1]

فقدم فى شهر رمضان سنة ثلاث وعشرين ومائة ، وقد عقد له على اثنى عشر ألفاً من أهل الشام ، وكتب إلى والى كل بلد أن يخرج معه ، فسار معه عمال مصر وبرقة وطرابلس حتى قدم إلى إفريقية ، فَنَكَّب عن القيروان ونزل بسبيبة ، وكان على طلائعه بلج بن بشر القيسى ، فلما وصل بلج إلى القيروان قال : « ياأهل إفريقية ، لا تغلقوا أبوابكم ، حتى يعرف أهل الشام منازلهم » مع كلام يغيظهم به ، فكتب عرب إفريقية إلى حبيب بن أبى عبيدة ، وهو مواقف للبربر : إنّك تواقف عدوّاً ، وهذا عدوّ قد نزل بنا ، يريد نزول ديارنا علينا ، وعرفّوه بما قال ، فكتب حبيب بن أبى عبيدة إلى كلثوم : أنّ ابن عمك السفيه قال لأهل بلدنا كذا وكذا ، فارحل بعسكرك عنهم ، وإلا حولنا أعنّة الخيل إليك « فكتب كلثوم إلى حبيب يعتذر إليه ، ويأمره أن يقيم بشلَف ولا يجاوزه حتى يقدم عليه ، واستخلف كلثوم على القيروان عبد الرحمن بن عقبة الغفّارى ، وهو إذ ذاك قاضى إفريقية ، ثم سار كلثوم ووجه على مقدمته بلج بن بشر فوصل بها إلى عسكر حبيب ، فرفضه بلج واستهان به ، وخطب الناس فسبّ حبيب بن أبى عبيدة وانتقصه ، وقال : « هذا الذى يحول أعنة الخيل إلينا ! » « فقام إليه عبد الرحمن بن حبيب ، وهو إذ ذاك حدث السن ، وقال يا بن أم بلج ، هذا حبيب فاعرض له إذا شئت ، » وصاح بالناس : « السلاح السلاح !! . فمال أهل إفريقية إلى ناحية ومعهم أهل مصر ، ومال أهل الشام إلى ناحية ، ثم سعى بينهم بالصلح .

وكان هذا الاختلاف سبب هلاكه مع سوء رأى . . .

فلما بلغتُمْ نيل ما قد أردتمْ ... وطابت لكم فيها المشارب والأكلُ

تَغَافَلْتُمْ عَنَّا كَأنْ لَمْ نَكُنْ لَكُمْ ... صَدِيقاً وأنْتُمْ ما عَلِمْتُ لَنَا وَصْل

(١) كلثوم بن عياض القشيرى أحد قواد الدولة الأموية أرسله الخليفة هشام بن عبد الملك إلى المغرب على رأس جيش كبير من عرب الشام للانتقام من قبائل البربر التى أوقعت بجيوشه فى هزيمة الأشراف بالقرب من طنجة سنة ١٢٣ هـ ، ولكن كلثوم منى هو الآخر بهزيمة مماثلة أمام البربر ، وانتهى الأمر باستشهاده هو وأصحابه فى بقدورة بالقرب من تاهرت فى أواخر عام ١٢٣ هـ / ٧٤١ م .

وبعث بها إلى الأبرش الكـــلبى ، فدخل بها على هشام ، وقرأهـا . فغضب هشام ، وأمر بعزل عبيدة بن عبد الرحمن عن إفريقيــــة . فقفل منها ، واستـــخلف على إفريقيــة عقبة بن قدامة التُّجيبىّ ، وذلك فى شوال سنة أربع عشرة ومائة ، وولىّ هشام بن عبد الملك على إفريقية عبيد الله .

ولاية عبيد الله بن الحبحاب مولى بنى سلول (١)

وكـان رئيساً نبيـلاً ، وأميراً جليلاً ، وكـاتباً بليغـاً ، وحافظـاً لأيّام العـرب وأشعارهـا ووقائعهـا وأخبارهـا ، وكان يقول الشعـر ، وهو الذى بنى الجامع ، ودارالصنـاعة بمـدينة تونس فى سنة ست عشرة ومائة .

قال عبد الله بن أبى حسان اليحصبى عن أبيـه ، قال : « رأيت عبيد الله بن الحبحاب يومـاً ينظر فى دفتر العطـاء ، ويملى لرسـالة ويأمر بحـاجات فى نـاحية أخـرى ، ويأمر فى خلال ذلك بالحكم بين رجلين متنـــازعين ، وكان أوله كاتبـاً ، ثم تناهت به الحال إلى أن ولى إفريقيـة ، وذلك فى ربيع الأول سنة سـت عشرة ومائة ، واستخلف ولده القـاسم على مصر ، واستعمل على الأندلس عقبة بن الحجاج ، وعزل عنها عنبسة بن سحيم الكلبى ، واستعمل على طنجة ابنه إسماعيل ، وبعث حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع غازياً إلى المغرب ، فبلغ السوس الأقصى وأرض السودان ، ولم يقابلـه أحد إلاّ ظهر عليه ، وأصاب من الذهب والسبى أمراً عظيماً ، ولم يدع فى المغرب قبيلة إلاّ أداخها فملئوا منه رُعْباً وخوفاً ، وكان فيها أصاب من سبى البربر جاريتان ليس لكل واحدة منهن إلا ثدىٌ واحد وسبى من قبيل من قبـائل البربر يقال لهم « مسـوقة » فى طـريق السودان نسـاء لهن جمال ، وكان لهن أثمان جليلة ما مثلهـا ، ورجـــع سالماً حتى قدم على ابن الحبحـاب ، وأقام ابن الحَبْحاب مدّة ، والأمر يجرى على ما يجب من الظفر والغَلَبة .

---

(١) كان والياً على خـراج مصر حينها ولاه هشام بن عبد الملك على المغرب والأندلس بالإضـافة إلى عمله بمصر وذلك سنـة ١١٦هـ/ ٧٣٤م ، وبهذا أصبح هـذا الـرجل يحكم غرب الـدولـة الإسلاميـة من العريش شرقاً إلى المحيط الأطلسى غرباً إلى جبال البرت شمالاً .

ثم غـزا حبيب بن أبى عبيدة فى البحـر إلى صقلية ، وذلــك فى سنـة اثنين وعشرين ومائة ، معه ابنه عبد الرحمن بن حبيب ، فلما نزل بأرضها وجه ابنه عبد الرحمن على الخيل ، فلم يلقه أحد إلاّ هزمه عبد الرحمن ، وأظفـر ظَفَراً لم ير مثله ، ومضى حتى نزل « سَرقَوسة » وهى أعظم مدينة بصقليـة ، فقاتلوه فهزمهم حتى ضرب بابها بالسيف ، فأثّـر فيه ، فهابه النصـارى ، ورضَواْ بـالجزية ، ثم تـوجّه إلى أبيـه خوفـاً أن يخالفه العـدوّ إليه ، وكـان ابن الحبحاب قـد ولى طنجة وما والاهـا عمرَ بن عبيد الله المُرادىّ ، فأسـاء السيرة ، وتعدى فى الصدقـات ، والقسم أراد أن يخمِّس البربر ، وزعم أنهم فى المسلمين ، وذلك ما لم يـرتكبه عاملٌ قبله ، وإنّما كانت الـولاة يخمِّسُونَ من لم يؤمن منهم ، ولم يُجب إلى الإسلام . فلما بلغ البربر خـروج حبيب بن أبى عبيـدة إلى بلــد الروم انتقَضُــوا على عبيد الله بـن الحبحاب بطنجة ، وتـداعت عليه بأسرها ، وعظم البلاء وذلك فى سنـة اثنين وعشرين ومائة ، وهى أول فتن كانــت بإفريقية فى الإسـلام ، فعند ذلك خـرج ميسرة المدغرى فقـام على عمر بن عبيد المرادى ، فقتله .

وفى المغرب يومئذ قوم فيهم دعوة الخوارج وفيهم عدد كثير وشوكة ، وكتب عبيد الله بن الحبحاب إلى أبى خالـد حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع بالـرجوع من صقلية ، وولى خالـد بن أبى حبيب الفهرى على أشراف إفـريقية ووجـوههم ، وشخص إلى ميسرة ووصل حبيب بن أبى عبيدة من صقلية ، فعقد له ابن الحبحـاب ، وأمره أن يلحق بخالد ، فوجه حبيب فى أثـره ، وسار خـالـد حتى عبر « وادى شَلَف » ، وهو نهرٌ فى أرض البربـر ، على ساحل من » تيهـرت » . ثم قدم حبيب بن أبى عبيدة حتى نـزل على وادى شلف فأقام ولم يَبْرَح ، ومضى خالـد بن أبى حبيب من فوره حتى لقى ميسرة دون طنجـة ، فاقتتلـوا قتالاً شديـداً لم يسمع بمثله ، ثم انصرف ميسرة إلى طنجـة ، وأنكرت عليـه البربر سـوء سيرته ، وتغَّيروُا عما كانـوا بايعـوه عليه ، وقد بـويع بالخلافـة ، فقتلوه وولَّوا أمـرهم خالـد بن حميد الزناتىّ : فالتقى خالد بن أبى حبيب والبربر ، فكان بينهم قتال شديد ، فبينما هم كذلك إذ غَشِيَهم ابن حمُيد الزنـاتّى بعسكر عظيم ، فتكاثرت عليهم البربر وانهزموا ، فكَـرِهَ خالد أن ينهزم ، فألقى بنفسه هو وأصحابه إلى الموت ، فقُتل خالد بن أبى حبيب وجميع من معه

حتى لم يبق من أصحابه رجل واحدٌ ، وقتل فيها جماعة العرب وفرسانهم ، فسميت تلك الوقعة « غزوة الأشراف » وانتقضت البلاد و . . . . الناس ، وبلغ أهل الأندلس ثورة البربر ، فوثبوا على أميرهم عقبة بن الحجاج الساولى ، فقتلوه وولَّوا عبد الملك بن قَطَنٍ الفهرى ، واختلفت الأمور على عبيد الله بن الحبحاب ، واجتمع الناس وعزلوه عن أنفسهم ، وبلغ ذلك هشام بن عبد الملك ، وقال : اقتل أولئك الرجال الذين كانوا يفدون علينا من المغرب أصحاب الغنائم ؟ قيل : « نعم يا أمير المؤمنين » قال : « والله لا غضبنَّ لهم غضبة عربية ، ولأبعثنّ إليهم جيشاً أوله عندهم وآخره عندى : ثم لاتركت حصْنَ بربرى إلاّ جعلت إلى جانبه خَيْمة قيسى أو تميمى . » ثم كتبَ إلى ابن الحبحاب بقدومه عليه ، فخرج فى جمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين ومائة .

وكان صفرياً يعبد الله ، وهو الذى قدم على طليعة أهل الشام مع عبيد الله بن الحبحاب ، فتلقى مسلمة عكاشة بقابس فاقتتلا قتالاً شديداً ، وقتل فيما بينهما عدد كثير وانهزم مسلمة ، ورحل عكاشة حتى وصل إلى المخنسة ، وهى من حدود تهودة مما يلى سبيبة . فسار إليه عبد الرحمن بن عقبة فى جيش عظيم . فأنهزم عكاشة وقُتل كثير من أصحابه ، وتفرق كثير منهم ، وهرب عكاشة وانصرف عبد الرحمن بن عقبة إلى القيروان .

ولما بلغ هشام بن عبد الملك قتل كلثوم بن عياض وأصحابه ؛ وبعث إلى أفريقية حنظلة بن صفوان .

إمرة حنظلة بن صفوان الكلبى(١)

وكان عامله على مصر ، وولاّه عليه سنة تسع عشرة ومائة ، فأقام عليها حتى وجهه إلى

---

(١) كان والياً على مصر عندما كانت الجيوش الأموية تتلقى الهزائم المتتالية أمام البربر أيام عبيد الله بن الحبحاب وكلثوم بن عياض ، فأمر الخليفة هشام عامله على مصر حنظلة بن صفوان بالإسراع إلى المغرب لإنقاذ الموقف ، فوصل حنظلة إلى القيروان سنة ١٢٤هـ/ ٧٤١م ، واستطاع أن يحرز نصراً على جيوش البربر فى موقعتى « القرن والأصنام » سنة ١٢٥هـ/ ٧٤٣م ، واستمر حنظلة فى ولاية إفريقية مدة سنتين استتب فيها السلام والهدوء إلى أن أخرجه منها زعيم اليمنية عبد الرحمن بن حبيب ابن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى سنة ١٢٧ هـ/ ٧٤٥م .

إفريقيـة سنة أربع وعشريـن ومائة ، فقدمهـا فى شهر ربيع الآخـر منها . فكتب إليـه أهل الأندلس ، ومن بها من أهل الشـام وغيرهم ، يسألونـه أن يبعث إليهم والياً ، فبعث إليهم أبا الخطّـار بن ضرار الكلبى فسار فى البحـر من تونس إلى الأنـدلس والياً عليهـا فأدُّوا إليه الطاعة ، ودامت له البلاد ، فلم يمكث حنظلة بالقيروان إلاّ يسيراً حتى زحف إليه عكاشة الصفـرى الخارجى بجمع عظيم من البربـر ، وقـد كـان حين انهزم من المكنسـة فى قبـائل البربر ، فـزحف إلى حنظلة فى عسكر لم ير أهل إفـريقية مثله قطّ من البربر ولا أكثـر منه ، وزحف أيضاً حنظلة عبد الواحد بن يزيـد الهوارى فى عدد عظيم ، وكانا افترقا من الزّاب ، فأخذ عكاشة على طريق مَجَّانة ، فنزل القرن ، وأخذ عبد الواحد بن يزيد على طريق الجبال فنزل « طساس » وعلى مقدمته أبو عَمْره المغيلى ، فرأى حنظلة أن يجعل قتال عكاشة قبل أن يجتمع عليه البربر ، فـزحف إليه بجماعة أهل القيروان ، والتقوا بالقـرن ، فكان بينهم قتالٌ شديد فنى فيه خلق كـــثير من الناس ، وهزم الله عكاشة وأصـــحابه ، فقُتـل من البربر مالا يحصى كثرة ، وقيل إن حنظلة لما رأى كثرة ما دَهَمه من البربر قال لأصحابه : « نُخَنْدِق على أنفسنـا ونستمد أمير المؤمنين » ، فقـال عمرو بن عثمان القـرشى ، وهو إذ ذاك شـاب حدث السنّ : « الله الله ياحنظلة ، اتستمـد أمير المؤمنين والكرائم محصورات يَمُتْن هُزْلاً ، بل نخرج إلى عدونا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين » .

فعزم حنظلة ، وعزم الناس ، ونزل العدو وخرج رجل من البربر من أصحاب عكاشة يدعـو إلى البراز ، فلم يُجبه أحـدٌ فقال حنظلـة : « ألا أحدَ يبرزُ إلى هـذا !؟ » ، فبرز إليه حبيب بن أبى عبيـدة بن عقبـة بن نافع فصـاح بـه أخوه : ارجـع عن هذا الكلب ! قـال حنظلة : « تردُ أخـاك ، فيرد كل واحد وليه عن هذا الكلب ، خلـوا لهذا الكلب الذمار ، امِضِ يا بن أخى . فمضى القرشيُّ ، فلما دنا من البربرىّ بَـدَرَهُ البربرى بالضربة ، فأعطاه القرشى الـدَّرقة ، ثم ضرب ساقيـه فبراهما ، وسقط البربرى ، فجلده القـرشى بالسيف ، فقتله ، وقال حنظلـة : « الحملةَ ! » فحمل الناسُ ، فهزم الله عكاشـة ومن معه ، وكانت النساء قد ركبن ظهور البيوت بـالقيروان ، فإذا رأين الغبار سائراً إلى الجبل كبَّرن وسجدن ، وإذا رأينه مُقْبـلاً صرخن واستغثن ، فبعث حنظلة البشير بهزيمة البربـر ، وانصرف راجعاً

إلى القيروان خوفاً أن يخالفه عبد الواحد إليها ، وقيل : إن عبد الواحد لما وصل إلى باجة أخرج إليه حنظلة بن صفوان رجلاً من لخم فى أربعين ألف فارس ، فقاتلوه بباجة شهراً فى الخنادق والوَعْر .

قال عمر بن غانم : أخبرنى أبى ، قال : لما كان اليوم الذى انهزمنا فيه لم نُصب شعيراً لخيلنا فعلفناها القمحُ ، ولم نظنّ أنه يكون ما كان من أمر الهزيمة ، فلما كان من غد انهزم اللخمىّ فلم تقم له قائمة حتى انتهى إلى القيروان ، فلما هزمنا وأخذنا الطرد أصاب خيلَنا انتشارٌ ، فلا تزال ترى صرعى ، فلما توافينا إلى القيروان تجاسبنا ، ففقدنا عشرين ألف فارس ووصلنا فى عشرين ألفاً . قال : وتوافى عبد الواحد ، فنزل بالأصنام من جراوة ، ثلاثة أميال عن القيروان ، وكان فى ثلاث مائة ألف .

قال عبد الواحد بن أبى حسان : فأخرج حنظلة كلما كان فى الخزائن من السلاح ، وأحضر الأموال ، ونادى فى الناس ، فأوّل من دخل عليه رجلٌ من تُجيب ، من أهل قلعة مجّانة ، قال له : « ما اسمك ؟ » قال « نصر بن ينعم » قال : فتبسّم حنظلة كالمكذِّب له ، ثم قال له : « بالله أصدق » قال : « والله مالى اسم غير ما ذكرت لك » فدعا عرّيفه فقال : « ما اسم هذا ؟ » قال : « نصر بن ينعم » فكبّر حنظلة عند ذلك ، وتفاءل به ـ ويقال « نصر بن فتح » ـ وأمر بدرع فصبت عليه ، وأمر بواحد بعد واحد يصب عليه الدرع ويعطيه خمسين ديناراً ، فلم يزل يفعل ذلك حتى كثر النّاس عليه ، فردَّ العطاء إلى أربعين ، ثم إلى ثلاثين ، ولم يكن يقدم إلاّ شاباً قوياً فعبَّأنا حنظلة اللّيلَ أجمع ، والشمع حوله وبين يديه ، فلم يصبح حتى عبَّأ خمسة آلاف دارع وخمسة آلاف نابل ، وجعل على الطلائع شعيب بن عثمان ، وعلى السّاقة عمرو بن حاتم ، وعلى الميمنة عبد الرحمن بن مالك الشيبانى . فلما دنَوْا من البربر وهم متوارون بالقرب ، وإذا بمنصور الأعور ، وكان من أكبر فرسانه على الكُدْيَة الحمراء ، وهو على فرس أشهب معرفة ، فأشار إلى أصحابه ثم انحدر إلينا غير مكترث بنا ولا مبال بشىء حتى إذا كان غير بعيد منا أتبعه أصحابه وزحفنا إليه حتى أحسسنا بأنفاسهم فى وجوهنا ، وإذا بفارس يركض من عند حنظلة : أن قفوا ! . قال : فوقفنا ، وإذا بقُصَّاص وقُرّاء من أهل العلم والدين والفقه قد

أرسلهم إلينا ، فتفرّقوا فينا ، وحرّضوا على الجهاد ، وذكروا فضله ، وذكروا مذهب عـدونا الخوارج وعظَمَ ما يريدونه بنا من السَّبْى وهتك الحريم ، وسفك الدم ، وأنه ليس ملجأٌ بعد هذا المقام . ومشى حنظلـة على الصفوف ، وأقبلوا يحرضون الناس ويـرغبونهم فى الجهاد ، وخرج نسـاء القيروان ، فعقدن الألـوية ، وأخذن معهنّ السـلاح ، وعزمنـا على القتال ، واستبسلن للموت مع الـرجال ، وحلفنا لأزواجهن : لئـن انهزم أحدٌ منكم إلينا مـولِّياً عن العدو لنقتلنَّه ، وعلمن ما يُرِدْن بهنّ الصَّفرية من السبى والعبودية وَوَطَنَّ الناس على الموت ، فهش النـاس للقتـال ، واشتـدت نصرتهم حتى استبطـأوا فـراغ القـوم من كـلامهم مـا سـمعوا ، ثم إن رسول حنظلة أتى إلى القراء فقال : « تَنَحَّوْا عن القوم ، وخلوا بينهم وبين عدوّهـم على اسم الله وعـونه » . قال : فنهضنـا نهضة رجل واحـد وتقدم شعيب بن عثمان فسلّ سيفه وكسر جفنـه ، وفعلنا مثلما فعل . قـال : فلقد رأيت الجفـون قد تطـايرت على رءوسنا حتى صارت كالطير لكثرتها .

فذكـر بن أبى حسّان عن أبيه عن رجل من الصُّفـرية ، قال : شهـدت ذلك اليوم ، فلما رأينا الجفون على رءوسهم أنكرنا ذلك : فقال بعـض أصحابنا ، هؤلاء بنو إسماعيل قد كسروا أغماد سيـوفهم ، فانظـروا إلى الـرجال كيـف يكونـون ، فجعل عبـد الواحـد يحرض أصحابه وينادى : « ياأهل البصائر ، قـال : أول من خرج إلىَّ رجل كالبعير عظماً ، يدعو إلى البِراز ، فخـرج إليـه شعيب بن عثمان ، فبـدره البربرى بـالضربـة ، فقعـد شعيب على مَقْعدته ثم وثب إليه ، فقتله واحترز رأسه والتحم القتـال وتنازل الأقران ، وتداعى الأبطال ولزم الـرجالـة الأرض ، وجَثَوْا على الرُّكب فـلا تسمع إلاّ وقع الحديد وتـواخذوا بـالأيدى ، فكانت كسرة على مسيرة العرب حتى جـاوزوا قصر الماء ، وانكسرت مسيرة البربر قبلهم ثم كرت مسيرة العرب على ميمنـة البربر فكانت الهزيمة وفتح الله عـز وجل لنا ، فقتلناهم إلى جلولاء وخرجت إلينا الصِّبيان والنساء بالماء والسّويق ، وكان ذلك يوم الثلاثاء ، فأقمنا إلى يوم الخميس ونحن لا نعلم بمـوت عبد الواحـد عدوِّ الله ، حتى أتى إلى حنظلة بـرأسه ، فخر للـه ساجـداً وقيل : ما عُلم فى الأرض مقتلـه كانت أعظم منهـا وأخذ عكـاشة أسيراً بجبل آخر بمضيق ، وأتى به حنظلة فقتلـة ، وأراد حنظلة أن يحصى من قتل بينهم ، وأمر

بعددهم فما قُدِر على ذلك فأمر بقطع القصب وأمر أن تطرح قصبة على كل قتيل ثم جمعت القصب وُعدَّت ، فكانت القتلى مائة ألف وثمانين ألفا ، وكانوا صُفرية يستحلون الدماء وسبى النساء ، وكتب بذلك حنظلة إلى هشام بن عبد الملك ، فكان اللّيث بن سعد يقول : ما غزوة كنت أحب أن أشهدها بعد غزوة أحب إلى من غزوة القرن والأصنام .

ولاية عبد الرحمن بن حبيب

كان عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى قد هرب إلى الأندلس عند هزيمة كلثوم بن عياض فى الوقعة التى قتل فيها أبوه كلثوم : فلم يزل وهو بالأندلس يحاول أن يغلب عليها فلم يمكنه ما يريد إلى أن وجه حنظلة بن صفوان أبا الخطّار إلى الأندلس فخاف عبد الرحمن على نفسه ، ولم يتهيأ له فخرج متستراً ، فركب البحر إلى تونس فنزل بها ، وذلك فى شهر جمادى الأولى سنة سبع وعشرين ومائة ، فدعا الناس إلى نفسه ، فأجابوه فسار حتى نزل بسمنجة ، فأراد أصحاب حنظلة الخروج إليه والزحف لقتله ، فكره حنظلة ذلك كراهية شديدة لهراقة دماء المسلمين ، وكان رجلاً ورعاً عن الدنيا ولا يرى السيف إلا فى الكفرة وفى مثل الصفرية ، الذين يستَحِلُّون دماء المسلمين وسبى ذراريهم وأخذ أموالهم ، وكان ذا دين وتقوى ، فوجه إليه حنظلة جماعة من وجوه إفريقية يدعونه إلى مراجعة الطاعة والنزوع عما هو عليه .

فلما قدموا على عبد الرحمن أوثقهم فى الحديد وأقبل بهم راجعاً إلى القيروان ، وقال : « إن رمانى أحد من أوليائهم بحجر قتلتهم » فبلغ ذلك من الناس كل مبلغ ، وكان القوم الذين ظفر بهم وجوههم وأشرافهم ، فلما رأى ذلك حنظلة دعا القاضى وجماعة من أهل الفضل والدين ففتح بيت المال بحضرتهم ، وأخذ منه ألف دينار وترك الباقى . وقال : « ما أنا بماسٍّ منه إلاّ بقدر ما يكفينى ويبلّغنى » . ثم شخص عن إفريقية فى جمادى الآخرة سنة سبع وعشرين ومائة وأقبل عبد الرحمن بن حبيب حتى دخل القيروان ، ونادى مناديه « لا يخرجنّ أحد إلى حنظلة ولا يشّيعه » فرجع الناس خوفاً من عبد الرحمن .

فلما كـــان بالليـــل ركـب عد العزيز بن قيس فرسه ولبس سلاحـــــه - وهـو عم أبى محرز القاضى - يريـد توديع حنظلة ، فلما صار بقصر الماء سمع من خلفـه وقع حوافر دابّـة ، فراعـه ذلك ووقف للدفـاع عن نفسـه مستعداً ، فإذا هـو عمر بن غـانم ، فسأل بعضهما عن بعض وتساءلا وتـوجها حتى لحقا حنظلـة ، فراعه وقع حـوافر دوابهما وظن أن عبـد الـرحمن وجـه فى طلبه خيـلاً ، فلما وصـلا إليـه سُرّ بهما ، وجـزاهما خيراً ، وسألاه أن يصحبـاه ، فأبى من ذلك كراهـة أن يخالفهما إلى أهلهما مكـروه من عبد الـرحمن ، فودعّـاه وانصرفا إلى القيروان ، فبلغ ذلك عبد الـرحمن فبعث إليهما وقال : « خالفتما أمرى وارتكبتما نهيى » فذكرا أنه أحسن صحبتهما وأولاهما جميـلاً ، فبعث إليهما وعفا عنهما ، وقبل عذرهما وسألهما أن يتوليـا من أمره ما كـان يتوليـان من حنظلة ، ورغب فى وفائهما ، فكـان عمر بن غانم على حجـــابته ، وعبد العزيـز بن قيس على شرطته ، فلما قفل حنظلة ، إلى المشرق دعا ، وكان مستجاباً ، فقال : « اللهم لا تُهَنِّ عبد الرحمن هذا الملك ولا أهله وأسفك دماء هم بأيديهم ، وابعث عليهم شرار خلقك » ودعا على أهل إفريقية فوقع الوباء والطاعون ، فأقام بإفريقية سبع سنين ، لا يكاد يرتفع إلاّ وقتاً فى الصـــيف ووقتا فى الشتاء .

ولما ولى عبد الـرحمن ثار عليه جماعة من العـرب والبربر ، ثم ثار عليه عـروة بن الزبير الصدفى ، واستولى على تونس ، ثم ثار عليه عـرب الساحل وقام ابن عَطّاف الأسدى حتى نزل بطساس ، وهرب البربر من الجبال ، وثار ثابت الصنهـاجى بباجة ، فأخذها . فدعا عبد الرحمن أخـاه إلياس ، فقال له : « امض فى ستمائة فـارس حتى تمرّ بعسكر ابن عَطّاف الأزدى ، فإذا تراءت له خيلك فأظهر أنك تـزهق عنه إلى تونس حتى إذا انتهيت إلى موضع كذا وكذا ، فقفْ حتى يأتيك جـاسوس أدُسه فى عسكر ابن عَطّاف ، فخـرج إلياس ودعا عبد الرحمن برجل ، فأعطاه أطماراً وأعطاه كتـاباً ، وقال له : امض حتى تدخل عسكر ابن عَطّاف ، فإذا أشرف عليهم إليـاس ورأيتهم تداعوا بالسـلاح فأقم فيهم ، فإذا زهق إلياس عنهم ووضعوا السلاح وتمحقوا ، تسلل حتى تأتى إلياس فى مكان كذا وكذا ، فقد أمرته أن يقف لك هنالك ، فمضى الرجل حتى دخل عسكـر ابن عطّاف ، فلما طلع إلياس عليهم

صاحوا بالسلاح ، ثم زهق إلياس عنهم ، فقالوا : « قد دخل بين لِحيَ الأسد ، و نحن من هنا وأهل تونس من هناك ، نستريح ونعلف ، ثم نزحف إليه على أثره » ونزل القوم عن الخيل وحطّوا السلاح وتضجعوا وانسلّ الرجل إلى إلياس حتى جاءه فى المكان الذى أمره عبد الرحمن أن يقف فيه ، فدفع إليه الكتاب ، فإذا فيه : أن القوم قد أمنوا فانسلَّ إليهم حتى تخرج عليهم من كثب وهى فى غفلتهم . فتخلل إلياس الأشراف حتى خرج عليهم ، فلم يدرك القوم لبس الدّروع ، وكان همّهم أخذ السيوف ، فقتلوا وقتل ابن عطّاف ، وأصبح عبد الرحمن على كُدْية الجلود ينتظر ، حتى طلعت عليه الشمس ، إذ قيل له : هذا فارس قد أقبل وتجاب ، قال : هل ترى غيره ؟ قال : « لا » قال : « فهذا بريد ، وهو الفتح » وجاء البريد ، فلما رآه أقبل إليه ورمى برأس ابن عَطّاف بين يديه فدعا بدواة وقرطاس وكتب إلى إلياس : « إن عروة بن الزبير وأهل تونس سيظنون أنّا نغتنم هذا الفتح ، فإذا جاءك كتابى ، فانزل واسترح واعلف ، ثم سر إلى تونس ، فإن قدرت أن تصبح عليهم فافعل ، فإنى لا أشك أنهم فى غفلة » فمضى إلياس ، فسار ليلته حتى أصبح دون تونس ، وعروة فى الحمام .

وكان إلياس قد فرق خيله مائتين على طريق الجزيرة ومائتين على طريق باجة وهو فى مائتين على طريق القيروان ، فقيل لعروة : «أصلح الله الأمير ، خيل على طريق الجزيرة ! » فقال : « هؤلاء أهل الجزيرة جاءوا مدداً لنا » فقالوا : «وخيل على طريق باجة !» قال : « ابن قويدر جاء مدداً لنا » قالوا : « وخيل على طريق القيروان ! » ، فعندها أيقن وبادر وخرج ، فما أدرك إلا ملحفة يتنشّف بها حتى دخل إلياس فبادر عروة إلى فرسه عرياناً ، ولم يمهل حتى يسرج له ، وولى ، فلما خشى إلياس أن ينجو ، صاح به : « ياعروة ، يافارس العرب ! » فكرّ عليه جاهزاً فى سراويل وملحفة بغير سلاح ، فضربه إلياس فتلقاها بالملحفة وعانقه ، فوقعا إلى الأرض ووقع عروة على إلياس ، فجعل ينازعه على قائم السيف ، حتى غشيه أفرنجى من موالى عبد الرحمن فطعنه برمح بين كتفيه فأخرجه من صدره واحتزّ رأسه ، وحمله إلى عبد الرحمن فأقام إلياس بتونس حتى كتب إليه

عبـد الرحمن أن يخرج إلى قويدر ، وخرج بناحيـة طرابلس رجلان يقال لأحدهما عبد الجبار والآخر الحارث ، وهما من البربر يدينان بدين الخوارج ، وكـان بطرابلس عامل لعبد الرحمن يُقال له بشر بن حَنَش مولى لقيس ، فخرج فى جماعة من مشائخهم إلى البربر ليصالحوهم ، فقتلوهم عن آخـرهـم . فبلغ ذلك عبد الرحمن ، وهـو بالقيروان فى وقت القائلـة فخرج فى ذلك الوقت ثم لحقته المضارب وأتاه الناس فسار حتى انتهى إلى مدينة قابس ، فهمَّ الناس وأرادوا عزله ونفيـه وتولية شُعيب بن عثمان بن أبى عبيـدة ، فأبى ذلك شعيب فانتهى ذلك إلى ابن حبيب فانصرف من قابس ، فلما عاد إلى القيروان أصلح ما كان يخشى فساده ، فلما اعتدلت له الأمور عاود غزوة طـرابلس ، سنة إحدى وثلاثين ومائة ، وخلّف على القيروان عمر بن نافع ، فـانتهى عبد الرحمن إلى طرابلس فقاتل عبـد الجبار والحارث ، فقتلهما وكان الذى ولّى قتالهما شعيب بن عثمان وكان يدينان بدين الإباضية ، ويدعوان إليها وأوعب عبد الرحمن فى قتل البربر ، وامتحى الناس بهم وابتلاهم بقتـل الرجال صبراً : يؤتى بالأسير من البربر ، فيأمـر من يتهمه بتحـريم دمه بقتلـه ، فابتلى جماعة من النـاس فما سلم منهم غير عبد الرحمن بن زياد بن أنعم ، أبى ذلك وعصمه الله منه .

وكان فى موضع طرابلس وحاضرتها وموضع جماعتها يومئذ نهرٌ جارٍ ، فأمر بالرّحيل إلى مدينة طرابلس ، وبنى عليها السور وانتقلوا إليها ، وذلك سنة اثنين وثلاثين ومائة ، وكان عبد الـرحمن بن حبيب قد كتب إلى مـروان بن محمد وأهـدى إليه هـدايا وتقـول على حنظلة ونسب إليـه أهوالاً كـذِب فيها ، فكتـــب إليـه مـروان بولايتـه على إفريقيـة والمغرب كلـه والأندلس ، وفى حين كـونه بطرابلس كتب إليه مـروان بن محمد كتاباً يستـدعيه إلى القدوم عليـه ، وخلّف عبد الـرحمن على طرابلـس بكر بن حسين القيسى ، وأقـام ابن حبيب على القيروان حتى كان سنـة خمسين وثلاثين ومـائة ، فغزا تلمسان حتـى انتهى إليها ، وخلّف على القيروان حبيباً ابنه ، فظفر بها لم يظفر به أحـد قبله . ثم بعث إلى إفريقية فأتى إليه من سبيها بها لم يـؤت بمثله من بلـد ، ودوّخ المغرب كلّـه وأذل من به من القبـائل ، ولم يُهزم له عسكر ولا رُدَّت له راية ، وتداخل جميع أهل المغرب خوفَه والحذر من سطوته .

وقُتل مروان بن محمد ، وزالت دولة بنى أمية ، وعبـد الرحمن أمير على إفريقية ، وهرب جماعة من بنى أمية عند قتل مـروان خوفاً من بنى العبـاس ومعهـم حـرمهم ، فتزوج عبد الـرحمن وأخوته فيهـم ، وكان فيمن قدم ابنـان للوليد بن يـزيد بن عبـد الملك ، يقال لأحدهما القاضى والآخر المؤمن وكانت ابنة عمهما تحب إلياس بن حبيب فأنزلهما عبد الرحمن بدار شبيبة بن حسان ، وكانت معهما عجوز فى الـدار ، فدّس إليها عبد الرحمن بن حبيب أن توصله إلى مـوضع تُسْمِعه منه كلامهما ، فقـالت له : « إن البيـت الـذى هما فيه سقفه غُرّة ، فإن شئت فأنا اوصلك ليلاً إلى ظهر البيت حتى تطلع عليهما ولا يعلمان » ، فقال : « افعلى » . فلما كان فى الليل اطلع عليهما ، وهما على نبيذ لهما ، ومولاهما يسقيهما ، إذ قال القاضـى : « ما أغفل عبـد الرحمن أيظن أنه يتمنـى معنا ولاية ونحـن أولاد الخليفة » ، فلما سمع هذا منهما نزل وانصرف ثم دعـا القاضـى والمؤمن ، فسـلّما مع النـاس فأظهـر لهما عبـد الرحمن بشراً ولم يبـد عليه شىء من التجهّم ، حتى أتـاهما من أخبرهما أن عبد الـرحمن سمع كلامهما الذى تكلما به ، فحذرا منه وعزما على الهرب وخافا ، فلما كان أول الليل ركبا جملين خصيين ، وركب مولاهما جملاً ثالثاً ، وخرجوا هاربين على طريق مجّانة ، فاستبطاهما عبـد الرحمن من الغـد ، فأرسل إلى منـزلهما ، فوجـده خـالياً ففّرق الخيل والنُجُبَ على كل طريق فجـاءه البشير بأنهما أدركا بطـريق مجَّانة ، فخـرج إلى تونس واستخلف على القيروان ابن عم لـه يقال لـه عمر بن نـافع ، وخرج إلى تـونس وأمره أن يضرب أعنـاقهما ويعتـق مولاهما ، فلما قدم بهما أمر عمر بن نـافع بقتلهما ، وقتل مولاهما فقتلوا . وكانت ابنة عمهما عند إلياس ، فقـالت له : « إنه قد قتل أخيك تهاونـاً بك ، وجعلَ العهد من بعده لحِبيب ابنه ، وأنت صاحب حَربْه ، وسيفه الذى يصول به » ، ولم تزل تغريه عليه .

وذكر أشياخ من أهل القيروان : أن مروان بن محمـد الجعدى حين بلغه أن عبد الرحمن يقتل كل من ورد عليه خـوفاً من الـرواية التى أخبره بها الحنفى ، أنه يقتلك أخـوان فجاءه كتاب مروان : لا تقتل النـاس فإنما أصحابك أخوالك إلياس وعبـد الوارث . فهمّ أن يبعث إليهما ثم بدا لـه فبعث إلى مولى لهم يقال لـه « بُرد » ، فأتاه فـرمى إليه كتاب مـروان فقرأه ،

وضحك برد ، وقال : « أصلح الله الأمير هـذا أمكر بنى أُمية أراد أن يشتت عليك أمرك ، لَمَّا نزل بهم من الأمر ما نزل فكأنه كسره عما أراد » ، فقـالت له امرأته اللخمية : وهى أخت موسى بن على بن ربـاح : « لا تقتل أحداً فإنك لن تقدر أن تقتل من يقتلك » ، ووجــه عبد الرحمن كتابـاً إلى أبى العباس السفاح : بسمعه وطاعته وقـدم عليه فى ذلك اليوم رسول موسى بن كعب بفتح السنـد . فدخل عليه عمـر بن عيسى بن على ، فأخبره فوجم وتغّير لونه وقال : إنّا كنّا نذكر ونتحدَّث أن وفـاة القائم منّا بالأمر يأتيه فتح المشرق والمغرب فى يوم واحد ، فمات لثمانى عشرة ليلـة خلت من ذى الحجة سنة ست وثلاثين ومـائة . فلما صار الأمر إلى أخيـه أبى جعفر عبـد الله بن محمـد ، كتب إلى عبد الرحمن يـدعوه إلى الطـاعة ، فأجابه ودعا لـه ، وكتب إليه بطاعته ، ووجـه إليه بهدية نزرة كـان فيها بُزاة وكلاب وكتب إليه : أن إفـريقية اليوم إسلاميـة كلّها ، وقد انقطع السبى منها فـلا تسألنى ماليس قبلى . فغضب أبو جعفر ، وكتب إليه يتوعده ، فلما وصل إليه الكتاب غَضَب غضباً شديداً ، ثم نادى : الصلاة جـامعة فلم يبق أحد من أشراف الناس ولا أعيـانهم إلا اجتمع فى المسجد الجامع ثم خرج عبـد الرحمن فى مِطرف خـزّ وفى رجليه نعلان ، فصعد المنبر ، فحَمِـد الله وأثنى عليـه ، ثم أخذ فى سبّ أبى جعفـر ، ثم قال « إنى ظننت أن هـذا الجائر يدعـوا إلى الحقِّ ويقوم بـه حتى تبين لى خلافُ ما بـايعته عليه من إقـامة الحق والعدل ، وأنـا الآن قد خلعته كما خلعت نَعْلِيّ هـذين » وقذفهما وهو على المنبر ، ثـم دعا بخلعه أبى جعفـر الذى أرسل إليه فيها بسواره ، وقد كان لبسها قبل ذلك ، ودعا فيها لأبى جعفر ، وهو أول سِوار لُبس بإفريقية ، وأمر بتخريق الخلعة فخرقت خرَقـاً ثم حُرقت ، وأمر كاتبه خالد بن ربيعة أن يكتب كتاباً بخلعه ، وقرأه على جميع الناس .

وكان عبد الـرحمن يُخرِج أخاه إلياس فى كل من خرج عليه يقاتلـه ، فإذا ظفر به نسب ذلك الظفر إلى ابنه حبيب ، وحوّل العهد لابنه حبيب ، وكان إلياس يظن أن العهد له من بعده ، ففسدت نيته عليه ولم تـزل امرأته الأموية تغريه به وتحرضـه عليه ، وتقول له : « إنه يستخف بك ، وقَتَل أصهـارك وولىَّ حبيبـاً عهــده » فـاجتمع رأى إليـاس بن حبــيب

وعبـد الوارث على قتل عبد الرحمن ، ووالاهما على ذلك جماعة من أهل القيروان من العرب وغيرهم ، على أن يؤم إلياس بن حبيب ويدعوا إلى أبى جعفـر فروى أن عبد الرحمن بن زياد ابن أنعم ليلة قتل عبد الرحمن تعشى على مائدة ومعـه صهر له يقال له شراحيل ، ممن كان وقف على سر القوم فى عبد الرحمن ، فقـال لابن أنعم : « ابنتك طالق إن رُفعت هذه المائدة الليلة من بين أيـدينا حتى يقتل عبـد الرحمن بن حبـيب » فقـال : « ويحـك ! حرمت عليك . . » فهم كذلك حتى سمع الصيحة ، فسـألا فقيل : قتل عبد الرحمن بن حبيب . وكانت ليلة الأسداس . فأتاه إلياس فاستأذن عليه بعد العشاء الآخرة ، فقال : « ما جاء به وقد ودّعنـى ، وقد كان إليـاس على أن يخرج إلى تونس ، هـل بقيت له حـاجة ائذنـوا له » فدخل فوجـده فى غُلالة وردية ، وابن لـه صغير له فى حجرة ، فقعد طويـلاً وعبد الوارث يغمـزه ، فلّما قام يـودعه أكب عليـه يعـانقه ، فـوضع السكين بين كتفيه حتى صـارت إلى صدره ، فصاح عبد الرحمن وقال : « فعلتهـا يا بن اللخناء ! ثم ردّ إلياس بيده إلى السيف فضربـه فاتقـاه بمرفقـه فأزال يده ثم ضربـه حتى أثخنه ، وكـانت جاريـة لعبد الـرحمن ، فأخذت شعـر إلياس من . . . . ، فـالتفت إليها فهـربت منه ، وخـرج إلياس هـارباً دهشاً ، وجعل عبد الرحـمن كلمّا أراد أن ينهض سـقط ، فلـما خـرج إليـاس قال له أصـحابه : « ما فعلت ؟ » قـال : « قتلته » قالوا : « ارجع فحُزّ رأسه وإلا قتلنـا بآخرنا » فـرجع ففعل وثارت الصيحـة ، فأخذ إليـاس أبـواب دار الإمـارة ، وسمع حبيـب بن عبـد الرحمن الصيحة ، فسأل عنها فأُخبر بقتل أبيه ، وكـان مع أبيه فى قصر الإمارة فلم يقدر على الخروج ، وخـاف أن يقتله إلياس فسّرح نفسه إلى نـاحية السماط ، ثم تحامل على وجهه إلى باب تونس حـتى خرج مـن القيروان ، فلقيه عمرو بن عثمان القرشى راجعاً من بعض منازله ، فلما رأه راجـلاً قال : « ما وراءك ؟ » قال : « قُتل أبى » قـال : « ومن به ؟» قـال : « عمى إليـاس » فنزل عمرو بن عثمان ، ثم قال له : « دونك الفـرس فاطلب بدم أبيك » ودخل عمـرو بن عثمان القيروان مستتراً ليـلاً ، يعـرف فيُنكَر مشيـه راجـلاً ، وظن إلياس أن حبيباً فى دار الإمـارة حين أخذ عليه الأبواب فأصبح حبيب بقـرب تونس فاجتمع مع عمه عمران بـن حبيب ، فأخبره بخبر أبيه ولحِق بهما موالى عبد الرحمن مـن كل ناحية ،

فخرج إلياس إلى « سمنجة » فوافاه حبيب وعمران ومن معهما فهّموا بالقتال ، ثم اصطلحوا على أن يعود عمران إلى ولاية تونس وصطفورة والجزيرة ، ويكون حبيب على قفصة وقصطيلية ونفزاوة ، وإلياس بسائر إفريقية والمغرب .

ومضى إلياس مع عمران إلى تونس ، وانصرف حبيب إلى القيروان ، فوثب إلياس على أخيه عمران ، وعلى عمرو بن نافع بن أبى عبيدة الفهرى والأسود بن موسى بن عبد الرحمن بن عقبة فشّدهم وثاقاً ، ووجه بهم إلى يوسف بن عبد الرحمن بن عقبة فى سفينة ، وهو إذ ذاك والى الأندلس ، فوصلوا إليه وولى على تونس محمد بن المغيرة القرشى ، وانصرف إلى القيروان فبلغه عن حبيب أخبار كرهها ، فأغَرى الناس للقيام عليه فى ما يتزيد به من ضياع أبيه ، وأرسل إليه من زّين له الخروج إلى الأندلس إرادة الراحة منه ، ففعل وجهّزه إلياس ، فوجه معه شقيقه عبد الوارث ، ومن أحب من مواليه ، فركبوا فى البحر ، فوقعوا فى طرقة ، فتعذرت عليهم الريح ، فكتب إلى إلياس : بأنّ الريح قد ردّته ، وأن السير لم يمكنه . فاتهمه إلياس ، وخاف إلياس من ناحيته وكتب إلى عامله سليمان بن زياد الرّعينى يحذِّره أمره . وسمع موالى عبد الرحمن وصنائعه بخبر حبيب فأتوا إليه من كل ناحية وطرقوا سليمان بن زياد ليلاً ، وهو مُعَسْكِرٌ يحارس حبيباً ، فأَسَروه وشدو وثاقه ، ومضوا إلى حبيب فأخرجوه إلى البرّ ، وأظهروا أمره فتوجه إلى الأربس فأخذها وبلغ خبره إلياس خرج يريده ، واستخلف على القيروان محمد بن خالد القرشى ، فلما قرب إلياس منهما تحاربا حرباً خفيفاً لم يتناجز فيه ، فلما أمسى حبيب أوقد النيران ليظن إلياس أنه مقيم ثم يفد إلى القيروان ، فأوقع بمحمد بن خالد خليفة إلياس ، وكسر باب السجن وأخرج منه سلاّم بن عبد الرحمن بن حبيب أخاه ، وجماعة من صنائع أبيه ومواليه ورجع إلياس فى طلبه ونزل على القيروان ، وفسد عليه أكثر من معه وخرج فى جمع عظيم ، فكان على ميمنة إلياس عمرو بن عثمان الفهرى ، وعلى ميسرته أبو شريك الجزرى ، فخذلا إلياس ومضيا عنه فلّما التقى إلياس وحبيب ، قال له حبيب : « لِمَ تقتل موالينا وصنائعنا بيننا ، وهم لنا حصن ، ولكن أبرز أنت وأنا فأيّنا قتل صاحبه استراح منه ، إن قتلتنى ألحقتنى بأبى ، وإن قتلتك

أدركت ثأرى منك » فارتاب إلياس ساعة ، فنادى الناس : « قد أنصفك فلا تَجْبُنْ ، فإن ذلك سبة عليك وعلى ولدك من بعدك » فخرج كل واحد منهما إلى صاحبه ، ووقف أهل العسكر ينظرون إليهما وإلى جَلَدهما وصبرهما ، فتطاعنا ساعة ثم تضاربا بسيفهما ، ولا ينال أحدهما من صاحبه إلا ما ينال الآخر ، وعجب الناس من ذلك ، ثم ضرب إلياس حبيباً ضربة فأعمل السيف فى ثيابه ودرعه حتى وصل إلى جسمه ، ثم عطف عليه حبيب فضربه بالسيف ضربة سقط من فرسه إلى الأرض ، وألقى حبيب بنفسه عليه ، فحزّ رأسه وأمر به فرفع على رمح ، ومرّ به إلى القيروان ، وهرب عبد الوارث بن حبيب ومن كان معه ممن فلّ من عسكر إلياس إلى بطن من البربر يقال لهم « وَرْفَجُومَةَ » ، ودخل حبيب القيروان وبين يديه رأس إلياس عمّه ، ورأس محمد بن أبى عبيدة بن نافع ، عمّ أبيه ، ورأس محمد بن المغيرة بن عبد الرحمن ، وجاءه محمد بن عمرو بن مصعب القرشى ، وهو زوج عمّة أبيه مهنئاً له فأمر بضرب عنقه ، فضرُبت وذلك كلّه فى شهر رجب سنة ثمان وثلاثين ومائة .

وكان إلياس لما قتل أخاه وجه بطاعته وفداً من وجوه الناس إلى أبى جعفر المنصور .

ولما وصل عبد الوارث بن حبيب ومن معه إلى ورفجومة من نَفزة ، نزلوا على عاصم بن جميل الورفجومى ، فكتب إليه حبيب : يأمره بأن يوجه بهم إليه ، فلم يفعل فزحف إليه حبيب فلقيه ، ولقيه عاصم ومن معه وكل من هرب من حبيب فالتقوا واقتتلوا ، فانهزم حبيب ، وكان إذْ خرج إليهم استخلف على القيروان أبا كريب جميل بن كريب القاضى ، فقوى أمر ورفجومة ، ثم زينّوا له أمر المسير إلى القيروان وواعدهم أن يخذلوا الناس عن حربهم ، وكاتبهم بعض وجوه أهل القيروان خوفاً على أنفسهم منه ، فيهم : عمر بن غانم وأظهروا أنهم يريدون أن يدعوا لأبى جعفر وظن العرب أن البربر تفى لهم بها وعدتهم وأعطتهم ، فزحف عاصم بن جميل وأخوه مكَّرم بالبربر ومن لجأ إليهم من العرب بعد أن هزموا حبيباً ، وصار بناحية قابس ، فلما قَربُوا من القيروان خرج إليهم أبو كريب القاضى مع أهل القيروان ، فعسكروا بالوادى المعروف بأبى كريب ، حتى إذا دنا بعضهم من بعض خرج من عسكر جميل جماعة من أهل القيروان ، فخذلوا الناس ودعَوْهم إلى عاصم ،

وقتلوا منهم وافترق أكثر الناس عن أبى كريب ، ورجعوا إلى القيروان ولم يعلموا ما حلّ بهم من البربر ، وثبت أبـو كريب فى نحـو من ألف رجل من وجوه النـاس ، من أهل البصائر والخِشية والدين مستبسلين إلى الموت ، فقاتلوا باجتهاد فقتل أبـو كريب ـ رحمه الله ـ ومر به بعض أصحابه فغطاه برداء كان عليه لئلاّ يراه الناس فيذ شوا .

فقـاتلوا حتى قتلـوا ، ودخلت ورفجومـة القـــيروان ، فاســـتحلوا المحارم وارتكبـوا العظـائم ، ونزل عـاصم بعسكـره فى الموضع الـذى يسمى « مصلىّ رَوْح » واستخلف على القيروان عبد الملك بـن أبى الجعد النفزى ، وسـار إلى حبيب ، وهو بقـابس فقاتلـه فانهزم حبيب ولحق بجبل أُوراس ، وهم أخوال أبيه ، فسـار عاصم إلى أوراس فى طلب حبيب ، فالتقـوا فهزم عاصم وقُتِل هـو وأكثر أصحابه ، وأقبل حبـــيب إلى القيروان فخـــرج إليه عبـــد الملك بن الجعـد ، فانهزم حبيب وتكالبت عليه نفزة من كل مكـان ، فقتلوه فى شهر المحرم سنة أربعين ومـائة ، وكانت ولاية عبد الـرحمن بن حبيب عشر سنين وأشهر ، وولاية إلياس أخيه ستة أشهر ، وولاية حبيب ابنه سنة وستة أشهر .

ولما حكمت ورفجومة على القيروان قتلوا من كان بها من قريش وساموهم سوء العذاب وربطوا دوابهم فى المسجد الجامع ، وندم الذين أعانوهم ودعَوْهم أشد ندامة .

فحكى أبــو حســان : أن رجـلاً مـن الإبـاضيـة دخـل القيروان ، فـرأى نـاســاً من الـورفجوميين قـد أخذوا امـرأة وكابـروها على نفسهـا ، وهو ينظـر والناس ينظـرون ، فترك حاجته التى أتى فيها ، وخرج حتى أتى أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى فأعلمه الـذى رأى ، فخرج وهـو يقـول : « لبيك اللّهم لبيك » ، واجتمع إليـه أصحابـه من كل مكان وتوجهوا نحو طرابلس ، فأخرجـوا عمرو بن عثمان القرشى منها واستولى أبو الخطاب على طرابلس ، وبلغـه أنَ المُسَوِّدة قد أقبلـوا إليه من نـاحيـة برقة ، وعليهم العـوام بن عبد العزيز البَلْخى ، فخرج ابن الخطاب لجمعه حتى إذا كـان بودراسة وجه رجلاً من أصحابه يقـال له مـالك بن سُمَيْران . . . . وفى ولايـة عمـر بن حفص اشتدت فتنـة الخوارج الصفريـة والإباضّية عليه ، وأحـاطت به عساكرهم بمـدينة طُبْنة بالـزاب ، فأخذ

يستميل بعض أمرائهم لينصرف بعضهم عن بعض ومن ذلك أنه دفع إلى ابن أبى قُرة أربعة آلاف درهم وأثواباً على أن يعمل فى صرف أبيه ، فرّد الصفرية إلى بلدهم ، فعمل ذلك فى ليلته ، فلم يعلم بذلك أبو قُرَّة حتى ارتحل العسكر منصرفين إلى بلادهم تجريداً ، فلم يجد بُدّاً من إتباعهم ، فلما انصرفت الصفرية وجه عمرو بن حفص معمر بن عيسى العبدى فى ألف وخمسمائة إلى ابن رستم ، وهو فى تهودة فى خمسة عشر ألف ، فالتقوا فانهزم ابن رستم ، وقتل من أصحابه نحو من ثلاثمائة ووصل ابن رستم منهزماً إلى تيهرت ، ثم أقبل عمر بن حفص يريد القيروان ، واستخلف على طُبنة المهنأ بن المخارق بن عفّان الطائى فلما بلغ أبو قرة مسير عمر بن حفص أقبل فى جمع كثير حتى حصر المهنّأ ، فأرسل إلى أبى قرة يسأله الانصراف عنه ، فأرسل أبو قرة إليه : « نصيبى منك ومن قبلك أحرار ، ولكن لاسبيل إلى ترك غنيمة المسلمين » ، فلما قال له ذلك تحمّلوا عليهم ، فانهزم أبو قرّة واستباحوا عسكره ، وكان أبو حاتم لما حصر القيروان أقام عليها ثمانية أشهر ، وليس فى بيت مالها درهم ولا فى أهرائها شىء من الطعام ، وكان الجند تلك المدة يقاتلون البربر كل يوم فى طرفى النهار حتى أجهدهم الجوع ، وأكلوا دوابّهم وكلابهم ، وجعل الناس يخرجون فيلحقون بالبربر من الجهد .

وبلغ ذلك عمر فأقبل يريد القيروان فى نحو سبعمائة فارس من الجند ، حتى نزل مدينة الأربس ، فبلغ البربر إقباله فزحفوا إليه بأجمعهم وخَلّوْا عن القيروان ، فلما بلغه إقبالهم توجّه إلى ناحية تونس ، وأغَذَّ السير ومضى البربر حتى صاروا إلى سمنجة ، وسار عمر من تونس ، وخرج جميل بن حجر من القيروان ، فبث خيله حول القيروان وجعل يدخل ما يصلحه من الطعام والحَطَب والمرافق واستعد للحصار ، وخَندق خندقاً على باب أبى الربيع فسكن فيه الجند ، ثم أقبل أبو حاتم فى جنوده حتى وصل إلى بُحيرة المسروقين ، فنهض إلى عمر بمن معه ، فقاتله أشّد قتال ثم تكاثرت البربر ، فانكشف حتى سار إلى القنطاط ثم تقاتلوا بالقنطاط ، وأشتد قتلهم وكاثروه حتى انحاز إلى خندقه بباب أبى الربيع ، ثم زحف أبو حاتم بعساكره حتى نزل بالقرب من باب أبى الربيع ، وأنزل عسكراً

من باب سالم وباب أصرم وعسكراً بين باب نافع وباب عبد الله ، وفى هذا المعسكر عمرو بن عثمانٌ الفهرى ، وكان قد سار معهم .

ويقال : إنّ عدتهم كانت فى ذلك اليوم مائة ألف وثلاثين ألفاً ، وكان عمر يخرج إليهم فى كل يوم فيحاربهم ، فلم يزالوا كذلك حتى ضاق أمرهم وأكلوا دوابّهم وسنانيرهم وكلابهم ، وأخذ الناس فى أكل لحوم الخيل ، فغلا الملح حتى انتهى : أوقية بدرهم ، واضطرب على عمر أمره ، وضّج أصحابه وساء ت آراؤهم ، فقال لمن معه من الجند : « قد كان أصابكم من الجهد أمر عظيم حتى قدمت عليكم ، ففرّج الله عنكم بعض ما كنتم فيه ، وقد تَرَونْ ما أنتم الآن فيه ، فإن شئتم خرجتم على ذراريهم وبلادهم وجعلت عليكم أى الرجلين شئتم : جميلاً أو المخارق ، وأخرجُ فى ناس من الجند فأُغيره على نواحيهم ونحتكر الميرة ؟ قالوا « قد رضينا » قال : « وكان أبو حاتم الإباضى فى ثلاثمائة ألف وخمسين ألفاً ؛ الخيل منها خمسة وثمانون ألفاً ، فلما هم بالخروج قالوا : « تريد أن تخرج أنت ونبقى نحن فى الحصار ! » ، فقال : « أقيم معكم اسرّح جميلا أو المخارق ومن أحببتم وأخرج أنا فى أُناس من الجند وأُغير على نواحيهم ؟ » ، قالوا « نعم » فلما جاء إلى باب المدينة قالوا : « تخرج أنت ونقيم نحن ، لا تفعل » فغضب عمر وقال : « والله لأوردنكم ونفسى حياضَ الموت » .

وجاءه وهو محصور كتاب خُليْدة بنت المعارك ، امرأته تخبره أن أمير المؤمنين استبطأه ، فبعث يزيد بن حاتم ، وهو قادم على إفريقية فى ستين ألفاً فقال : « لاخير فى الحياة بعد هذا ! » . قال خِداش بن عجلان : « فأَرسل إلى فجئته ، وقد قام عِرْق بين عينه وهو علامة غضبه ، فأقرأنى الكتاب فدمعتْ عيناى ، قال : « مالك ؟! » قلت : « وما عليك أن يقدم عليك رجل من أهلك فتخرج من هذا الحصار فترجع إلى أمير المؤمنين فيوليك خراسان ـ وكانت مُنْاه ، فقال : « تتحدث نسوة العتيك أنّ يزيداً أخرجنى من الحصار ، إنّما هى رقدة حتى أبعث للحساب ، ارجع إلى أهلك واحفظ وصّيتى » ، وكان قد كتب وصيتة . قال خِداش : فوصّى بها أحبّ ، وخرج من الغَدِ فلم يزل يطعن ويضرب

حتى قتل ، وذلك يوم السبت للنصف من ذى القعدة سنة أربع وخمسين ومائة ، وبايع الناس جميل بن حجر ، وكان أخا عمر لأمه ، فلما طال عليه الحصار دعاه ذلك إلى موادعة أبى الحاتم ، فصالحهم على أن جميلاً وأصحابه لا يخالفون طاعة سلطانهم ولا ينزعون سوادهم ، على أن كل دم أصابه الجند من البربر فهو هَدْر ، وعلى ألاّ يكرهوا أحداً من الخيل على بيع سلاحهم ودوابهم ، فأجابهم إلى ذلك أبو الحاتم ، ودخل معهم فى الشّرْط عمرو بن عثمان الفهرى على الوفاء بذلك ، ففتح جميل أبواب المدينة وخرج أكثر الجند إلى طُبنة ، وأحرق أبو حاتم أبواب المدينة وأفسد فى سورها وبلغه قدوم يزيد بن حاتم ، فتوجه إلى طرابلس واستخلف على القيروان عبد العزيز بن السمح المعافرى ، وبعث إليه أبو حاتم يأمره بأخذ سلاح الجند ، وأن لا يجتمع منهم اثنان فى مكان وأن يوجه إليه بهم واحداً بعد واحد . فاجتمعوا واستوثق بعضهم مع بعض بالأيمان ألاّ يرضَوْا بهذا وقَوِيت قلوبهم بيزيد بن حاتم ، فلقوا عمرو بن عثمان الفهرى ، فقالوا له : قد كنتم حلفتم لنا الوفاء بما اشترطنا عليكم وإنّ هؤلاء القوم قد غدروا بنا وأرادوا أخذ سلاحنا ليفرقوا بيننا وبينهم ، فقال لهم عمرو بن عثمان : « ليس يجمعنى من البربر خُلُق ولا دين » قالوا : « إمّا أنت فقد جامعتهم على قتل والى أمير المؤمنين عمر بن حفص وشيعته وأنصاره ، فهل لك بجنود أمير المؤمنين من طاقة أم تستطيع أن تحرز منهم دمك ونفسك ومالك وأهلك ، ولكن هل لك فى أمر تمحو به ذنوبك القديمة والحديثة ؟ » قال : « ما هو ؟ » قال : « تقوم بطاعة أمير المؤمنين معنا ، وتَنْتَقم على أبى حاتم غَدْره بنا » . قال : ففعل ذلك عمرو بن عثمان ، وتولى الأمر وقام به وقتل أصحاب أبا حاتم واتصل ذلك به ، فزحف إليه من طرابلس فلقيه عمرو بن عثمان ومن معه من الجند وغيرهم فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فقتل من البربر خلق كثير ومضى عمرو بن عثمان وأصحابه متوجهين نحو تونس ، ومضى جميل ابن حجر والجنيد بن سياق هاربين نحو المشرق وخرج أبو حاتم فى طلب عمرو بن عثمان، ووجه قائداً من قواده يقال له حريز بن مسعود المديونى على مقدمته ، فأدركه بجيجل من ناحية كُتامة ، فقاتلوه فقتل حريز بن مسعود وأصحابه وانصرف عمرو والمخارق

فدخـلاها ، ومضى أبو حـاتم إلى طرابلس حين بلغه قـدوم يزيـد بن حاتم ولحق جميل بن حجر وأصحابـه يزيد وهو بَسْرت وأقامـوا إلى أن لقيه أبو حاتم فقتله ، فيُقـال إنّه كان بين الجند والبربـر من لدن قاتلهم عمـرو بن حفص إلى انقضاء أمرهم ثـلاثمائة وخمساً وسبعين وقعة .

ولاية يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب

حاله فى جوده وكرمه وشجاعته وبعد صيتـه ونفاذ رأيه وتقدمه ، وعلم الخاصة والعامة به يغنى عن كثير من شرح أمره . وقدم إفريقية فأزال الفساد منها وأصلحها ورتب القيروان فى أسواقها وجعل كل صناعة فى مكانها وجدد بناء المسجد الجامع ، حتى لو قيل إنه الذى مصرها لم يبعد من الحق لو قدمها ، ولكنه حسنها وزاد فى قدرها وكان غاية فى الجود ، وهو القائل :

مـا يَألَفُ الـدِّرهَمُ المضْروُبُ خِـرقْتنَـا ... إلاّ لِمَامـــــاً قَلِيـــــلاً ثُمَّ ينْطَلِقُ

يَمُـــرُّ مَـــرّاً عليْهـــا ثُمَّ يَلْفُظُهَـــا ... إنِّى امْـرُؤٌ لَم تُحـالِـف خِـرقْتِى الوَرق

وكان يزيد كثير الشبـه بجده المهلب فى حروبه ودهائه وكرمـه وسخائه ، وكان له أولاد مذكورون مشهورون بالشجاعة والإقدام والكرم والأنعام فى أيام أبيهم وبعد وفاته بالمشرق ، لِمَا صاروا إليـه ، يقال : إن الذى أوقع من المهـب إلى الأرض ثلاثمائة من الذكـور والإناث بين من مات منهم ومن عـاش ، وورثه ثمانية عشر ذكراً سوى الإنـاث ، رئيسهم بعد أبيهم يزيد بن المهلب .

وذكر المدائنى : أن سـليمان بن عبد الملك الكـلبى قدم عليـه المهلب ، وقد ركب فى بنيه ، وقـال : سرَّ الله الإسلام بتلاحقكم ووالله لئن لم تكونوا أسباط نبـوء ة إنكم لأسباط ملحمة ، فقال المهـب : « لئن قلت ذلـــك ، فو الله ما ألقـــوا قط فى سواد إلا بيضوه

ولا بياض إلا سودوه » ويقال إن معاوية قال يوماً لأصحابه : « إنى رأيت فى منامى البارحة كأن رجلاً قـدم علىّ وافداً من العراق ، فلما مثّل بين يدى طـال حتى بلغ السماء » ، قال : فلما كان بعـد ثلاثـة أيام قدم عليـه المهلّب ، فقال معاويـة : « هذا الـرجل الذى رأيت فى منامى » .

قال ابن سـلام : وقدم الملهب على ابن الزبير بمكـة ، فخـلا به يشاوره ، فقـال له عبد الله بن صفوان : « يا أمير المؤمنين من الذى يشغلك يومك هذا ؟ » قال : « أما تعرفه ؟ » قال « لا » قال : « هذا سيد أهل العـراق » قال : « أهو المهلب » !؟ قال : « نعم » ، فقال المهلب : « من الذى يكلمك يا أمير المؤمنين ؟ » قـال : « سيد قريش » قال : « أهو عبد اللـه بن صفوان » قـال : « نعم » ، قال : وكـان يزيـد بن حاتم خـاصاً بأبـى جعفر المنصـور ، فكان لايحجب عنـه ، وتولى ولايـات كثيرة قبل قـدومه المغـرب ، منها أرمينيـة والسند ومصر وأذربيجـان ، وهو أحد من دبر معـه قتل يزيد بن عمـر بن هبيرة الفزارى ، وقـال : « أيها الأمير إنّ ابن هبيرة يأتى فيتضـعضع له العسـكر ومـا نقص من سلطانـه شىء ! » فدبـر معه أمره حتى قتله أبو جعفـر ، مع الذى كتب بينه وبينه وبعـث برأسه إلى أخيه أبى العباس ، فوضع بين يديه ثم التفت إلى إسحاق بن مشكم العقيلى ، فقال : « يا إسحاق ما أعظم رأس ابن عمك ! » قال : « طينـة عهدكم التى نزل بها من قصره وفرق بها جمعه كانت أعظم ! » فاحتملها أبو العباس ، وولى أبو الجعفر يزيد بن الحاتم مصر فى ذى الحجة سنة أربع وأربعين ومائة .

وكان أبو جعفر عـالماً بالمغرب خائفا عليه ، وكـان لا يبعث إليه إلا أهل ثقته من ذوى الرأى الأصيل والخطر الجليل ، قال يزيد بن حاتم : « لما ولانى المنصور مصر دخلت عليه ، وكنت لا أحجب عنه » فقـال لى : « يا أبا خـالد ، بـادر هذا النيل قبل خروج الـرايات الصُفـر وأصحـاب الـدواب البُتْر » قـال يـزيـد : ولمّا ولانى المغـرب انتهى فى تشييعى إلى فلسطين ، فحسدنى أقـوام منهم شبيب بن شيبة بن عقال ، ورفع إليه ابن شيبـة بن عقال كتـابـاً لم يأل فيـه من الحمل على والـذكر لمسـاوى وتخويفـه الغـوائل ، قـال : فأرسل إلى

فحضرت ، فرمـى إلىّ بالكتاب فقرأته وذهبت لأتكلّم ، فقال : « كفيت مؤونة الاحتجاج ، وقال لهما : « لولا أنى لم اتقدم إليكما لقتلتكما » قال يزيد : « فأخذت الكتاب وخرجت ، فجعلت الكتاب فى كتب كانت معى وقدمت إلى إفريقية فما لبث أن وجه إلَّى شيبة بن عقال فى بعض ما توجَّه الخلفاء فيه ، فبلغت فى برّة وإكرامه فوق ما أملَّه ، فلمَّا أراد الانصراف لم يكن قط إلاّ على المودَّة والمحبَّة ، فضربت بيدى إلى ذلك الكتاب فأخرجته ورميته إليه وقلت له : « ولا غرو كتبتَ هذا الكتاب ؟! » فسألنى الإقالة والتغمّد ، فقلت له : « لولا أنك تستغفلنى ما عرفّتك هذا » ، فسأل دَفْع الكتاب إليه ، فلم آمن أن يدفعه إلى أبى جعفر ، فأمرت به فخُرِق .

وكان يزيد بن حاتم حسن السيرة بإفريقية ، مذ جاء تفد الشعراء عليه لطلب صلته وإحسانه ، فأخَذُ من وفد عليه بإفريقية ربيعة بن ثابت الرَّقّى ، من أسد ، فمدحه بأشعار كثيرة ، منها قصيدته التى يمدحه فيها ويهجو يزيد بن أسيد السُّلمىّ ، التى أولها :

ألاَ طَـرَقَتْنَـا بـاللِّـوى أمُّ عـاصم	وَقَـدْ زَارَنَـا منْهَـا خَيَـالُ مُجَاشِمِ
أَلَمَّتْ بِـرَكْبٍ عَـرَّسُـوا بتَنُـوفَـةٍ	هَجُـوع لَدَى أعْصَـار خُوصٍ سَـوَاهم
وبتْنَـا كَـأنَّ المِسْكَ ببين رحـالَنَـا	يَفُـوح عَلَيْنَـا مِـنْ عُبَـاب اللَّطَـائم
وأنَّى اهْتَـدَتْ تَسْرى إلَيْنَـا غَـزِيـزَةٌ	مُخَضَّبَـةَ الأطْـراف رَيَّـا المَعَـاصم
فَقُلْتُ لَهَا إنِّـى شَغَـرْتُ بفتْيَـةٍ	نَشَـاوَى منَ الإدْلاَج مثْل النَّعَـائم
حَلَفْتُ يَمينـاً غَيْرَ ذى مَثْنَـويَّـةٍ	يَمينَ ا مْـرِء آلى وَلَيْسَ بـآثـم
لَشَتَّـان مَـا بَيْنَ اليَـزيـدَيْن فى النَّـدَى	يَـزِيـدُ سُلَيْم وَالأغَـرُ ابْـنُ حَـاتم
فَهَمُّ الفَتَى الأزْدىِّ اتْـلاَفُ مَـالـه	وَهَمُّ الفَتَـى القَيْسىِّ جَمْعُ الـدَّرَاهم
فَـلاَ يَحْسَـب التَّمتَـامُ أنِّى هَجَـوْتُـهُ	وَلَكِّننـى فَضَّلْـتُ أهْلَ المَكَـارم
أبَـا خَـالـدٍ أنتَ المُنَـوَّهُ بِاسْمـه	إذَا نَـزَلَتْ بـالنَّـاس إحْـدَى العَظَـائم
كُفيتَ اميرَ النَّـاس كُلَّ عظيمَـةٍ	وَكُنْتَ مِـنَ الإسْـلاَم خَيْرَ مُـزاحم

فصار قوله : « لشتّان ما بين اليزيـدين فى النّدى » مثلاً يُتمثّل به فى كل بلدة وناحيّة ، وكان وجب على ربيعة وقومه ديّات ، فقصد يزيد بن أسد ، فلم يحل منه بطائل ، ثم رحل إلى يزيـد بن حاتم ، وهو بـالقيروان ، فأعطاه عشرةَ ديّـات ، ووصله وأحسن إليه إحسـاناً عظيماً .

وفيما يـؤثر من الأخبـار : أن نخّاسـاً عرض على أحمد بن يزيـــد السُّلمى ، ابن هـذا المهجوّ ، جاريتَين ، فقال : « أيّهما أحسن ، هذه أو هذه ، » فقال : بينهما ـ أعز الله الأمير ـ ما قاله الشّاعر :

* لَشَتَّانَ مَابَيْنَ اليَزيدَيْن فى النَّدَى *

فقـال أحمد : « خذوا بيـد ابن الفاعلـة » ، فاغتمّ بما سمع ، وأنّ الشعـر قد سـار فى النـاس ، وأنّ الرجل تمثّل بـه ولم يدر فيمن قيـل ، وبلغ هذا الشعـر أبا الشَّمقْمق ، فقـال يمدح يزيد بن مزيد الشّيبانى :

لَشَتَّـانَ مَـا بَيْنَ اليـزيـدَيْن فى النَّـدَى ... إذَا عُـدّ فى النَّـاس المَكَـارمُ وَالَمجْـدُ
يَـزيـدُ بَنى شيبـانَ أكْـرَمُ منْهُمَا ... وَإنْ غَضبَتْ قيْسُ بنُ عَيْـلاَنَ وَالأزْدُ

كان أحمد بن يـزيد وأبـوه شريفين مذكـورين . قال أشجع السُّلمىّ فى علّـة اعتلّها ثم أفاق :

لَئنْ جَـرَحَتْ شَكَـاتُكَ كُـلَّ قَلْبٍ ... لَقَـدْ قَـرَّتْ بصَحَّتك العُيُـونُ
تَبيـتُ مـن الحَذَارِ بنـو سليـم ... عَلَيْـكَ وكلّهـم وَجـلٌ حَـزيـنُ
وحُقَّ لَهَا بـأنْ تَخْشَى المَنَـايَـا ... عليـك وأنـت مَنْكَبُهَـا اليَمينُ
ولـو فَقَـدَتْك قَيْسٌ يَـافَتَـاهَـا ... إذاً لَتَضَعْضعتْ منْهـا المُتُـونُ
وَلَـوْ أنَّ المَنُـونَ بَـدَتْ لقَيْسٍ ... لَما نَـالَتْكَ أوْيَفْنَـى المَنُـونُ

فلما مات أحمد بن يزيد رثاه أشجع السلميّ بشعر قال فيه :

رَحِمَ اللهُ أحْمَدَ بنَ يَزِيدِ ... رَحْمَةً تَغْتَدِى وأُخْرَى تَرُوحُ

جَبَلاً أطْبَقُوا عَلَيْهِ بجُرْجَا ... نَ ضَرِيحاً مَا ذا أجَنَّ الضَّرِيحُ

ولربيعة الرَّقِّى فى يزيد بن حاتم أشعارٌ كثيرة ، ويقال إنه لما مدحه بالقصيدة التى فضّله فيها على يزيد السّلميّ استبطأ برّه وصلته ، فقال :

أرَانى ـــ ولا كُفران لله ـــ رَاجعاً ... بخُفَّىْ حُنينٍ مِنْ يَزِيد بن حَاتم

فنمى ذلك حتى بلغ إلى يزيد ، فدعا به فلما دخل عليه قال :

« انتزعوا خفّيه ، فملأهما دراهم ودنانير ، وكانا كبيرين كأخفاف الجُند ، ثم وصله بعد ذلك بصلات كثيرة » .

واكثرت الشعراء من مدح يزيد وهو بالمشرق ، من ذلك قول ابن المولى ، وهو محمد بن عبد الله بن مسلم :

يَاوَاحِدَ العُرْبِ الَّذى دَانَتْ لَهُ ... قَحْطَانُ قَاطبَةً وَسَادَ نِزَارَا

إنِّى لأرْجُو إنْ لقيتُكَ سَالماً ... ألاَّ أُعَالِجَ بعْدَكَ الأسْفَارَا

رِشْتَ النَّدَى وَلقَدْ تَكَسَّرَ رِيشُهُ ... فَعَلَى النَّدَى فَوْقَ البِلاَد فَطَارَا

وفيه يقول أيضا :

وَإذَا تُبَاعُ كَرِيمَةٌ أَوْ تُشْتَرَى ... فسِوَاكَ بَائِعُهَا وَ أَنْتَ المُشْتَرِى

وَإذَا تَوَعَّرَتِ المَسَالِكُ لَمْ يَكُنْ ... مِنْهَا السَّبِيلُ إلى نَدَاكَ بِأَوْعَرِ

وَإذَا صَنَعْتَ صَنِيعَةً تَمَّمْتَهَا ... بِيَدَيْنِ لَيْسَ نَدَاهُمَا بِمُكَدِّرِ

وَإذَا القَبَائِلُ عُدِّدَتْ كُرَمَاؤُهَا ... كُنْتَ المُقَدَّمَ فِيهِمْ بِالخِنْصَرِ

يَا وَاحِدَ العُرْبِ الَّذِى مَا إنْ لَهُمْ ... مِنْ مَذْهَبٍ عَنْهُ وَلاَ مِنْ مَعْشَرِ

وفيه يقول أيضا :

يَــا وَاحِــدَ العُــــرْبِ الَّــذى أضحـى وليـس لـــــه نظيرْ
لَـــوْ كَـــانَ مـــثْلُكَ ثَـــانِيًـــا مـــاكـــان فى الـــدنيـــا فقيرْ

حكَى الزبير بن بكّار عمن حدّثه عن ابن المولى قـال : كنت أمدح يزيد بن حاتم من غير أن أعرفه ولا ألقاه ، فلما ولاّه المنصور مصر أخذ على طريق المدينة ، فأُنشَدْته منذ خرج من مسجـد رسـول اللـه - صلى اللـه عليـه وسلم - إلى أن صـار إلى مسجـد الصَّخـرة ، فأَعطانى رزمتين ثيـاباً وعشرة آلاف درهم ، فاشتريت بها ضياعا تغـلّ ألف دينار ، أقوم فى أدناها فأصبح أغنى أغنى ، فلا يسمعنى من هو فى أقصاها .

ومن أخبار يزيد بالقيروان ، ما حكـاه ابن النِّخلى الفقيه ، قال : كان لإسحاق(أ) بن مكرم الأشعـرى ، وهو ابن أبى المنهال ، من يـــزيد بن حـــاتم خـاصّةٌ لم تكن لغيره ، ولم يكن قدم معـه ، ولكن أتى بعد مســـتقرّه ، فخـــدم يزيـــد لثقته به وعلمـــه بديـانته ، وكان عالماً أديباً راوية لاشــعار العرب وأخبارها ، وكان قريبـاً من يـــزيد ، فقال له يزيد ليلةً : «يا أبا العياقيب ، فيمن قيل هذا الشعر » :

إنّ العَــرَانِينَ تَلْقَـــاهَـــا مُحَسَّـــدَةً وَلَنْ تَـــرَى لِلِئَـــامِ النَّـــاسَ حُسَّـــادَا

قال : « يقوله بعض مادحيكم فيكم » وأنشده القصيدة كلّها . فقال يزيد : « يا غلام علىّ بخمسمائة دينار لأبى العياقيـب » قال : « كأنى قائلها » قـال : « سبحان الله ، تحفظ مكارمنا وننام عنها ولا نكافيك على ذلك ! » .

وكان سُحنون بن سعيد - رحمه الله - يقول : كان يزيد بن حاتم يقول : « والله الذى لا إله إلاّ هو ما هِبت شيئاً قطّ هيبتى رجلاً واحـداً يزعم أنى ظلمته ، وأنا أعلم أن لا ناصر إلاّ الله » .

قال : ومن أخبـاره المشهورة بإفريقيـة أنّ بعض وكلائه أتاه يومـاً فقــال : « أعـز الله الأمير ، أعطيت فى الفول الـذى زرعناه فى فحص القيروان كذا وكذا ، وذكـر مالاً جليلاً ، فسكت عنه وأمر قهـرمانة وطبّاخـه أن يخرجا إلى ذلك الموضع وأمر فرّاشيـه أن يضربوا فيه ، مضارب كثيرة ، وخرج مع أصحابه فتنزّه فيه وأطعم ، فلمّا أراد الانصراف دعا بالوكيل وأمر بأَدَبه ، وقال : « يا بن اللّخناء ، أردتَ أن أُعيرّ بالبصرة ، فيقـال : يزيدُ بن حاتـم باقلاّنى أمثلى يبيع الفول - لا أم لك - ؟ » ثـم أمر بإباحته ، فنادى فى أهل القيروان بـالخروج إليه ، فخرج إليه الناس ، فمِن بين آكل وشارب ومتنزه حتى أتوا على آخره .

ومن مشهور أخبـاره : أنه خرج من القيروان يومـاً متنزهاً إلى مُنية الخيل ، وهـو الذى حفر البئر العـذبة وبناها ، وجعل خيلـه هناك فى اصطبلات ، أمر ببنائهـا فى هذه المنية ، فبذلك سميت « منية الخيل » .

ونظر يوماً فى طريقه إلى غنَم كثيرة ، فقال : « لمن هذا الغنم ؟ » ، فقالوا : « لإسحاق ابنك » ، فدعـا به ، فقـال : « الك هذه الغنم ؟ » قـال : « نعم » ، قال : « لِمَ أردتها ؟ » قال : « آكلُ من خرافها ، وأشرب من ألبـانها ، وانتفع بأصوافها » قال : « فإذا كنت أنت تفعل هـذا ، فما بينك وبين الغنّـامين والجّزارين فَرْقٌ » ، وأمــــر بالغنـم أن تذبح وتبـاح للناس ، فانتهبوهـا وذبحوها وأكلوا لحمها ، وجعلوا جلودهـا على كُدية ، فهى تعرف من ذلك الوقت إلى اليوم « بكدية الجلود » .

وحضر عبد اللـه بن الفروخ الفقيـه جنازة فى باب نـافع ، فرأى إسحـاق بن يزيـد قد أغـــرى كـلابه على ظبى ليضـريها الصّيــد فنهشته ومـزقّت جلده ، فلمّا انصرف استوقفه ابن فرّوخ ، فوقف له إسحاق ، فما كنّاه ابن فرّوخ ولا زاد أن قال له : « يا فتى ، أنّى رأيتك تغرى كـلابك آنفا ببهيمة ، ومـا أُحب ذلك » ، قال لـه إسحاق : « صدقت أبـا محمد ، جزاك الله خيراً » ولم يـزل لديه مكيناً معظماً عنده ، ثم قال لـه : « والله لا فعلتُ ذلك بعد يومى هذا أبداً » .

وكان سبب قـدومه إفريقيـة أنّه اتّصل بأبى جعفر المنصـور : أن عمر بن حفص قتل

عَمّه ذلك وشغله ، وأُخبِر بفساد البلد وكثرة اجتماع البربر وصنيعهم بجنده ، رأى أن يوجّه يزيد لعلمه بقيامه وحزمـه ونكايته ، ولأن عمر بن حفص عمّه ، فهو لا يألو فى طلب ثأره فوّجه إليهم فى ثلاثين الفاً من خراسـان وستين ألفاً من أهل البصرة والكوفة والشام ، وأقبل حتى صار فى ناحية سرت ، فاجتمع بجميل بن صخـر وبمن معه من الجند القادمين عليه من القيروان ، وسار نحـو طرابلس ، فسار أبو حـاتم إلى جبال نفّوسة ، وجعل يـزيد على مقّدمته سالم بن سوادة التميمى ، وأمر شبيبـة بن حسان أن يسير نحو قابس ، وتقدم سالم فالتقى هو وأبو حـاتم ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فانهزم سالم وأصحـابه ، فرجعوا إلى عسكر يزيد ، وهال أبو حاتم أمر يزيد ، فطلب له عزّ المنازل وأوسعها ، فعسكر فيها وخندق على عسكره ، فأتاه يزيد مـن ناحية الخندق ، وأصبـح يزيد فعبأ عساكـره وأصحابه ، وترجّل أبو حـاتم فى أهل البصائر من أصحـابه ، ثم التقـوا فاقتتلـوا قتالاً شـديداً ، فأراد يزيـــد الحملة ، فنزل إليـه المهلّب بن المغيرة ، فأخذ بلجام فرسه ، فرفع السَّـوط ليضربه ، فشـد يزيد على يد المهلّب ، فقـال : « والله لو قطعتها ما تركتك ، أنـا أعلم بقتال القوم منك ، فمُرْ بعض ولـدك أن يحمل ، فإنّ للبربر حملة لا تطـاق ، ثم احمل أنت بعده ، إذا شئت » فأمر ابنـه عبد الله فحَمَل ، فرد البربـر ، ثم قال : « احمل أنت الآن » فحمـــل ، فقـــتل أبو حـاتم فى أهل البصـائر من أصحابـه ، وانهزم الباقون وطلبهـم يزيد ، فقتلهـم ، قتلاً زريعاً ، وبعث خيلـه فى طلبهم إلى كل ناحية ، فكـانت عدة من قتل منهم ثـلاثين ألفاً ، ويقال : إنه لم يقتِل من الجند إلاّ ثلاثة رهط .

وكان ذلـك يوم الاثنين لثلاث بقين مـن شهر ربيع الأول سنـة خمس وخمسين ومائة . وجعل آل المهلّب يقتلون البربـر ، ويقومـون بالثارات فى عمـر بن حفص ، ثم أقام يـزيد بمكانـه ذلك نحوا من شهر وبثّ خيـوله فى طلب الخوارج ، فقتلهم فى كل سهل وجبل . ثم رحل حتى نزل قابس ، وكان قد كتب إلى المخارق بن غفار بالقيام بأمر القيروان فدخلها لعشر بقين من جمادى الآخرة من هذه السنة . ومات أبو جعفر المنصور بعد دخول يزيد بن حاتم القيروان بثلاث سنين وخمسة أشهر وسبعة عشر يوماً .

وبعث يزيد بن حاتم المخارق إلى آخر الزّاب ، فنزل طبنة ، وكان عبد الرحمن بن حبيب بن عبد الرحمن الفهرى مع أبى حاتم ، فهرب حتى أتى كُتامة ، فنزل بجيجل ، فكتب يزيد إلى المخارق بالمسير إليه ، فسار حتى نزل بكتامة ، وضمّ إليه يزيد قوّاداً من أهل خراسان وأهل الشام ، فأقام المخارق محاصراً له ثمانية أشهر ، فبعث يزيد العلاء بن يزيد المهلّبى ، فصار حتى دخل القلعة التى بها عبد الرحمن من موضع غير الموضع الذى نزل به المُخارق ، ودخل المخارق من ناحيته التى كان بها ، فهرب عبد الرحمن وقتل جميع من كان معه ، وانصرف العلاء إلى القيروان والمخارق إلى طُبنة ، وهرب البربر فى كل ناحية ، وخافوا خوفاً شديداً . فلم يزل البلد هادئاً فى أيامه إلى أن بلغه انتفاض أمر ورفجومة ، فأرسل إليهم ابن مجزأة المهلبىّ ، فالتقوا ، وعلى البربر رجل يقال له أبو زرجونة الورفجومى . ولمّا التقوا انكشف الجند ولم يناصحوا ، فقتل منهم . وقد كان يزيد عزل المخارق عن الزّاب ، وولىّ مكانه المهلّب بن يزيد ، فكتب المهلّب إلى أبيه يستأذنه فى الخروج إلى ورفجومة ، فأمره أن يثبت حتى يأتيه أمره ، فوجه إليه يزيد العلاء بن سعيد بن مروان المهلّبى ، وكتب إلى المهلّب ابنه ، وهو على طبنَة وكتامة وما يليها ، أن يستخلف على عمله من يثق به وينضم إلى العلاء ، وكانت ورفجومة تقول : إنّما كان أمر يزيد بن مجزّاة أملاً كاذباً ، ثم التقوا وانهزم البربر وقتلوا قتلاً زريعاً ، وطُلبوا بكلّ سهل وجبل ، حتى أتى على آخرهم ولم يُصب من الجند أحد ، وأقبلوا إلى يزيد بالقيروان فولى العلاء على طرابلس وعزل ابنه المهلّب عن الزّاب وكتامة ، واستعمل على الزّاب وكتامة ابنه محمد بن يزيد .

وبنى يزيد المسجد الأعظم بالقيروان وجدّده ، سنة سبع وخمسين ومائة ، وأقام والأمور مستقيمة والبلاد هادئة ، ثم توفّى يزيد فى شهر رمضان سنة سبعين ومائة ، فى سلطان هارون الرشيد ، وكانت وفاته بدار الإمارة التى كانت بالموضع المعروف برحبة التمر ، وقيل توفّى بمنية الخيل ، مما يلى باب سالم ، وكان سمى له البصرة ، فولّى عليها غيره .

أخبار القضاة فى أيامه

كان عبـد الرحمن بن زياد بن أنعم من جلّـة المحدّثين والعلماء المتقدّمين ، منسـوباً إلى الزّهد والورع ، متفنِّنـاً فى علم العربيّة والشّعر ، وكان يروى عن أبيـه أبى أيوب الأنصارىّ وعبـد الله بن عبـاس وعبد اللـه بن عمـر ، ويروى هـو عن سفيـان الثّورى وأبى يـوسف القـــاضى وكثير غيرهـــم . ووِلِىَ القضـــاء بإفريقيـــة ، الأولى فى أيام بنـــى أميّة ، وولاّه مروان بـن محمد ، ولمّا قدم على أبـى جعفر مستنصراً على البربر ولاّه القضـاء ، فبقى إلى أن توفى فى أيام يزيد بن حاتم .

وكان عبـد الرحمن قد أسره الـروم ، ومضوا به إلى القسطنطينيـة ، ثـم أفتك فيمن أفتك من الأُسارى فى ناحيَة المشرق ، فكان يقول :

أُسرت أنا وجماعـة معى ، فرُفعنـا إلى الطاغيّـة ، فبينما نحن فى حَبْسِه إذ غشيّـه عيدٌ ، فبعث إلينا بأصنـاف من الطعام ، واتصل ذلك بامـرأة الملك ، وكانت تقيّة عنـده فمزقت ثيابها ، ونشرت شعرها وخمشت وجهها . وأقبلت إليـه تقطر سما ، وقالت : « العرب قتلت أبى وأخى وزوجى ، وأنت تفعل بهم الـذى رأيت ! » فغضب وقـال : « علىّ بهم » فصرنـا بين يديـه سماطين ، فأمر سيّـافه ، فضرب عنق رجل رجـل منّا ، حتى قُرب الأمـر منى ، فحـركت شفتىّ وقلت : « اللـه ربى لا أشركُ بـه شيئـاً ، فأبصر فعلى » فقـال : « قـدمـوا شمّـــاس العـرب – يريد عـالمها – ، فـقـــال لـى : « نبينا ـ عـليه السـلام ـ أمـرنا بـهـا » قال : « وعيسى فى الإنجيل » وأطلقنى ومن معى .

ودخل يوماً على أبى جعفر ، فقال له : « يـا بن أنعم ، ألا تحمد الله الذى أراحك مما كنت فيه بباب مروان بن محمد » قال : « إمّـا ما كنت أرى بباب مروان لا أرى اليوم شطره » قال : « فبكى لها أبو جعفر » ، قـال : « فما منعك أن ترفع ذلك إلينا وأنت تعلم أن قولك عندنا مقبـــول» ، قال : «إنى رأيت للســلطان سوقاً وإنّما يرفع إلى كل سوق ما ينفق فيها » قال : « فبكى لها أبو جعفر » ثم رفع رأسه وقال : « كأنـــك كرهـــت صـــحبتنا ! » ،

قال : « ما يُدرك المال والشرف إلا فى صحبتك ، ولكننى تركت عجوزاً وأريد مطالعتها » ، وكتب عهده على قضاء القيروان ، وقال : « اذهب فقد أذنّا لك » .

وقال عيسى ، ولىّ عهد المنصور ، لعبد الرحمن بن زياد يوماً : « ما يمنعك من إتياننا ؟ » قال : « وما أصنع عندك إن أتيتك ، إن أدنيْتنى قتلتنى وإن أقصيتنى أخزيتنى ، وليس عندك ما أرجوه ولا عندى ما أخافك عليه » .

قال أبو عثمان المعافرى : كنت يوماً عند عبد الرحمن بن زياد بن أنعم ، قاضى إفريقية ، وهو يتنفّس الصّعداء ، والكآبة ظاهرة عليه ، حتى أتاه شاب معه مخلاة فأسرَّ إليه كلاماً فأسفر وجهه وتبسّم ، وقال لغلامه : « جئنا بالفول الذى طبخوه البارحة لنا » ، فجاءه به ، فقال : « تقرّبْ » ، قال أبو عثمان : فقلت : « لا أفعل » قال : « ولم يا أبا عثمان ، أظننت ظَنّاً ؟ » ، قلت له : « نعم » ، قال : « أحسب ياأبا عثمان أنك قلت إذا رأيت هذه الهدية دخلت دار القاضى : فأعلم أن الأمانة قد خرجت من كوّة داره ، وليس هو هديّة » قال : فقلت له : « إنّى كنت رأيتك مغموماً فلمّا أتاك هذا الطّعام انطلقتَ وأسفر وجهك » ، فقال لى : « إنّى أصبحت وقد بَعُد عهدى بالمصائب ، فخفْت أن أكون قد سقطت من عين الله ، فلمّا أتانى هذا الغلام ذكر لى أن أكفأ عبيدى وأقومهم بضيعتى توفى ، فزال عنى الهمّ والغمّ واسترحت .

وكان ابن أنعم يقول : « لكل شىء آفة تستعبده ، وآفة العبادة الرّياء ، وآفة الحلم الذّل ، وآفة الحياء الغضب وآفة اللّب الإعجاب ، وآفة الظّرف الصّلَف ، وآفة العلم النسيان ، وآفة الجود السّرف » .

وأقام عبد الرحمن بن زياد بن أنعم قاضياً على إفريقية المرة الثانية إمارة ابن الأشعث والأغلب بن سالم وعمر بن حفص حتى قدم يزيد بن حاتم فأقام مدّة ثم انعزل ، وكان فيما روى عن سليمان بن عمران قال : كانت امرأة تدخل إلى نساء يزيد بن حاتم ، وكان لها خصومة عند عبد الرحمن ، فكتب لها كتاب حكم ، وختمه ، وأعطاها إياه فأخذته ودخلت به إلى دار يزيد بن حاتم ، فقال لها : « ماهذا ؟ » فأعلمته ، فأخذه وفضّ خاتمه

وقرأه ، وصاحت فقال لها : « لا عليك ، أنا أبعث به إليه يختمه » ثم بعثه إليه فقال : « ما أختمه حتى تعيد البيّنة مـرة أخرى (فردّه عليه ثانية ليختمـه فأبى » ، فقال : « ما أفعل » فلما ولىّ رسول يـزيد أخذ عبد الـرحمن خاتمه فكسره وأخذ جلـده ، وقال : « والله لا أحكم بين اثنين أبداً » ، قـال : « فولّى يـزيد بعـده ابن الطُّفيل التُّجيبى ، وكان يسكـن فى سوق اليهود فى الـدّرب المعروف إلى اليوم بابن الطّفيل ، وكـان يركب إلى دار عبد الـرحمن بن زياد يشاوره فى أمـره ، وكان يقـرع الباب » ، فيقـول الخادم : « من أنت ؟ » فيقول لـه : « قل لمولاك هذا الذى عزلك » وكان ربّما حضره الطعام فيأْكل معه ابن الطفيل ، ويركب حماراً له حتى يأْتى المسجـد الجامع ، فينزل ويجلس ، ويخلّى الحمار فينطلق الحمار يريدُ دار يـزيد بن الطّفيل بغير قـائدٍ ولا سائق ، فيأكل مـا يلقى فى الأزقة من حشيش وبقل ، وهـو فى ذلك يمشى حتى يأتى دار ابن الطُّفيل ، فيـؤخذ فُيـدْخَل ، فإذا كان الـوقت الذى يعلمـون أنه ينصرف ، اسرجوا الحمار فيذهب حتى يأتى الجامع فيخرج فيركبه وينصرف .

قال سليمان : ثم عزل يزيد بن حاتم بنَ الطُّفيل ، وذلك أنه رفع إليه أنه رفَع كتبه عند رجل من البَزّازين ، فقال له : « لم فعلت هذا ؟ » ، فقال له : « إنّها مختومة وأنا أحفـظ ما فيها » ، فقال له : « وإنْ كان ، فليس هذا من سيَر القضاة » وعزله . قال سليمان : وكان سبب وفاة عبـد الرحمن بن زياد أنه أكل عنـد يزيد بن حـاتم سمكـاً وشرب لبناً ، وذلك فى الليل ثم انصرف ، وكان يحيـى الطَّبيب حاضراً ، وكان عبـد الرحمن قـد جاوز السبعين ، فقال يحيـى : « إن كان الطبُّ حقـاً ، فإنَّ الشيخ يهلك » ، وكان يـزيد فى عليّـة له فى دار الإمارة ، إذ سمع بكـاء فى الليل ، فقال : « ينبغى أن يكـون هذا البُكاء على عبـد الرحمن » فكان كذلك ، فُلج فمات ، ووقف يـزيد بن حاتم خارجاً من باب نـافع ينتظر الجنازة فلمّا أقبلتْ ، ونظر إلى جماعة النّاس وكثرتهم وازْدحامهم تمثّل بهذ البيت :

يَـاكَعْبُ مَـارَاحَ منْ قَـوْمٍ ولاَ ٱبْتَكَـرُوا   إلاَّ وَلِلْمَـوْت فى آثَـارِهمْ حَـادى

ولاية داود بن يزيد بن حاتم

واستخلف يزيد فى مرضه داود ابنه ، فانتفض عليه أمر البربر . . . . صالح بن نصير فى الإباضّية فلقَيه . . . بباجة فهزموه وقتلوا من أصحابه جماعة فوجه إليهم داود سليمان بن الصمَّة بن يزيد بن حبيب بن المهلّب فى عشرة آلاف ، فهرب البربر فتبعهم فقتل منهم أكثر من عشرة آلاف وسلم الجند ، وهرب صالح بن نصير فأنضم إليه جماعة من مشيخة أهل البصائر من البربر ، ممن لم يكن شهد الوقعة الأولى بشقبنّاريّة من كورة الأُربس ، فزحف إليهم سليمان بن الصمّة فلقّيهم فقتلهم وقتل أهل البصائر منهم ، ولم يصب من الجند أحد ، وانصرف إلى القيروان ، وكان داود جعل على شرطته خالد بن بشير ، وولىَّ على الزّاب المهلَّب بن يزيد .

وأقام داود والياً على إفريقية إلى أن قدم عمّه روْحْ أميراً على المغرب ، فكانت ولاية داود سبعة أشهر ونصف شهر . وسار داود إلى المشْرق فكان أجلّ قائد عند الرّشيد ، وولاّه ولايات كثيرة ، وولىَ مصر سنة أربع وسبعين ومائة ، ثم ولاّه السند ، فمات بها وهو أمير عليها ، ومدحه الشعراء وذكرتْ مناقبه وأفعاله ، فمن ذلك قول مسلم بن الوليد الأنصارى :

لاَتَدْعُ بى الشوقَ إنىِّ غَيْرُ مَعْمُود ... نَهَى النُّهَى عَنْ هَوَى الهيف الرَّعاديد

وهى من القصائد المختارة لحسن ألفاظها وبديع معانيها ، يقول فيها :

اللهُ أطْفَأَ نَارَ الحَرْب إذ سُعِرَتْ ... شَرْقاً بِمُوقِدهَا فى الغَرْب داوُد

دَاوَيْتَ منْ دَائهَا كَرْمَانَ وَانْتَصَفَتْ ... بِكَ المُنُونُ لأقْوَامٍ مُجَاهيد

خَلىَّ بهَا فَزَعاً أخْلىَ مَعَاقلَهَا ... منْ كُلِّ أبْلَخَ سَامى الطَّرْف صنْديد

ولاية روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب

ثم وجه هارون الرشيد رَوْح بن حاتم إلى المغرب ، وكان أكبر سنًّا من يزيد وأكثر ولايات بالمشرق ، وحجب أبا جعفر المنصور فى أول أيّامه ، ثم ولاّه البصرة ، ووَلِىَ الكوفة فى أيّام محمد المهدى ، وولىَ السند وطبرستان وفلسطين وولايات كثيرة .

روى عن عبد الله بن عمر بن غانم القاضى أنه قال : حدّثنى الأمير رَوْح بن حاتم ، قال : « كنت عاملاً لهارون الرشيد على فلسطين ثم صرفنى عنها ، فخرجت منها أريد بغداد ، فوافق موت أخى يزيد ، فأرسل إلىّ هارون فلمّا دخلت عليه قال لى : « يارَوْح ، أحسن الله عزاءك فى أخيك يزيد فقد توفّى ، ولا أشك أنّ له صنائع بإفريقّية ، فإن ولى مكانه غيرك لم آمن عليهم من عدو يتشفَّى منهم ، ولكن أُخرج من فورك إلى إفريقيّة » ، ويقال إن روح بن حاتم بعث إلى كاتب له بثلاثين ألف درهم ووقّع إليه : قد بعثتُ إليك بثلاثين ألف درهم ، لا استقلُّها لك تكبيراً ولا استكثرها لك تمنُّناً ، ولا استثنيك عليها ثناء ، ولا أقطع عنك بها رجاء ، والسلام .

وكانت فى روح عصبيّة ، قال خداش بن عجلان : قال لى روح بن حاتم : « رأيت إنساناً يطوف بالبيت وهو يقول : اللهم اغفر لى ولا تغفر لأمى ، قلت : « ولم ويحك ؟! » قال : هى من الأزد والرجل رَوْح » .

ومما يؤثر من :

أخبار روح بإفريقية

إنه أتى برجل من موالى نهشل ، فكان يتلصّص ما بين برقة ومصر ، فأمر بضرب عنقه ، فقال له : « أيها الأمير ، إنّ لى عليك يداً » قال : « وماهى ؟ » قال : « إنك جئت إلى مجلس قومى وهو محتفلٌ ، فلم يتحفّز لك أحدٌ منهم ، فقمت لك من مكانى حتى جلستَ فيه ، ولولا كريم مَحْتدكَ وشرف مجدك ونباهة ذكرك ما ذكّرتك هذا عند مثل هذه

الحال » فقال روح : « يدٌ والله » ، وأمر بتخليته ، وولاّه على تلك النّاحية ووصله وأخرجه إليها .

وجلس يوماً فى قصره ينظر من علّية مع جاريّته طَلّة الفندهاريّة ، وكانت حظيّة عنده لجمالها وحسنها وأدبها وعلمها ، فطلع خادم له وبيده قادوس فيه ورد أحمر وأبيض فى غير زمان الورد ، فاستظرفه وسأله عن أمره ، فأعلمه أن رجلاً أتى به هديّة إليه ، فأمره أن يجعل فى طبق بين يديه ، وأمر أن يملأ له القادوس دراهم . فقالت له طَلّة : « ما أنصفته » قال : « ولم ؟ » قالت : « لأنه أتى به ملوّناً أحمر وأبيض ، فلوِّنْه له » ، فأمر أن يخلط له دنانير ودراهم ويدفع إليه .

قال : وكان وصوله إلى القيروان فى رجب سنة إحدى وسبعين ومائة ، وكان شيخاً حازماً قد حَلب الدّهر أشطره ، وذهب أكثر عمره فى إمارة يدُيرها أو حرب يُسْرها ، فلمّا وصل أقرّ العلاء بن سعيد على طرابلس ، وعزل المهَّلب بن يزيد على طُنْبَة ، واستعمل عليها ابنه الفضل بنَ روح ، واستعمل على تونس الجنيد بن سيّار ، ثم عزله واستعمل عليها إسحاق بن يزيد بن حاتم ، وكان وصوله فى خمسمائة فارس من الجند ثم لحقه ابنه قَبِيْصة فى ألف وخمسمائة فارس ، فولاّه أبوه برقة ، فمن يوم مات روح عُزلت برقة عن عمل إفريقيّة ، ولم تزل البلاد معه هادئة والسُبل آمنة ، ورغب فى موادعة عبد الوهّاب بن رستم الإباضى صاحب تيهرت وهو الذى تنسب إليه الوَهبيَّةُ ، فلبث روح والأحوال حسنة مستقيمة إلى أن توفّ لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة أربع وسبعين ومائة ، فكانت ولايته ثلاث سنين وثلاثة أشهر ، وكان له أولاد مذكورون منهم الفضل وقبيصة ، وكان أبوه ولاّه برقة ، وفيه يقول أبو عيينة المهلبى ابن عمه :

أَقُبَيْصُ لَسْتَ وَلَوْ عُرَضْتَ ببَالِغٍ ... سَعْىَ ابن عَمِّكَ ذى النَّدَى دَاوُد
دَاوُدُ مَحْمُودٌ وَأنْتَ مُذَمَّمٌ ... عَجَباً لِذَلِكَ وَأنْتُمَا مِنْ عُود

ومنهم بشر بن رَوْح ، وكان قد رجع . . . وصار على شُرطة علىّ بن المهدى ، وأمُّ علىّ ريطةُ بنت أبى العبّاس السفّاح ، وكان المهدى ولىّ موسى العهد بعده ثم هارون من

بعد موسى ثم علياً من بعد هارون . فلمّا صار الأمر إلى الرشيد خلع علىّ بن المهدى وعوّضه من ذلك عشرين ألف ألف درهم ، وكان متولى القضاء لروح رجل من أهل تونس ، يقال له العلاء بن عُقبة ، وكان صالحاً ورعاً ، فحكم لرجل من أهل باجة بحكم ففضّه روح ووقف عليه ، وبلغ ذلك العلاء ، فقام من المسجد فبعث روح ورائه ، فالتمسوه فلم يوجد فى داره ولا موضع قضائه ، فلقيه يوم ومعه جلده ودرّته وهو سائر إلى تونس ، فبعث روح إلى عبد الله بن فرّوخ ليولّيه القضاء ، فأبى وامتنع ، فأجبره وأمر من يقعده فى الجامع ، فأقعدوه ودعوا بالخصوم ، فتقدّم إليه خصمان فقال لهما : « أناشدُ كما الله أن تكونا أشأم رجلين علىّ » ، فقاما ، فلم ييأس منه وعرض عليه ، فأبى ثم قال له : « أشر علّى » فأبى ، فأمر روح أن يصعد به إلى بعض السطوح ، وقال : « إن أشار وإلاّ ألقوه إلى الأرض » فقال : « هذا الفتى عبد الله بن عمر بن غانم كانت لنا معه صحبة » . فكأنه أومأ نحوه . قال : فولى روح القضاء عبد الله بن عمر بن غانم ، وكان لا يجيب مشيره فى الخصومات ، فيأبى ويقول : لم أتقلّد هذا قاضياً أتقلّده مستشاراً ! » ، وكان هذا سبب خروجه إلى مصر ، وبها توفى .

وكان عبد الله بن عمر بن غانم فقيهاً ورعاً عالماً مقدّماً مع فصاحة لسان وحُسْن بيان ، وَبَصر بالعربية ورواية للشّعر وكان قائلاً له حسَن العلم به ، وهو أحد القضاة الذين يفخر بهم أهل إفريقية ، وأقام على القضاء نحواً من عشرين سنة ، وكان قد رحَل إلى مالك بن أنس ـ رحمه الله ـ وسفيان الثّورى وأبى يوسف القاضى وغيرهم . وكان يقول : « دخلنا على سفيان الثّورى ، فقال : ليقرأ علىّ أفصحكم لساناً ، فإنّى لا سمع اللّحنة فيتغّير لها قلبى » فقرأت عليه إلى أن فارقته ، فما ردَّ علىَّ حرفاً واحداً . . . . فنظرت فى حاجات وخرجت إلى . . . . فخرج هارون يشيّعنى ثم ودّعنى ثم لحقنى وصاح : ياروح ، لا تنزل ولا ترجع . . . وأنا مقيم ثم سايرنى ، فقال : غليك بالزّاب املأه خيلاً ورَجْلاً ، وكان ذا رأى وحزم وعلم مع شجاعة وجود وصرامة ، وهو أنبه ذكراً بالمشرق من يزيد ، ويزيد أكثر أخباراً منهم بإفريقيّة لطول مقامه بها ، ويقال إنّ المنصور وجّه يزيد إلى إفريقيّة لمّا انتقضت عليه بقتل عمر بن حفص ، وبعث روحاً إلى السند ،

فقيل له : « يأمير المؤمنين ، لقـد باعدتَ بين قُـرْبِهما » فتوفيّ يزيـد بالقيروان ودُفن فى مقبرة باب سـالم ، ثم وجّه هـارون إلى إفريقيـة روح ، فمات ودفن إلى جانبـه ، فقبرهما فى موضع واحد عليهما سارِيّة مكتُوبة فيها أسماؤهما ، وقد ذهب ما كان على قبرهما من بناء ، لأنّ بنى الأغلب هـدمـوا مـا كـان على قبريهما ، ومنهـا الأعمـدة التى تحت مصلىَّ العيـد ، وأكثر النـــاس يعرفون قبريهما ويقفون عليهما للعظــة بما كانـا فيــه من السُّلطان والقدرة . ولمّا أن هُـزم عبـد الله ابن علىّ ، عمُّ أبى جعفـر ، صـار إلى البصرة إلى أخيـه سليمان بن على ، فأخفاه عنـده ، فعزل أبو جعفـر عمّه سليمان عن البصرة وولّى عليها سليمان بن يـزيد بن المهلّب وصيّره مع روح بن حاتم فى سبعة آلاف . . . . البصرة حتى يظفـر بعمّه عبد الله بن على ، وأمـرهما أن يخـ . . . سفيان يـلاطف آل سليمان ويـدخل عليهم ويـؤنسهـم إلى أن دخل يوم ، فقالـــوا له : « سلّم على شيخ بنى هـاشم » قال : « ومن هـو ؟ » قالـــوا : « عبد الله بن على» فسلَّمَ عليه وصافحه وأمسك بيده ، فقال له : « خلِّ عن يدى » فقال : « ولا والله لا خلَّيْت عن يـدك حتى ترى وجـه أبى جعفـر » فقالـوا إليـه ليخلّصوه منـه ، واتّصل الخبر بـروح فجاء بأصحـابه وأحاط بـالقصر وهو يقـول : « لئن نال سفيـان منكم مكروه لا يستقـرّ بكم القصر » . فوصل إلى أبى جعفر على يـدى روح ، وتـــوفى عيـــسى ابـن مـوسى ولىُّ عهد المنصـور بالكـوفة سنـة سبع وستين ومائة ، وعلى الكوفـــة روح بن حاتم ، فأشهد على وفاته القاضى والوجوه لمكانه من دولة المنصور ، ونظر رجل إلى روح بن حاتم واقفاً فى الشمس عند باب المنصـــور ، فقال له : « لقد طال وقوفك فى الشمس ! » فقال لى روح : « ليطول مقامى فى الظل » .

ومات ابن لروح فدخل عليه أصحابـه ، وهو ذكىّ البال ضاحك السنّ ، فتوقّفوا عن تعزيّته ، فعرف ذلك منهم ، فأنشأ يقول :

وَإنَّـــا أُنَـــاسٌ لاَتَفيـضُ دُمُـــوُعنَـــا عَلىَ هَـــالك مِنَّـا وَلَــوْ قَصَم الظهَّـــرا

يروى عن عبد الـرحمن القصير قال : رأيت أربعة ما رأيت فى الدّنيـا مثلهـــم ، رأيت ابن عثمان بالبصرة فما رأيـت فى الدّنيا مثـــله ، ورأيت الأوزاعى بـالشَّام فما رأيت فى الـدنيا

مثلـه ، ورأيت سفيان الثـورى بالكـوفة فما رأيت فى الـدّنيـا مثله ، ورأيت ربـاح بن يزيـد بإفريقية فما رأيت فى الدّنيا مثله .

وكان رباح يقول : رضت نفسى عن المآثم حولاً فبعد حول ضبطتها ، ورضت لسانى عن ترك مـا لا يعنينى خمس عشرة سنة ، فبعد خمس عشرة سنـة ضبطته . وهذه الريـاضة كانت فيـه لأنه مات وهو ابن ثمان وثـلاثين سنة ، وكان قد حمل على نفسـه الاجتهاد حتى قـال : « كنت أحب الصحـة فلمّا ضعفت عن العمل أحببت المرض . قـال سليمان بن عمران : ولمّا توفى رباح بن يزيد حضر جنـازته كافّة الناس ، وغُلِّقت الحوانيت ، وحضرها الأمير يزيـد بن حاتم ، فلما رأى من كثرة النـاس ما رأى التفت إلى من يليه ، فقـال : هذا والله عزّ الآخرة لاما نحن فيـه » وقال بعـض شـيوخ إفريقيـة : لمّا ولىَّ روح بن حـاتم أبا عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن غانم القضاء بأفريقية ظهر من عدله فى قضائه ، وفهمه ما فضح به من كـان قبله ، وولى فى رجب سنة إحـدى وسبعين ومائة وهو يـومئذ ابن أربعين سنـة ، فأقـام على قضـاء إفريقيـة عشرين سنـة أيـام روح بن حـاتم، ونصر بن حبيب ، والفضل بن روح ، وهرثمـة بن أعين ، ومحمد بن مقاتل العكى ، وبعض أيـام إبراهيم بن الأغلب ، وسنذكـر بعض أخباره معـه . وكان ابن غـانم إذا أشكلت عليه قصـة أرجأ أمر الخصمين حتى يعود عليه جواب مالك بن أنس وأبى يوسف القاضى ، ونذكر بقيّة أخبار عبد الله بن فروخ ، وكان عظيـم القدر عند العلماء قال ابن فروخ : كنـت يـوماً عند ابن أبى جمعة فسقطت آجرة من أعلى داره على رأسى فأدمتنى فقال لى : « اخطر إن شئت أرش الجرح وإن شئت ثلاثمائة حـديث » قلت : « الحديـث » ، فحـدّثنى ثـلاثمائة حديث . قـال : وقلت يومـاً لأبى حنيفة : « مـا منعك أن تلى القضاء ؟ » فقـال لى : « يا بن فـرّوخ القضاء ثـلاثة ، رجل يحسـن العـوم أخذ البحـر طولاً فما عسى أن يعوم يـوشك أن يكلّ فيغرق ، ورجلٌ لا بأس بعـومه فعام يسيراً فغرق ، ورجل لا يحسن العـوم فألقى بنفسه على الماء فغرق من ساعته ، فهذا منعنى من الدخول فى القضاء » .

وقـال ابن فرّوخ : أتيت الكـوفـة وأكثر أملى السماع من سليمان بن مهـران الأعمش ، فسألت عنـه فقيل لى : « إنـه غضب على أهل الحديث وحلف ألا يسمعهم إلاّ وقت ذكـر

فكنت اختلف إلى داره طمعاً أن أصل إليه ، فجلست يوما أتفكر فى تغربّى وما حرمته من السماع منه ، وقد أدركته إلى أن فتح الباب ، وإذا بجارية فقالت : « مالك » ؟ فقلت : « أنا رجل غريب » ، وأعلمتها بخبرى ، قالت : « وأين بلدك ؟ » قلت : « إفريقية » فاسترجعت وقالت : « أتعرف دار بنى فرّوخ ؟ » قلت : « أنا ابن فرّوخ » فقالت : « عبد الله ! » قلت : « نعم » ، فإذا هى جارية كانت من بلادنا ، وكنت رضيعاً لها فبعناها صغيرة ، فصارت إلى الأعمش وكانت لها دالّة عليه ، فدخلت عليه فقالت له : « إن ابن مولاى الذى كنت أخبرُك به بالباب ، فأمرها بإدخالى ، وأسكننى فى بيت قبالته ، فكنت أسمع منه وحدى ، وقد حُرم سائر الناس إلى أن قضيت أرباً من سماعى منه . وكان مالك بن أنس ـ رحمه الله ـ يكرمه ويعظّمه ، وكانت لمالك ـ رحمه الله ـ فراسة لا تكاد تخطىء ، نظر يوماً إلى ابن فرّوخ فقال : « هذا فقيه بلده » ونظر إلى ابن غانم فقال : « وهذا قاضى بلده » ، ونظر إلى البهلول بن راشد فقال : « وهذا عابد بلده » .

وقدم عبد الله بن فرّوخ المدينة حاجّاً ، فلما نزل لبس ثيابه ثم توجّه إلى قبر النبى ﷺ فسلّم عليه ثم أتى مالك بن أنس مسلّما ، فلما رآه قام إليه وكان لا يكاد يفعل ذلك لكثير من الناس ، وأجلسه إلى جانبه وسأله عن أحواله وقدومه فأعلمه أن قدومه كان فى الوقت ، فقال : « صدقت لو كان قدومك تقدّم لعلمت ، ولو علمت لأتيتك » وجعل مالك لا تَردُ عليه مسألة وعبد الله حاضرٌ إلاّ قال له : « أجب يا أبا محمد ، » فيجيب ، فيقول مالك للسائل : « هو كما ذكر لك » قال : ثم التفت مالك إلى أصحابه فقال : « هذا فقيه المغرب » ، وكان على هديه وورعه يقول لتحليل النبيذ ويشربه ، ويروى أحاديث فى تحليله ، وكان يرى الخروج على أهل الجَورْ والظلم ، وواعد أصحابه على الخروج ، وكان يتعاهد معهم أن يتوافوا بباب أصرم ، فما وافاه إلا أبو محرز وجم أصحابه ، واتصل ذلك بروح بن حاتم ، فقال له : « بلغنى أنك ترى الخروج علينا ؟ » قال : « نعم » فتعاظم ذلك روح من قوله وقال له : « فى كم ؟ » قال : « فى ثلاثمائة رجل وبضعة عشر رجلاً عدة أهل بدر كلهم أفضل منى » ، فقال له روح : « قد أمنّا أن يَخرج علينا أبداً لأنّه لا يجد أحداً

مثله ، فكيف هذه العدّة ؟ » ، وبعث إليه روح يسأله عن دم البراغيث يصيب الثّوب هل ينجِّسه ؟ فقال : « يا عجباً ، يسألون عن دم البراغيث ولا يسألون عن دماء المسلمين » ، والرسول يسمعه .

قال عبد الله بن وهب المصرى : قدم علينا ابن فرّوخ فى سنة ست وسبعين ومائة بعد أن مات الليث بن سعد ، فرجَوْنا أن يكون لنا عبد الله بن فرّوخ خلفاً منه ، فما لبث إلاّ يسيراً حتى مات ، فدفنّاه فى مقبرتنا هذه ، وجعلت على نفسى ألا أحضر جنازة إلاّ وقفت على قبره ودعوت له ورحمت عليه .

ولاية نصر بن حبيب المهلبى

يقال إن روح بن حاتم كان قى أسن وكبر ، وإذا جلس للناس كثيراً ما يَغْلبه النَّوم من الضُّعف ، فكتب أبو العنبر القائد وصاحب البريد إلى هارون الرشيد بضعف روح وكبره ، وإنهما لا يأمنان عليه أن يموت (وإفريقية) ثغر ولا يصلح بغير سلطان ، وقبلنا نصر ابن حبيب وكان على شرطة يزيد بن حاتم ولايته كلها مصر وإفريقية ، وهو محمود السيرة محبّب إلى الناس ، وله سن ومعرفة ، فإن رأى أمير المؤمنين ولاَيته فى السرّ إن حَدَث بروح حدثٌ حتى يرى أمير المؤمنين رأيه . فكتب هارون له عهده سرّاً ، فلما مات روح فُرِش لابنه قبيصة الجامع ، فجلس واجتمع الناس للبيعة له ، وكان الفضل بن روح عاملاً على الزّاب ، فركب أبو العنبر وصاحب البريد بعهد هارون إلى نصر بن حبيب ، فأوصلاه إليه وسلما عليه ، وركبا إلى المسجد فيمن معهما حتى أتيا قبيصة ، وهو جالس على الفَرْش ، فأقاماه واقعدا نصراً وأعلما النّاس بأمر نصر ، وقرىءَ كتاب هارون عليهم فسمعوا وأطاعوا .

فولِيَ نصر سنتين وثلاثة أشهر فعدل وحسنت سيرته ، وكان لم يعد أحدٌ قبله بمثل

عدله ، وكانت ولايته لعشر باقين من شهر رمضان سنة أربع وسبعين ومائة ، وولىّ أعماله أهل البلد ، وعزل العلاء بن سعيد عن طرابلس بعد أن أقام عليها عشر سنين وتسعة أشهر ، واستعمله على الزّاب ، واستعمل على طرابلس النصر بن سدوس المرادى ، وكان الفضل بن روح لما مات أبوه وصار الأمر إلى نصر خرج إلى هارون فولاّه إفريقية ، فرجع إليها .

ولاية الفضل بن روح بن حاتم

لما ولاّه الرشيد كتب بعزل نصر إلى إفريقية وأن يقوم بأمر إفريقية المهّلب بن يزيد إلى أن يقدم ، وكان قدوم الفضل فى المحرم سنة سبع وسبعين ومائة ، ويقال إنّه لم يَلِ إفريقية أجمل منه ومن أبى العبّاس عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب . وروى عمرو بن قدومة قال : ما رأيت مثل ما صنع الناس فى تلقىّ الفضل بن روح واستبشارهم به ، وسرورهم بقدومه ، نصبت له القباب من مسجد أم الأمير إلى دار الإمارة فى رحبة التمر ، فزعموا أن قسطاس النصرانى نصب له قربة ريحان فى طريقه ، وعليها طَوْمارٌ قد كتب فيه بخط غليظ : « **إنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَاتَأَخَّرَ** » فنظر إليه الفضل فقال : « من فعل هذا ؟! » قالوا : قسطاس ، قال : « أحسن والله النصرانى » فلمّا انتهى إلى مسجد أبى فهر نظر إلى زير زجاج معلق ، وفيه ماء وفى الماء حيتان تعوم ، فقال : « من فعل هذا ؟! » قالوا : قسطاس ، فقال : « أحسن والله » .

وكان قد أمر بعض كتّابه أن يكتب كلّما هيأ له ويلقاه به ، فلمّا نزل عرضت عليه الكتب ، وأتى قسطاس فقال له : « تمنّ » فقال : « يأذن لى فى بناء كنيسة » فأذن له ، فبنى الكنيسة التى يقال لها كنيسة قسطاس . فإن يكن ذلك كما قيل فقد أتى عظيماً .

ولما ولى الفضل عزل عمال نصر بن حبيب إلاّ أنه أقرّ العلاء بن سعيد على الزّاب ، وولى على طرابلس أبا عيينة الشاعر بن محمد بن أبى عيينة بن المهلّب إلى المشرق ، وكان قدم زائر الابن عمه يزيد بن حاتم ، فولاّه قفصة وقصطيلية ، فيقال إنه جلس يوماً مع

أصحابـه إذ سقطت من يـده جـوهـرة ، فأخـذ بعض جلسائه وأبـو عيينـة يـراه فقـال : «يـاغلمان ، لا تطلبوهـا ولا يبيعنّها آخـذهـا بخساً ، فإنّ شراءهـا عشرون ألف درهـم » ، وكان نازلاً بالحارثيين ، فلمّا أراد الخروج إلى طرابلس جاءته جيرته مودّعين ، فقال لهم : « ما معنا دينارٌ ولا درهم ، ولكن مـاف الدّار من طعام وشراب وأثاث ومتـاع فهو لكـم » ، قال بعضهم : فقُمنا فـوجدنا خزائن مملـوءة من كل شيء فاقتسمناها ، وجـاءه وهو على تلك الحال المعروف بـأبي حسان الإسكـاف فأهدى إليـه خُفّين ، فقال له : « مـا حملك على أن تهدى إلينا ونحن على مـا ترى من الحال ؟! » فقال : « المودّة لك والأمل فيك بعـد اليوم » قال : « ليس يغنى عنك هـذا ، ولكن هل لك فى شيء ؟ » ، ونزع عن نفسـه ثوب وشى فدفعه إليه ، فباعه أبو حسان بمائة دينار . قـال أبو مالك بن الطّرمّاح بن حكيـم ، وكان مقيماً بالقـــيروان : « بعث إلى أبو عيينة المهّلبيّ أن جئنى بديوان الطّـرمّاح لأقرأه عليك ، ففعلت فأمر بـانتساخه وقـرأه علىّ ، وكنت أحضر طعامـه وكسانى كسوة نفيسـة وأعطانى ثلاثين ديناراً ، فكـان أبو مالك يقول : « والله ما رأيت المال أرقّ ولا أذل ممـا هو بأيديهم » ، وكانت تونس تعدل بالقيروان فى كثرة العرب والجند الذين كانوا فيها .

وكـان أبو جعفـر إذا قـدم عليـه رسولُ صـاحب المغـرب يقول : « مـافعلتْ إحـدى القيروانَيْن ـ يـريد تـونس ـ فلمّا قـدم الفضل ولىَ عليها ابن أخيـه المغيرة بن بشر بن روح ، وكان غرًّا لا تجربة له بالأمور ، فاستخفّ بالجند وسار فيهم بغير سيرة من تقدّمهم وَوَثق أن عمّه لا يعزلـه ، هذا مع مافى قلوبهم على الفضـل من أشياء قد أنكروهـا ، أقلّها استبداده برأيـه دونهم ، فاجتمعوا وكتبوا كتـاباً إلى الفضل يخبرونه بسـوء صنيع المُغيرة لهم وقُبْح سيرته فيهم ، فتثاقل الفضل عن جوابهم ، فاجتمعوا وتكلّم ابن الفارسىّ وقال : « إنّ كلّ جماعة ليس لها رئيس يدبّـر أمرها ، فهى على شفا جُرْفٍ ممـا تطلب ، فانظروا رجلاً يُدبِّـر أمركم » قالـوا : « صدقت ، فأشر علينـا » قال : « فإنى أشير عليكم بـالبصير بن الحرب المعروف بالنّجدة ، ولعلّه مع هذا . . ماله ، فإنّـه ذو مال » ، قالوا : « من هو (» قال : « عبد الله ابن الجارود ، وهو المعـروف بعَبْدَوَيْه ، فأتوا ابـن الجارود فقالوا : « قد علمت مـا صنع بنا المغيرة وقد كتبنـا إلى صاحبـه فلم يـزل خَاذلُنا وقـد رأينا إخـراجه ، وأنـت شيخُنا وفـارسنا

والمنظور إليه ، ونحن نُصيِّر هذا الأمر إليـــك قال لهم : « ليس يمنعـنى من إجـابتكم إلى ما سألتم تقصير فى النّصيحة لكم ، ولكنى أكره أن أعقُد فى أعناقكم عُقْدة ترجعون عنها ، فأكون أنا الدّاعى إلى هلاك نفسه ، ولكنّى أقنع بالعافيّة ما وسعتنى ، فإن وقع أمر كنتُ فيه كأحدكم ، فقال له محمد بن الفارسى « مالنـا من هذا الأمر بدٌّ » ، فلمّا رأى القوم فى جدِّها قال لهم : « أعطونى من بيعتكم ما أثق به » فقالوا له : « أنفسنا دون نفسك » فأخذ بيعتهم على ماأراد ، ثم أنصرفـوا إلى المغيرة وهو بدار الإمـارة فحصروه بها فبعث إليهم فسألهم : ما الّذى يريدون ؟ قالوا : « ترحل عنا وتلحق بصاحبك أنت ومن معك .

وكتب عبدويـه : إلى الأمير الفضل من عبد الله بن الجارود ، أمـا بعد : فإنّـا لم نُخرج المغيرة إخراج خلاف عن الطاعة ، ولكن لأحداثٍ فيها فسادُ الدَّولة ، فولِّ علينا من ترضاه ولاطاعـة لك علينا ، والسّلام . « فكتب إليـه الفضل بن روح » ، من الفضل بن روح إلى عبدويـه بن الجارود ، أما بعد : فإن الله عز وجـل يجرى قضاياه فيما أحب الناس أو كـرهوا وليس اختيـار والياً لـو اخترته لكم أو اخترتموه بحـائل دون شىء أراد الله عـز وجل بلوغـه فيكم ، وقـد ولّيت عليكم عامـلاً فإن دفعتموه فهـو آية النّكث منكم ، والسـلام » وبعث عبد الله بن يزيد المهّلبى عامـلاً على تونس ، وضم إليه النضر بن حفص وأبا . . . . والجنيد بن سيّار .

فروى مسعدة بن أبى قديك قال : خرجت مع عبد الله بن محمد بشيعة حتى انتهينا إلى باب المدينة نصب روح اللّواء فاندقّت القنّاة ، فتطيّر الناس ، ومضى حتى إذا كان مرحلة من تونس تخيّر ابن الجارود عدّة من أصحابه منهم وصّاف ومنصور بن هميان فى جماعة وقال لهم : « اذهبوا حتى تعلموا ماقدم به هذا الـرجل وتبعثوا إلىّ بخبره ، ولا تتعرضوا للحرب ما وجدتم سبيلاً إلى العافّية » ، فلقَوْه بالزيتون الذى بالقرب من سبخة تونس فلقوه فقال ابن هميان لأصحابه : « قد علمتم أن الفضل كان يأخـذ الرجل منكم فى الأمر الذى ليس عليه فيه مؤنة ، فيقطع يديه ورجليه ، فكيف وقـد أخرجتم ابن أخيه وكاشفتموه ، والله ما بعث عـاملة ومن بعـث معه من القـوّاد إلا ليتلطّف بكم لترجعـوا عن رأيكم ، فإذا أطمأنت بـه الدّار مرّ عليكم فلا يُبْقى منكم أحداً » ، قـال وصّاف : « فما رأيك » ، فكأنى انظر إلى ما

تريد ، وإن شئت أعلمتك به » قال : « فخبرنى » قال : « نكون على عدة ثم نلقى القوم كأنّا نسألهم عمّا جاءوا إليه حتى إذا غشيناهم صببنا عليهم ، فإن أرادوا قتالنا كنّا قد شغلناهم عن كثير من ذلك ، وإن لم يقاتلوا أخذنا عبد الله والقواد الذين معه فصاروا رهائن بأيدينا ، فكتا المخيَّرين على الفضل ، فإمّا أجاب إلى ما نحبّ وإما أخرجناه ومن معه وقاتلناهم إن أبَوْا الخروج فقال له منصور : « والله ما أخطأت ماأردت » فأجمع رأيهم على ذلك ، فأقبل عبد الله بن محمد حتى التقوا بالزيتون ، فلمّا قرّبوا منه حملوا عليه وعلى أصحابه ، فقتلوه عبد الله وأخذوا القوّاد أسارى ، فلمّا رجعوا إلى ابن الجارود ، فأخبروه بما صنعوا فقال لهم : « ما لهذا بعثتكم ، فأمّا إذ وقع فما رأيكم ؟ » فأشار بعض أصحابه بما عنده من الرأى ، وقال : « إنّه لم تسأل الفضل والياً ، وأنت تريد قتْله قبل أن تعرف رأيه وأنت غائب عن قتل عبد الله ، فأقم وكاتبه ، فإنه يحثّه على موادعتك طلب العافيّة . . . . الولاية » ، فضحك محمد بن الفارسى فقال له عبدويه : « لم ضحكت ، كأنك لم ترض رأيه ؟ » ، قال : « أما هو فقد أجهد لك نفسه فى الرأى » قال : « فما ترى أنت ؟ » قال : «إذاً والله أعطيتك الوجه الذى إنْ ارتكبته ظفرت وإن تركته نُكبْت» قال : «وماهو ؟» قال : « اعلم أن الفضل لن يَسْلم لك صدره أبداً بعد إخراج ابن أخيه وقتل ابن عمه ، وليس اعتذارك للفضل أنك غبت عن قتل ابن عمّه بالذى يقيم لك العذر عنده ، ولا راحة لك فى سلمه ، وقد قيل فى أمثال كليلة ودمنة : إن الضرس المأكول الفاسد لا راحة لصاحبه دون قلعه ، وكذلك نحن وآل المهّلب ، لا راحة لنّا فيهم إلاّ بقتلهم أو إخراجهم بالمكائد والحِيَل » ، فقال له عبدويه : « فتولَّ أنت تدبير الرأى ومكالمة الناس ، واكفنى ذلك وأنا أكفيك تدبير الحرب - إن شاء الله - » فجعل محمد بن الفارسى يكتب إلى كل رجل من وجوه القوّاد يوهمه أنهم يُؤَمِّرونه عليهم وكان فى كتبه : « أما بعد » فإنا نظرنا إلى ما صنع الفضل فى ثغر أمير المؤمنين فى تهاونه بجنده ، واستئثاره عليهم بما لم تكن الولاة تصنعه قبله مع وعورة لفظه لهم وتركه لكتاب أمير المؤمنين فى أرزاقهم وسوء سيرته فيهم ، فيما عهد إليه ، ولم ينفعنا إلاّ الخروج عليه لنُخْرجه عنا ، ونظرنا فلم نجد أحداً هو أولى بنصيحة أمير

إفريقيّة التونسيّة

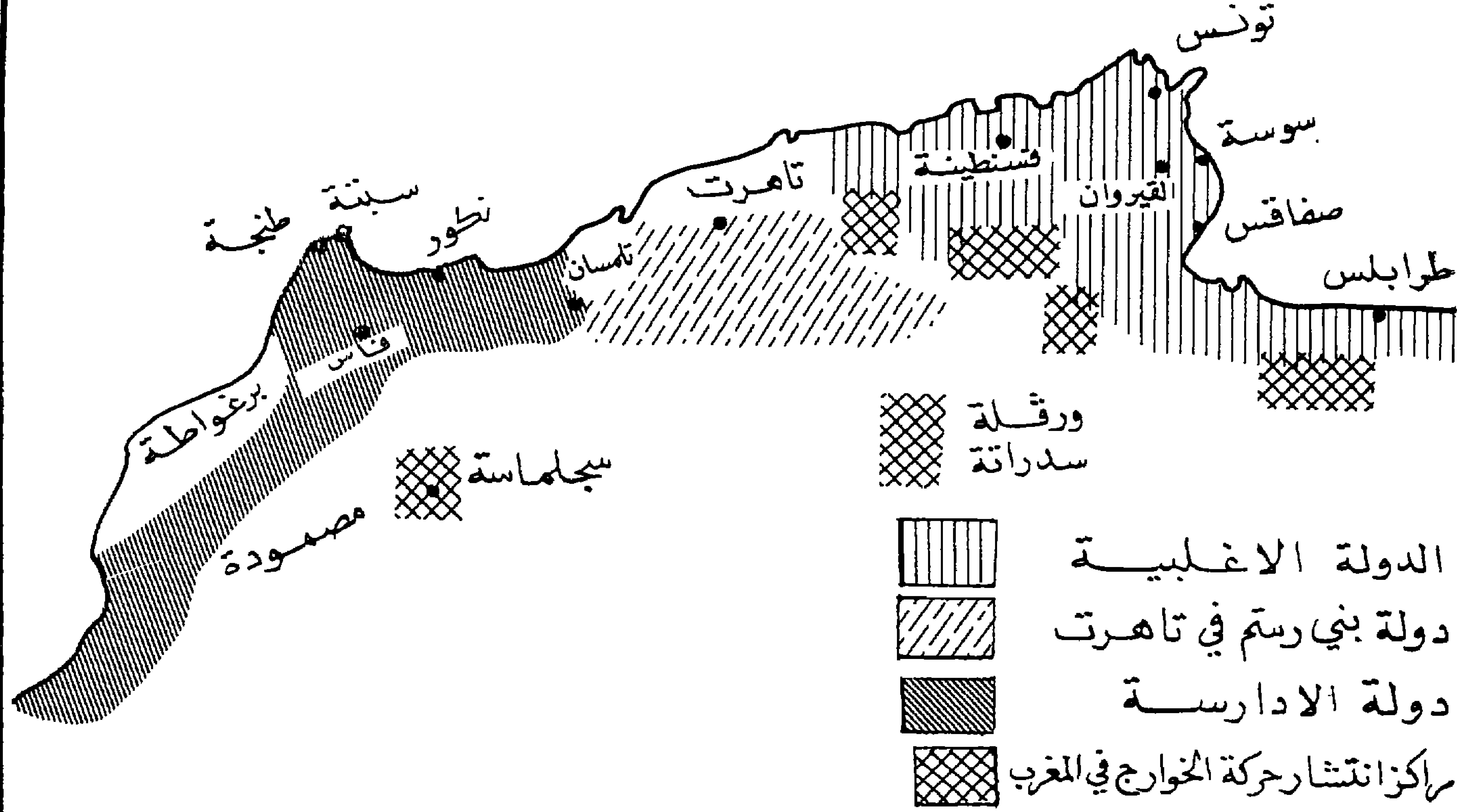
من الفتح العربي إلى القرن الخامس للهجرة

ج الاخوين
ج فيلارية
بنزرت
الجامور الصغير
الجامور الكبير
رأس ادار
عندة
انبلونة
رأس الملاحة
أقليبية
قصر لبنه
قربة
طبرقة
الاضارين
باجة تونس
تونس
بلطة
باجة
موسة
خولان
سنجة
زغوان
شاذلة
باشو
قصر الزيت
نابل
المرصد
بحر المدفون
هرقلية
شقبنارية
الاربس
حلوله
ج القريات
المنستير
سوسة
ابه
اجر
الروحاء
القيروان
سبيبة
تبسة
المهدية
سلقطة
رأس قبودية
مطرية
الجم
تبسة
سبيطلة
القصرين
جمونس
جبنيانة
الوزة
لبيدة
انشله
سفاقس
ج قرقنه
الحورية
مذكور
نقطة
قفصة
مقمداس
تقيوس
حمة قطيلية
توزر نقطة
قيطون
قابس
سوق جربة
جربة
سبخة قطيلية
(التاكمرت)
بشري
طرة
جمنة
دوز
كتانة
تبعث
حرجيس

بخط يوسف الاضرع ؟

من تحقيق حسن حسني عبد الوهاب

هذه الخريطة تبين مواقع بعض المدن والقرى المذكورة في هذا الكتاب .



تونس
سوسة
صفاقس
طرابلس
القيروان
قسنطينة
تاهرت
تلمسان
نكور
سبتة
طنجة
فاس
برغواطة
مصمودة
سجلماسة
ورقلة
سدراتة
الدولة الاغلبية
دولة بني رستم في تاهرت
دولة الادارسة
مراكز انتشار حركة الخوارج في المغرب
بخط
الاضيع

جبل طارق
سبتة
طنجة
الرباط
يفرن
مراكش
تاولة
برغواطة
حمامة
فاس
لمتونة
لمطة
صنهاجة
وادي درعة
السوس الاقصى
سجلماسة
تافلالت
مكناسة
مغراوة
وهران
ازداجة
تلمسان
يفرن
بني مرزين
زناتة
مدبوتة
جبل راشد
عبدالواد
نجيج
العرق الغربي
زناتة
تامنتيت
توات
الهكار المجار
هوارة
مغنية
الجزائر
مغراوة
تاهرت
مطماطة
عمسية
القبائل
بسكرة
الزاب
جلفا
الاغواط
ميزاب
ورجانة
سدراتة
العرق الشرقي
لغزاوة
ورنجومة
بلاد الجريد
جراوة
هدارة
القيروان
تونس
سوسة
صفاقس
زواغة
قابس
جزائرقرقنة
مرة
طرابلس
هوارة
لواتة
مطماطة
هوارة
نفوسة
جبل نفوسة

بخط يوسف الاضرع

توزيع قبائل البربر في بلاد المغرب العربي (نقلا عن ابن خلدون)

قرطبة
اسبانيا
سردينيا
البيزنطية
الامبراطورية
ازمير
قونية
طرسوس
الموصل
دجلة
الفرات
بغداد
حلب
انطاكية
اقريطش
صقلية
تونس
بجاية
القيروان
كتامة
افريقيا
المهدية
تاهرت
تلمسان
سبتة
فاس
المغرب الاوسط
المغرب الاقصى
سجلماسة
طرابلس
برقة
البحر الابيض المتوسط
طرابلس
قبرص
بيروت
دمشق
بيت المقدس
الاسكندرية
القاهرة
الفسطاط
الفيوم
مصر
البحر الأحمر
المدينة
مكة
أسوان
بلاد النوبة

المملكة الفاطمية
في اوج مجدها حوالي ٩٩٠م

المملكة الفاطمية في اوج مجدها حوالي ٩٤٠ م.

المؤمنين لبُعْد صيته وعطفه على جنده منك ، فرأينا أن نجعل أنفسنا دونك فإن ظفرنا جعلناك لنا والياً ، وكتبنا إلى أمير المؤمنين نسأله ولايتك ، وإن تكن الأخرى لم يعلم الفضل أنا أردناك ، والسلام .

فكان الكتاب إذا جاء أحدهم قال : « وما عليّ أن اكتفى هذا الأمر » ويطمع فيما كتب إليه به ، فأفسد الكتاب جماعة ، ولم يعالجهم الفضل وأمهلهم إلى أن دبّروا لأنفسهم ، وكتب ابن الجارود و أصحابه إلى باجة ، وبها جند من أهل خراسان يخبرونهم بالأمر الذى دخلوا فيه ، ويزينون لهم الخروج معهم ، فتسرعَ الناس إليه من كل ناحية ، وبلغ ذلك الفضل فكتب إلى عمّاله بالقدوم عليه ، ماخلا صاحب الزاب وهو العلاء بن سعيد ، وصاحب طرابلس ، وهو أبو عيينه . ونادى فى الجند قال من شَهد الأمر : فجعلت ـ يعلم الله ـ أنظر إلى العدّة منهم يأتون فيأخذون أعطيتهم ثم ينشرون السلاح ، ويخرجون إلى ابن الجارود .

وقدم على الفضل سمدون ، وأبو المغيرة ، وأبو عُميلة ، فلما دخلوا عليه أمر لكل واحد منهم بخمسمائة درهم ، فبلغ ذلك من بالقيروان من أبناء خراسان فقال بعضهم لبعض : « ويحكم ، كيف ترضون بهذا أن يقوّى الفضل أهل الشام على أبنائنا . . يفعل ذلك بمن هو عبدة منا » ، وكان عمّاله أهل خراسان يقولون : « لا نقاتل معه » ، وولى الفضل محاربة ابن الجارود عبد الله بن يزيد بن حاتم .

وأقبل ابن الجارود على طلائعه فتح ، ووصّاف ، وابن الدّويدى ، وأقبل عبد الله بن يزيد وعلى مقدّمته شبيبة بن حسان وعلى طلائعه فلاح ، فنزلوا قرب طساس ، وجعل عبد الله يتنقّل حتى صار إليهم . ثم التقوا فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فولّت طلائع عبد الله بن الجارود وركبهم الآخرون فقتلوا منهم عدّة ، وكان على ميمنة عبد الله بن يزيد علّى بن هارون الأنصارى وسهل بن حاجب وعامر بن نافع ، وعلى المسيرة الميسرة عمر بن . . . . . . ، وشراحيل الأزدى ، فلما رأى سهل بن حاجب غريمه عبد الله بن يزيد فى قتالهم دنا منه ، ثم قال له : « والله إن زلنا نظن أنك سنداً لهم وإنك تصانع عبدوية حتى

رأينـا منك ما دفع الشـك عنا فيك ، وليس كـلامى لك كـلام حقـد ولكن نصرة للطّاعـة وكـراهّية للخـلاف ، وهو الـذى دعانـى إلى قتال من تـرى من أهل خراسـان ، فلمّا انهزم أصحاب عبـدوية ولحقوا به قـال لابن الفارسى : « ما هكـذا كتـب إلينـا من كتب من إخـواننـا ! » قال ابن الفـارسى : « إنما قـاتلك أصحـابنـا أهل الشـام وإنما لقَوا طـلائعنـا بعساكرهم لا تعلم إذا التقينا كيف يصنع الناس » .

كان هذا يوم الجمعـة ، فلمّا كان يوم الأحد عبأ عبدوية جنـده، وزحف وعبد الله بن يزيد بطساس ، فلمّا تواقفوا ، قال عبدوية لأصحابه : « تهيأوا لحملة واحدة تَصْدقوا فيها ، فإنّ فى عسكر عبد الله بن يزيد من لو قد نظر إلينا لانهزم باليأس » وهو على ثقة بما قال لهم فانهـــزم أصحاب عبد الله بـن يزيد ، وصبر ناس فأخـذ الطاعة من أهل خـراسان وأهل الشام ، فلما رأوا أنه لا يثوب إليهـم أحد انصرفوا إلى الخنـــدق ، وجعل عبد اللـه بن يزيد ينادى : « إلىّ إلىّ ! » فما أحدٌ رجع إليـه ، قال له بعض أصحابه : « إنك واللـه لو قُتلت ها هنـا وثـب النـاس على الفضل فيقتل » ولكـن سر على طـاويّـــة بمن معك حتى تسير إلى القيروان ، فتستأنف القتـال ، فإن الحرب سجـال وقـد كانت أول وقعـة فـانصرف . وقُتل هارون الأنصارى فى المعـركة و أدركوا أبا الأسود الحمصى فى بعض الطـريق ، وقد نزل عن فرسه ، فقتلوه . وسار الناس إلى القيروان وأتبعهم أصحاب عبدوية ، فأقاموا على القيروان إلى المغرب ، ثم انصرفوا إلى منية اخيل .

واجتمع إلى الفضل بنوا عمه وأصحـابه فقالوا لـه : « ما رأيك ؟ » فقال لهم : « أشيروا علىّ فـاختلفـوا فى رأيهم ، فمنهـم من أشار بـالخروج إلى طـرابلس والـرحيل عن القيروان ، ومنهم من أشـار بالقعـود واضطـرب على الفضل أمره ولم يصح لـه رأى ، فلمّا أصبح بعث المهلب بن يـزيد إلى بـاب سالم ، وفـرّق النـاس على ما بقى من الأبـواب ، وأقبل عبدويـة والفضل فى دار الإمارة مع خالد بن يزيد ، من ولد أبى صفرة ، وعبد الله بن يزيد وجنى بن خداش وجماعـة من أهل بيته ، فلما قـرب عبدوية من الأبـواب سد من كـان فى المدينة من

الأبناء على من بباب سـالم من داخل ، فدفعوهم عنهم ، وفتحوا البـاب ، وفتح أيضا باب أبي الربيع ، ودخل أصحاب عبدويـة ما يدافعهم أحد ، ونزل عبدويـة خارجا من المدينة وبدأ أصحابه بدار عبد الله بن يزيد .

ابن عبدويـة قريش القشيرى ، وابن الـرّبوذى والهيثم بن الرّبيـع وغيرهم ، ثم رحـل ابن عبدويـة من تونس ودخل مـالك بن المنذر ، فأقـام بها عشرين يومـاً ، وكان كثير من أصحاب عبدويـة المهزومين قد نصبوا بها ، فقال لـه أصحـــابه : « دعنـا نتّبعهم » فقـال لهم : « إنهم وإن خالفـوا فإنهم جند أمير المؤمنين » وأبى أن يأذن لهم ، فلما عـرفوا ذلك من رأيه انصرفـوا عنه وأغـاروا على القرى ، فبقى فى أقل من العـدة التى جاء بها من ميلـة وقيل لابن الجارود : إن شئت أن تأخذ مَلِكاً أسيراً فأخرج إليه وقـد تفرق الناس عنه ، فخرج إليه وعسكـر بطساس ، فلما بلغ النـاس أن ابن الجارود عسكـر ثـابوا ورجعـوا إلى مـالك حتى صاروا فى ألفى فارس ، وسـار ابن الجارود حتى نزل بقربة ، وأقبل مالك بن المنـذر فالتقوا واقتتلوا ، فانهزم أصحاب مالك ، فلما رأى ذلك حمل فى نفر من أصحابه ، وهو يقول :

يَــا مَـــوتُ إنّى مــالِكُ بـن المنـــذر   أُمْسِـكُ حُسنَ البيـض والسَنــــوّر

أقْـــتُلُ مـــنْ صـــابرْ ومـــن لـــم يصْـــبر

فقام إليه عبد الله بن الجارود ، وهو يقول :

.. مَـــــــالك بـن المُنْــــــــذر   إنّــى أنـــــــــا قَتَلْتُ رَبَّ المنْبر

جَــــــرعتُـــــهُ كَـأسَ حمام أحْمَر   فَـاصْبِرْ سَتَلقَـــــاهُ وإنْ لَمْ تَصْبر

فلما همّ كلّ واحد منهما أن يلقى صـاحبه اعترض رجل من أصحاب الجارود مـــالك ابن المنذر فصرعه وركبه الناس فقُتل ، وقتل معـه عدة من أهل بيته ، وانهزم أصحابه حتى صـاروا إلى الأربس ، ووجــه ابن الجارود حمّاد بن حماد واليـاً على الأربس فبيّتــه سمـدون

وأصحابه فهرب ، ثم كتبوا إلى العلاء بن سعيد ، وهو بالزاب أن يقدم عليهم ، وتهيأوا إلى قتال ابن الجارود ، فأقبل العلاء حتى وصل إلى الأربس واجتمع مع المغيرة وأبى عميلة وسمدون وفَلاَح فى أهل الشام ، فلمّا بلغ ابن الجارود قدوم علاء قال عند ذلك :

أفى كُل يوم ثائِرٌ قدْ قتلْتُه ... بِفضْل مَا ينفكّ بِالفضْلِ طائِرِ
قضيْتُ لِنفْسِى الّنذْر فِى قتْلِ مالِك ... وإنِّى لها قتْل العَلاَءِ بِنابِذِرِ

قال : وجرت بينهما مكاتبات فقال العلاء فى آخر جوابه :

نذرتُ دمى فانْظُرْ إذا ما لقِيتنى ... على منْ بكاسيْها تدُور الدّوائِرُ
ستعْلمُ إنْ انْشبْتُ فِيك مخالِبِى ... إلى أىّ قِرْنٍ أسْلمتْك المقادِرُ

قالَ : وأقبل العلاء إلى القيروان ، فصادف ابن الجارود وقد خرج منها يريد يحيى بن عيسى خليفة هرثمة بن أعين ، وذلك أن الرشيد لما اتصل به وثوب ابن الجارود على الفضل . . . . إفريقية ، وجّه يقطين بن موسى لمحلة من دعوتهم ومكانه فى دولته ، وكبر سنه وحاله عند أهل خراسان ، وأمره بالتلطُّف بابن الجارود وإخراجه من البلاد ، ووجه معه المهلب بن رافع ثم وجه منصور بن زياد ومعه هرثمة بن أعين أميراً ، فأقام ببرقة وقدم يقطين القيروان ، فجرى بينه وبين ابن الجارود كلام كثير ، ودفع إليه كتاب هارون الرشيد فقال ليقطين : قد قرأت كتاب أمير المؤمنين ، وأنا له على السّمع والطاعة ، وليس لأمره دفعٌ ولا بعد أمانه خوف ، وقد أظلنى العلاء بن سعيد وفى كتاب أمير المؤمنين أنه ولى هرثمة بن أعين وهو ببرقة بعدكم يصل ومع العلاء . . . . الثغر ، وثب البربر فأخذوه ، ثم أخرجوا العلاء منه أو قتلوه ، ولا يدخله والٍ لأمير المؤمنين أبداً ، فأكون إمام الخلق على هذا الثغر ، ولكن أخرج إلى العلاء فإن ظفر بى فشأنكم بالثغر ، وإن ظفرت به انتظرت قدوم هرثمة بن أعين ، ثم أخرج إلى أمير المؤمنين فاجتمع يقطين مع محمد بن يزيد

الفـارسى ، وكان صـاحب ابن الجارود ، فابتـدأه يقطين بالإيمان التى وثق بها ليقِينّ لـه بها يضمن فإن هو لم يقبل مـا عرض عليه لا يخبرنَّ به أحداً أبـداً ، فلمّا سمع ذلك ابن الفارس قـال : « أعرض مل شئت » قـال : « علىّ قيادة ألف فـارس وصلة وقطيعـة فى أى المواضع شئت ، وأما الـذى لنا عليك فتعلم رأى ابن الجارود إن كـان يُسلِم إلى أمير المؤمنين ، فإن فعل وإلا زينت له الخروج إلى العلاء ، ثم دعوت الناس إلى الخروج عليه وخرجت معك ، فهو آية الظفـر ، وتـــنال ما ذكـــرت لك مع رضـا أمير المؤمنين ، وشكـره » ، فســعى ابن الفارسى فى . . . . ابن الجارود ودعـا أهل خراسان إلى ذلك ورغّبهم فى الطـاعة واستمال قلـوبهم حتى ساعـدوه وسمع مـا كـان يُحبّ الطّاعـة والخلاف على ابن الجارود ، فأسرعوا إليه وبعـــث إلى من كـــان محبوساً فى الســـجن من القـواد ومن كان مختفيـاً من ابن الجارود ، فأخـرجهم وواعدهم أن يجتمعـوا له بباب أبى الـربيع ، ثم خرج فيمـن معه وقام خطيباً ، فذكر الطاعة . . . وحذر المعصية وعاقبتها ، وذكر نعمةُ على ابن الجارود .

وبلغ ابن الجارود خـروّج ابـن الفـارسى فـوجّـه إلى أبى النهـار وأبى العنبر والعبّـاس اللطيفى فقال لهم : إن ابن الفارسى قد خرج فى القـواد وأهل القيروان معه ، وقد سار إليه شيبة بن حسـان ، والجنيد بن سيار ، والنضير بت حفص وغيرهم ، فماذا ترون ؟ فقـــال أبو العنبر لـه : « لو كان ابن الفـارسى حين خرج عليك مضى إلى العلاء ومن معـه كان فى ذلك نصرة للقوم بنـا ، فأمّا إذا أراد الانفراد بالأمـر دون العلاء فعاجله » وقـال أيضاً عباس ابن اللطيفى : « إن ابن الفارسى لم يخرج حتى صانعه يقطين وليس له علم بالعرب فأسبقه إلى نفسه قبل أن يسير إلى العلاء » ، فقال ابن الجارود : « أصبتما ولاحتالن عليه بحيلة تحمد أن رأيى فيها إن شاء اللـه » ثم قال لرجل من أصحابه ، يقال لـه طالب : « اعمل بما أقول لك : أنا أدعوه إذا تـواقفنا كأنى أريد أن أعاتبـه وأطلب رجعته فانتبذ أنت كـأنك تريد أن تقف من العسكر مـوضعاً غير الذى كنت فيه ، ثم أُدْنُ فعارضنـا حتى إذا علمت أنك قد صببت فرسـك ولم يفُتْك ، فشُدّ عليه ، فإنـك إن قتلته لم يقف لنا منهـم رجل » ، ثـم إن عبد الله تهيأ فى أصحـابه وخرج ، فلما تواقفا نـاداه ابنَ الجارود فقال : « اخرج إلى حتى لا

يسمع كلامى وكلامك غيرنا ، فلما رأيت أعجب من أمرى وأمـرك ! » ، فلما سـمع ذلك منـه ابن الفارسى سُر بـه ، فقـال : « ما على أن أخـرج فأكـون قريبـاً منـه فما فى يده قنـاة يعاجلنى بها ولا قوس يرمينى عنها » ، فخرج إليه فقال له : « ما حملك على ما صنعت ، ألم تكن المطاع المنظور إلى رأيه المقبول مشورته ، وجعل يشاغله بتدارك الكلام والنظر إلى موضع آخر ، وجعـل ابن الفارسى لا ينظـر إلى غيره مخافة حيله ، وقـام طالب كما وصف لـه ابن الجارود حتى إذا أمكنه غدرته دفع عليه فرسه ، فما قـدر أن يثنى عنانه حتى زهقه فدق قلبه وانهزم أصحابه ، وأصرع شيبة بن حسان ، ففى ذلك يقول عبد الله بن الجارود :

لقـد راعنى ابـن الفـارسى بكيـده ... فـوافق أمضـى منـه عـزمـا وأكيـدا

عشيـــة أدعـــوه ليسمـع منطقى ... فاعجــزه إصـــدار مــا كــان أوردا

أشرت إلى ذى نجـدة فـــانكفى لـــهُ ... بأسمـــر خطى إذا نـــال أقصـــدا

فما زال قـــاب القـــوس إلا عـــاملٌ ... من الـرمح دام بين حضنيـه مـزبـدا

فقل للعـــلاء قـــد أظلت محمـــداً ... منيـــة يـــوم فـارتقب مثلهـــا غـــدا

وقـدم يحيى بن مـوسى خليفـة هرثمـة بن أعين طـرابلس ، فصلى بـالناس يـوم عيـد الأضحى وخطبهم ، وكتب يحيى إلى هرثمة يعلمـــه من قـــدم عليـــه من القواد ، منهم أبو العنبر التميمى ، والجنيـد بن سيار الأزدى ، وجعفـر بن محمد الـربعى ، وشهاب بن حـاجب التميمى ، وعبـد الصـــمد العبـدى وغيرهـم ، وأقبل بعد ذلـك خالـد بن بشير الأزدى ، واستعجل أمر يحيى ، وأقبل العلاء بن سعيـد فيمن معه يريد القيروان ، فلما بلغ ذلك ابن الجارود اجتمع . . . . الناس ، وأنه لا طاقة له به ولا قوة بلقائه ، كتب إلى يحيى بن موسى أن اقدم إلى القيروان ، فإنى مسلم سلطانها ، وأجـاب إلى طاعته فخرج يحيى بن مـوسى بمن معه من طـرابلس سنـة تسع وسبعين ومائة فى محرم ، فلما بلغ قـابس تلقى بها

عامة الجند من القيروان ومعهم النضر بن حفص بن عمر بن معاوية ، فخرج ابن الجارود من القيروان مستهل صفر ، واستخلف عليهـا بن عباس اللطيفى . فكانت أيام عبـد الله ابن الجارود سبعة أشهر .

وأقبل العلاء بن سعيد ويحيى بن موسى متسـابقين إلى القيروان ، فسبقه العلاء إليها ، فقتل جماعة من أصحاب الجارود ، فبعث إليه يحيى : أن يفـرق جموعه إن كان فى الطاعة ، فأمـر كل من كان معـه أن ينصرفوا إلى مواضعهم ، ورحـل العلاء فى نحو من ثـلاثمائة من أصحابه وخـاصته إلى طرابلس ، وكان ابن الجارود وصل إليهـا قبل وصول العلاء فلقى بها يقطين بن موسى ، فخرج معه سائراً يريد المشرق ، فلقوا هرثمة بن أعين بأجدابية فصيره إلى منصور بن زيادة ببرقة ، فخرج به هـو ويقطين حتى وصل إلى هارون الرشيد ، وكان العلاء قد كتب إلى منصور وهرثمة يعلمهما أنه هـو الذى أخرج ابن الجارود من إفريقية وكتب إليه بالقـدوم ، وأجازه بجـائزة سنية ، ووصل إلى مصر ، وبلـغ وصولـه أمير المؤمنين هارون ، فكتب له بمائة ألف درهم ، سوى الكساء فلم يلبث إلا يسيراً حتى توفى بمصر .

ولاية محمد بن مقاتل بن حكيم العكى

لما كتب هرثمة إلى هارون ، يسأله المعافاة وجّه ابن مقاتل أميراً للمغرب ، وكان رضيع هارون ، وكان أبوه مقـاتل من كبار أهل دعوتهـم وجلة من قام فيهـــا ، وكان من قُحطبة ابن شبيب فى حـروبه حتى ظهـر أمر المسـودة ، وكـان مقاتل بن حكيم مع أبى جعفـر لا يفارقه ، وولاّه على حرّان ، فلما خلع عبد الله بن على وحاصر مقاتل بن حكيم بحران ، ثم آمّنه واحتال عليه حتى قتله ، وكان جعفر بن يحيى شديد العناية بمحمد بن مقاتل . فقدم القيروان فى شهر رمضان سنة إحدى وثمانين ومائة ، ولم يكن بالمحمود السيرة ، فاضطربت أموره واختلف جنده ، ولم يكن من قبح سوء رأيه وسيرته وقبيح ما يؤثر من أخباره إلاّ إقدامه على عابد زمانه ووَرِع عصره البهلوان بن راشد فإنه ضربه بالسياط ظلماً وحبسه ، وكان . .

ولاية هرثمة بن الأعين

وقـدم هرثمـة بن أعين القيروان مستهل ربيع الآخـر سنة سبع وسبعين ومـائة ، فأمن الناس وسكنهم وأحسن إليهم ، وهو الذى بنى القصر الكبير بالمنستير ، وذلك سنة ثمانين ومائة على يدى زكرياء بن قادم وبنى أيضا سور مدينة طرابلس مما يلى البحر ، وواتر الكتب إلى هارون الرشيد فى الاستعفاء من إفريقيـة ، لِما رأى من الاختلاف بها وسوء طاعة أهلها ، فكتب إليه هارون بالقدوم إليه فرجع فى أول شهر رمضـــان سنة إحدى وثمانين ومائة .

ذلك سبب موته وروى أنه لما حبس قال : « أما إنى كنت أمر بالسجن فما سألت ربى العافية منه » .

وكـان سبب عزل ابن العكى عن المغـرب : أنـه اقتطع من أرزاق الجند وأسـاء السيرة فيهم وفى الرعية ، وأن فلاحا القائد مشى فى أهل الشام وأهل خراسان ، فلم يزل بهم حتى اجتمع رأيهم على تقديم مرّة بن مخلد الأزدى وخرج عليـه تمام بن تميم التميمى وكان عامله عليها ، وقد بايعه جماعة من القـواد ، وأهل الشام وأهل خراسان ، فزحف فى النصف من شهر رمضان سنـة ثلاث وثمانين ومائة متوجهـاً إلى القيروان ، وخرج إليه ابن العكى فيمن معه ، فاقتتلـوا قتالاً شديداً فى منية الخيل ، فـانهزم ابن العكى ، فدخل القيروان ، ومضى إلى دار كـان قبلُ بناهـا ، فتحصن فيهـا وخلى عن دار الإمارة . فأقبل تمام فعسكـر خلف الـوادى ، بباب أبى الـربيع عند مصلى روح بن حـاتم ، فلما أصبح تمام فتحت له أبـواب القيروان ، فدخلها يوم الأربعاء لخمس باقين من شهر رمضان ، فأمّنه تمام على دمه وماله ، على أن يخرج عنه فخرج عنها تلك الليلة ، فسار حتى وصل إلى طرابلس ثم مضى منها إلى سرت ، ولحق بطرابلس قوم من أهل خراسان ، منهم عباس بن طرحون صاحب شرطته ، وأبو العنبر كاتبه ، فـأجمع رأيهم على أن يكتبوا إليه بالرجوع إلى طرابلس ، فـأرسلوا إليه وهو مقيم بسرت ، فرجع إلى طرابلس ، وأقام تمام بـالقيروان فنهض إليه إبراهيم بن الأغلب من الزاب فى نصرة ابن العكى . فلما بلغ تمامـاً إقباله إليه جـلا من القيروان ومضى إلى تونس ،

ودخل إبراهيم بن الأغلب القيروان بعد أن قـدم عمران بن مخالد ونادى . . . . ممن انتهب داراً أو كافأ أحداً على أمر ركبه فى دولة تمام .

وجاء إبـراهيم بعد ذلك فـدخل القيروان ، فبدأ بـالمسجد فصلى ركعتين ثم طلع المنبر فخطب النـاس وأخبرهم أن أميرهم محمد بن مقـاتل . وكتب إليه يخبره بما فعل ، ويسألـه الرجوع إلى القيروان . فأقبل راجعاً حتى دخل ومن معه من أهل القيروان ، فلما صار بسوق اليهود ، وقد أشرف الناس عليه من دورهم نادته امرأة من جملة الناس : « اشكر إبراهيم ، فإنه الذى رد عليك ملكك بإفريقية ! » .

وأن تمام قال لخاصة من أصحابـه ، منهم عيسى بن الجلودى وعباس الصليفى : « إن إبراهيم قد رد الثغر على العكى والذين مع العكى قـد ملئوا رعباً من وقعاتنا بهم وقد بلغهم خروجى ، لقد أسلم العكى وساروا إلى ومع ذلك أنـه حسود ، ومع ذلك أنه يخالف أمرهم فيما يشيرون به عليـه ، فكاتب الناس فتسرع إليـه منهم كثير ، فكان الرجل لايـزال يقوم فى الجماعة ، فيقول : قد كنا استرحنـا من ابن العكى ، فجاء إبراهيم فغلب على الثغر ورده ، فالموت خير من الحيـاة فى سلطان بن العكى ، فنزع إلى تمام الناس ، فلما رأوا كثـرة من معه . . . . نفساً بقتال ابن العكى ، وقال للناس : « إن إبراهيم لو أحيا لابن العكى أباه ما كان إلا متهماً له » .

وكتب تمام إلى محمد بن مقـاتل العكى : « أما بعد ، فـإن إبراهيم بن الأغلب لم يبعث إليك فيردك من كرامتك عليه ، ولا للطاعة التى يظهرها ، ولكنه كره أن يبلغك أحد البلاد فترجع إليه فإن منعك كـان مخالفاً ، وإن دفعهـا إليك كان كارهـاً فى جعلها لغيره ، فبعث إليك لترجع ثم يسلّمك إلى القتل ، وغداً تعرف ما جربت من وقعتنا أمس .

« وفى آخره : »

ومـا كـان إبـراهيم من فضل طـاعـةٍ ... يـــرد عليك الثغـــر إلا لتُقتَـــلا

فلـــو كُنت ذا عقـلٍ وعلمٍ بكيــــده ... لما كُنت منـــهُ يـــا بن عـك لتقْبــلاَ

فلما وصل كتابه إلى ابن العكى قرأه ودفعه إلى إبراهيم فلما قرأه ضحك ، وقال : « قاتله الله ، ضُعف عقله زين له ما كتب به » . فكتب إليه ابن العكى : « من محمد بن مقاتل إلى النّاكث تمام ، أما بعد : بلغنى كتابك ودلنى ما فيه على قلة رأيك ، وفهمت قولك فى إبراهيم ، فإن كنت كتبته نصيحة ، فليس من خان الله ورسوله وكان من المفسدين بمقبول منه ما يتنصح به ، وإن كانت خديعة فأقبح الخدائع ما فطن له ، وأمّا ما ذكرت من إسلام إبراهيم إذا التقينا فلعمر أبيك ما يلقاك غيره ، وأما قولك : إنا جر بنا من وقعتك أمس ما سنعرفه غداً ، فإن الحرب سجال ، فلنا ، يا تمام عليك العقبى إن شاء الله .

« فى أسفله : »

وإنى لأرجــــو إن لقيت ابـن الأغلب غــــداة المنـــايـــا أن تفل وتُقْتـــلا
تُلاقى فتىً يسْتصحِب الموت فى الوغى ويحمى بِصـدر الـرمح مجْداً مُـؤثَّـلا

فأقبل تمام من تونس فى عسكر عظيم ، وأمر ابن العكى من كان معه من أهل الطاعة بالخروج إلى تمام ، فعسكروا إلى تونس ثم أقبل على إبراهيم فقال : « ما ترى ؟ » فقال : « إن تماماً طمع فيك ، وتصديق ذلك أنه هرب منى فيمن معه وأنا فى قلة ، ثم دعاه طمعه أن اجترأ على الإقدام عليك وأنا معك وعندى عصابة قد جربتهم ، فأقم حتى أكون أنا الذى أنتدب إلى قتالهم ، وأن أبيت إلا الخروج تقدمتك » فقال : « افعل ما رأيت » . فبعث إبراهيم إلى أهل بيته ، وأصحابه ومعه عمران بن مخالد ، وعمرو بن معاوية وابن العكى ورائهم فى معظم العسكر ، ثم ساروا حتى نزلوا منية لخيل ، وأقبل تمام حتى ضار بطساس وعبأ إبراهيم الخيل ، وزحفوا إليه فاقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم تمام وقتل جماعة من أصحابه ومضى إلى تونس ، وانصرف ابن العكى إلى القيروان . ثم أمر إبراهيم بالمسير إلى تمام بتونس وذلك مستهل المحرم سنة أربع وثمانين ومائة .

فلما بلغ تمام إقباله كتب إليه فى الأمان ، فأمنه وأقبل به إلى القيروان يوم الجمعة لثمان

خلون من المحرم ، فلما صار الأمر إلى إبراهيم بعث تمّام بن تميم ، والجلودى والطيفى وغيرهم من وجوه الجند الذين من شأنهم الوثوب على الأمراء والخروج عليهم إلى بغداد ، فحبسوا فى الطبق ، فخرج سلمة بن تميم إلى بغداد ، وتلطف حتى دخل إلى أخيه فى السجن ، فنزل إليه وعانقه وسلّم عليه ، وخرج من عنده ، فلزم باب رجل من جلّة أصحاب السلطان فاستأذن عليه وسأله أن يرفع خبره إلى الرشيد أمير المؤمنين ، فاستأذن له عليه فدخل ، فأعلمه بنفسه وقال : « يا أمير المؤمنين كان أبى من وجوه القواد ، قواد جدك المنصور أمير المؤمنين ، فأمر له بصلة وكسوة وأن ينزل فى دار الضيافة ، ووعده بإطلاق أخيه تمام وأن يرجع إلى إفريقية ، فبلغ ذلك إبراهيم ، فبعث إلى امرأة كانت تعالج لتمام ما يشتهى أن تُسمِّه فيه ، قال : فاشتهى حوتاً فسمته له ، فأكل فمات ، فلما كان بعد ذلك دعا هارون الرشيد بالسجّان فأمره بإحضار تمام فأعلمه بوفاته ، فأخرج صاحبيه الجلودى والطيفى فولى الجلودى الحرمين والطيفى بعض عمله ، ودخل سلمة إلى أمير المؤمنين فترحّم على تمام ، وأمر لسلمة بسجل إلى إبراهيم بن الأغلب ليعلم قدره وقدر أهل بيته ويجعلهم فى أوفر الصلاة ، ورفع عنهم الخراج فيما صار إليهم من الضيّاع ، وأن يستعين بهم فى الأعمال ، وأمر له بجائزة وصرفه إلى إفريقية . فلما وصل إلى إبراهيم أنزله معه فى القصر وأكرمه وولاّه ولايات كثيرة . وسنذكر ولاية إبراهيم من الرشيد أمير المؤمنين إن شاء الله تعالى .

ابتداء دولة بنى الأغلب

ولاية إبراهيم بن الأغلب بن سالم التميمى

كان إبراهيم بن الأغلب فقيهاً ديّناً ، عالماً شاعراً خطيباً ، ذا رأى وبأس وحزم وعلم بالحروب ومكائدها ، جرىء الجنان طويل اللسان ، حسن السيرة . ولم يل إفريقية قبله أحد من الأمراء أعدل منه سيرة ولا أحسن سياسة ولا أرفق برعيّة ، ولا أضبط بأمر ، وكان كثير [الطلب] للعلم والاختلاف إلى الليث بن سعد الفقيه ، والليث وهب له جُلاجل ،

أمَّ زيـادة اللــه ابنـه . . . . إبـراهيم خـرج يـومـا من عنـد الليث ، فلقى غلمان الليث . . . . . المائدة ، فـرجع إبـراهيم ودخل المجلس فأكـل معـه فأعجب ذلك الليث وسّره ، وقال : « لتكوننّ لهذا نبأ وشأن » فلما أراد إبراهيم الخروج إلى المغـرب أتى الليث ليودعه فقال له : « يا أبا إسحـاق ، قد كنت رأيتك تطرب إلى هذه الجارية ـ يعنى جـلاجل ـ وهى أديبة ذكية ، وأنت خارج وقد وهبتها لك ، فاقبلها » ، وكـانت الجارية بكراً فافتضها من ليلتها وخـرج بها حتى وصل إلى الـزاب وعلى إفريقيـة الفضل بن روح ، فلقى من تعصبـه وسـوء مجاورته عظيماً ، وأقام أخـوه عبد الله بن الأغلب بمصر ، وكان ذا نعمة عظيمـة ، وتــوفى عبد الله بمصر فترحّل بنوه إلى إفريقية .

حكى أحمد بن ميسر ، قال : قرأت بمصر على قبر عبـد الله بن الأغلب وعلى قبر من قد مات : « قف ثم نادِه ، أيـا من خلت فى الأرض منه المنازل ، بنيت فلم تسكن ولم تأكل الـذى جمعت ولا أدركت مـا كنت تأمل » ، وكـانت ولايتـه الـزاب من قبل هـارون ، وابن العكى على إفريقية ، وذكرنا نصرته له ومعاونته إياه ومحاربته تمام .

قال محمد بن الوكيل ، قال : إنى سمعت إبراهيم بن الأغلب ونحن نريد إفريقية وقد خلف أهله بمصر ينشد :

مـا سِرتُ ميـلاً ولا جـاوزْت مـرْحلـةً ... إلاّ وذِكْـــرُك يلْـــوِى دائِماً عُنُقِى
ولا ذكــرْتُـك إلاّ كُنْتُ مـــرْتقِبــاً ... أرعَى النُّجُــوم كأنَّ الليْـثَ مُعْتنِقِى

وهو القائل :

ألَم تــرنِى بـالكيْـدِ أرديْتُ راشِــداً ... بِأُخـرى وإنِّى لابن إدريس راصــدُ
تنــاولــهُ عـــزْمِى على نأْيِ داره ... بِمخْتُــومــةٍ فى طيّهنَّ المكـــائِدُ
فمات أخـــو عَكًّ بِمهْلِكِ راشِــدِ ... وَقَـدْ كُنْتُ فيهَا شَـاهـداً وَهـوَ شَاهـدُ

وكان راشد هذا قد علا أمره بالمغـرب واسـتفحل . وهو مولى أدريس بن عبد الله بن حسن ، وكانت همّتـه غزو إفريقية لما هـو فيه من القوّة والكثرة ، ولم يـزل يكيده ويدسّ فى أصحابه ويبذل لهم الأموال إلى أن اغتـالوه ، فقتـلوه وبعثوا برأسه إليه ، فبعثه إلى محمد ابن مقاتل ، فبعثه محمـد بن مقاتل إلى الرشيد ونسب الأمر كلـه إلى نفسه ، فبعث صاحب بريـد المغـرب إلى هـارون بصنيع إبراهيم فى راشـد . فلما قرأ هـارون كتـاب ابن العكى قـال : « كذب صاحب البريد أصدق » وحسّن ذلك لإبراهيم عند الرشيد .

وأمـا حديث إدريس مـولاه ، فإن الحسن بن على بن الحسن بن على بن أبى طـالب ـ رضوان الله عليه ـ كان قدم قام بـالمدينة سبعة أيام . . . موسى الهادى ، ثم خرج إلى مكة فى ذى القعـدة سنة سبع وستين ومـائة ، وخـرج معـه جماعة من أخـوتـه . . . منهم يحيى وإدريس بنى عبد الله بن الحسين بن على ، وبلغ ذلك الهادى فولّى حربه محمد بن سليمان ابن على ، وكانت الـوقعة بفخّ ، فقتل الحسن بن على وأكثر أصحـابه ، وأفلت أدريس بن عبـد الله بن حسن بـن على بن أبى طالب ـ رضى اللـه عنهم ـ فوقع إلى مصر وكـان على بريـدها واضح مولى صـالح بن منصور ، وكـان رافضياً فحمّله على البريـد إلى أن صار إلى المغرب ، فـوقع بمدينة مليلـة من طنجة ، فاستخلـف له من بها وبأعراضهـا من البربر ، وولى الرشيد فبلغـه أمره ، فبعث إلى واضح فضرب عنقه ودس إلى إدريس الشماخ التميمى مولى . . . . وكتب له كتـاباً إلى إبراهيم بن الأغلب ، فخرج حتى وصل إلى مليلـة ، فذكر أنه متطبب وأنه من شيعته ، ووصل إلى إدريس فوصلـه واطمأن إليه ، ثم إنه شكا إليه علة فى أسنانه ، فأعطاه سنونًا مسموماً قاتلا ، وأمره أن يسْتنّ به عند طلوع الفجر ، فأخذه منه وهرب الشماخ من تحت ليلته . فلما طلع الفجر استن منه إدريس ، فسقطت أسنانه ومات من وقته ، وطلب الشمّاخ فلم يظفر به ، وقدم على إبراهيم بن الأغلب فأخبره بما كان منه .

قـال وجاءتـه قبل مقـدمه الأخبار بمـوت إدريس ، فكتب ابن الأغلب إلى الرشيـد بذلك ، فولى الشمّاخ بريد مصر ، وأحسن إليه .

وولد لإدريس ولـد فسمى باسم أبيـه ، ونشأ فيهم فعظّموه ، فعـامة من بـالمغرب من

الإدريسية من ولده ، وهم إلى اليوم فى تلك الناحية مالكين أمرها ما . . . . . وكانت جارية إدريس التى ولدت ابنه تسمى كثيرة البربرية .

وكان إبراهيم لما عزم على النهوض من الزاب لنصرة ابن العكى على تمام لم يجد مالاً يقوى به ، فسأل التّجار أن يقرضوه مالاً ، فتكلم رجلاً منهم فقال : « أصلح الله الأمير ، والله لو قمت وسألتنا أن نخرج من أموالنا لفعلنا ذلك لك ، ولكنك تريد أن تخرج بعدة قليلة إلى أكثر من خمسين ألفاً ، فإن أغناك عن الخروج فنحن أعدى الناس لك ، والذى منع الناس عن إجابتك إلى هذا ، أنهم يقولون إنّك مقتول » . واستقر عند إبراهيم أن أمهات أولاده وخاصته أرسلوا إلى التجار يسألونهم ألاّ يعينوه على الخروج خوفاً عليه ، فلما علم ذلك احتال على أهله وولده ، بأن جمعهم وقال : « لقد كنا بهذا الرجل فى واد وهو لنا فى آخر ، أنا بالأمس أطلب العرض لأستعين به فى قتاله ، وقد جاءنى اليوم كتابه : يسألنى أن أقدم عليه حتى أمد له الأمان وأصلح أمر الناس فقد اجتمعوا على الرضا بما حكمت بينهم وبين ابن العكى ، فسرُّوا بذلك ، فقال : « كيف أرحل بغير مال وقد حلفت ألا اقترض من التجار فى سفرى هذا شيئا ، فأتاه أهله وولده بما كان عندهم من مال وحلى وطمأنوه ، وجمع إبراهيم أهل بيته وبنى عمه وخاصته وكانوا سبعين فارسا ، ففى ذلك يقول بعض الشعراء :

هاتوا لنا رجلاً أرْدَى بِنَجْدتِه ... سبْعين ألفاً بسبْعِينَ مِن النَّاسِ

ما مرّ يومٌ لإبراهيم يعْلمه ... إلاّ وشيمتُهُ للجُودِ والبأسِ

قال : فأقبل إبراهيم ، فوافاه عدّة من أهل خراسان وعدّة من عامة الجنود إليه من كل بلد ، ومعه عمرو بن معاوية ، وعمران بن مخالد ، وحماد بن أبى حماد ، فقام إبراهيم خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه وتكلم بكلام كثير حرّضهم به على قتال تمام ، وكان فيما قال لهم : « والله ما لكم من شام تلجأون إليه ولا عراق تستمدون منه ، ما لنا ملجأ إلا السيوف ، ولا تذرع إلا الصبر ، فمن عزم على غير هذا فقد أذنا له فى الانصراف » فقام

عمرو بن معاوية فقال : « أصلح الله الأمير ، مانشك فى طاعتك وخلافه ، ولا فى حقك وباطله ، وإنك إذا نهضت فى قلة من المال والفرسان بنفسك وأهل بيتك ، لواثق بأن ينصرك الله نصرا يكون مثلا فى الناس ، لأنك أهل لذلك بحسن نيتك وخلوص سريرتك ، وإنك بقية أبرار وخلف أخيار ، ونحن نبلغ مبلغ الجهد فى مناصحتك وإيثار هواك فى الحق على هوانا ، ولك الإجابة منا إلى الدّعوة إليه إن شاء الله . فقام عمران بن مخالد ، فقال : « أصلح الله الأمير ، فوالله ما أحصى ما شهدت من العساكر ما منها عسكر ، إلا وطلائعه أكثر من عسكره والله لايأتيك أمر من الموت بين تلك الجماعة ، ولكأنى بك غداً على منبر القيروان ، وإن نفسى لتحدثنى من نصر الله عز وجل مالو أرسلت رجلاً واحداً لأخذها لك إن شاء الله » .

وأقبل إبراهيم يريد القيروان وعلى مقدمته عمران بن مخالد ، فلما علم بذلك تمام خرج هارباً إلى تونس ، ولما وصل إبراهيم دخل المسجد ، فصعد المنبر واجتمع إليه الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس ، اذكروا ما كنتم فيه من الضر ، وتتابع عفوان البلايا إذا الدولة عليكم لا لكم ، واستقر قلوبكم خشية الاتباع لا تطمعون فى إنصاف ولا يتجاوز همّتكم الكفاف لا تنتصرون من عدوكم إلا بالدعاء ، فى كل يوم دولة وسراد وعصبية وتحرق ولايغير صاحب ذى خلاف ولا يرعوى ذو خلافٍ إلى طاعة ، فقد عادت عليكم . . . يأمن بها خوفكم ويعز بها ذلّكم ، ولست أميركم ولكنى أخذت ثغر أمير المؤمنين ممن أخذه بالخلاف ، وأميرهم محمد بن مقاتل ، وأنا مكاتبه ثم مسلمه إليه إن شاء الله . ثم أنشد يقول :

لَوْ كُنتُ لاَقى تمامٍ لَسارَ بهِ ... ضرب يُفرقُ بين الروح والجسدِ
ولكنه حين سام الموت يقدمنى ... ولىّ فراراً وخلى لى عن البلدِ
إن يستقم نعف عما كان قدمه ... وإن يعد بعدها فى غيه نعدِ

ثم نزل وكتب إلى محمد بن مقاتل فى ذلك بقدومه عليه ، وقال :

ألم تـــرنى رددت طـــريـــد عنكم   وقـــد نـزحت بـــه أيـــدى الـركـــابِ
أخـــذت الثغــــر فى سبعين ممـــا   وقـــد وافى على شرف الـــذهـــابِ
هـــزمت بهم بعـــدتهم ألـــوفـــا   كـأن عليهـم قطـع السحـــــابِ

وأقبل العكى حتى وصل القيروان ، ولما بلغ تمام رجوعه جمع له وأتاه ، فخرج إليه العكى وإبراهيم على مقدمته ، على فرس أشقر مخذرف ، ثم دعا بحمزة الحرون فقال له : « قف فى موضعى وإياك أن تتحرك إلا أن تعلم أنى قد أصبت » ثم رجع إلى ميمنة تمام وهو يقول :

متـى أرى كما أريـــــد عفـــــواً   أو أحسـون كـأس المنـايـا حسـواً

قال : فكسر الميمنة ثم رجع إلى الميسرة فشد عليها وهو يقول :

قـــد علـم ابن سعـــــد وأفتى مُضر   أنَّ مَغيـبَ عَــــزِّهــــا أنْ نَنتْصرْ

ففضها ثم رجع إلى القلب من عسكره وحمزة فى الموضع الذى أمره أن يقف فيه ، ثم أرسل إلى صاحب ميمنته وميسرته : « إذا رأيتما القلب من عسكرهم قد تضعضع ، فليركب كل واحد منكما ما قبله » . ثم شد على القلب وجعل أصحابه يفعلون ما أمرهم فكانت الهزيمة . فكتب يحيى بن الفضل صاحب البريد إلى هارون بخبر ابن العكى وتمام ، وما كان من أمورهم وشرح الأمر على حسبه . فلما قرأ الكتاب على أصحابه وعرفهم ما فعل إبراهيم شاورهم وقال : « ما ترون فى أمر إبراهيم ؟ » وقال لهرثمة بن أعين : « أنت قريب العهد » فقال أمير المؤمنين : « أنت سألتنى فى مقدمى منها عن طاعة أهلها وأخبرتك أنه

ليس بها أحد أفضل طاعة ولا أبعد صيتا ولا أرضى عند الناس من إبراهيم ، ثم صدق فولى قيامه بطاعتك » قـال : « أصبت وأرجوا أن أكون قد رميتها بحجرهـا ، اكتبوا له عهده على إفـريقيـة . فلما وصل الكتاب إلى يحيى بـن زياد صـاحب البريـد ، انطلق إلى إبـراهيم بن الأغلب ، فقال إنى أريد أن أدخل عليك ولا يكون عنـدك أحد . فأخرج من كان عنده ، فدخل عليه فسلم بالأمرة ودفع إليه عهده . فأرسل إبراهيم إلى ابن العكى : « اقم ما شئت حتى تتجهز » ، فأقام أيـاماً ثم رحل إلى طرابلس . فوافاه حماد السعـودى بكتابين قدم بهما إلى ثغر إفريقيـة حسبما كانت تجرى به إلى أصحاب الثغـور ، فافترى ابن العكى كتابـاً ثالثاً بعزل إبـراهيم وبعث بـه مع الكتابين إلى القيروان فلما قـرأ الكتاب على الناس مـع الكتابين اجتمع الناس إلى إبراهيم ، فقالوا : « أقم ــ أصلح الله الأمير ـ بمكانك ، واكتب إلى أمير المؤمنين فإن ابن العكى اختلق هذا الكتاب زوراً ولم يكـافئك على نصرتك له وحقنك دمه » فقال إبـراهيم : « والله لقد ظننت ظنكم وهممت أن أسير إليه حتى أطعمـه هذه الكتب ، وإنما اجترأ ابن العكى على ثغرنا لموضعه من جعفر بن يحيى » .

ثم عسكر إبراهـيم يـريد الخـروج إلى الزاب ، فأتى كتــاب ابن العكى إلى سهل ابن حجاب يستحلفـه إلى قدومه ، فكتب صاحب البريـد بالخبر كله إلى هارون الـرشيد ، فغضب وكتب إلى ابن العكى : « أما بعد فلـم يكن آخر أمـرك يشبهه إلا أوله فلأى مناقبك أو بـرك على إبراهيم بـولاية الثغـر ، أم لفـرارك وإقدامـه ، أو لجزعك وصبره ، أم لخلافك وطاعتـه . فإذا نظرت فى كتـابى فأقـدم غير محمود الفعال » . وكتـب إلى إبراهيم بتجـديد ولايته ، فوصـل الرسول بالكتاب إلى القيروان ، وإبـراهيم بالزاب ، فمضى بـالكتاب إليه فكانت ولايته الأخرى التى استقـر بها ملكه وملك ولده لاثنتى عشرة ليلة مضت من جمادى الآخرة سنة أربع وثمانين ومائة . وقفل ابن العكى إلى المشرق .

فلما ولى إبـراهيم انقمع الشر بإفريقيـة ، وضبط أمرهـا وأحـسن إلى من بها من أهل الخير ، ثم ولى تمام طـرابلس ، فلما استقر البلـد وجه إليـه جعفر بن سـعيد وجـوين بن السماك . فأخذ تمامـاً وشده وثاقـاً وبعث به إلى هـارون ، وبعث بعباس الطيفى وأبى الميل

وعيسى الجلى ، وغيرهم ممن كان يتوثب على الأمراء ؛ لأن كل عـامل من عمال إفريقية كان من وجوه الجنـد على خوف من قيـامهم ؛ لأن أكثرهـم يرى أنـه أحق بالأمـر منه ، فلما ولى إبـراهيم علم أنـه لا سلطان لـه عليهم مـادام بين أظهـرهم ، فصرف من صرف إلى المشرق منهم ، واشترى مـوضع القصر القديم من ابن طـالـوت او شى ، وابتنى به قصراً فجعلـه متنزهـا ، ثم جعل ينقل إليه السلاح والأمـوال سراً وهو فى خلال ذلك يراعى أمـور أجناده ويصلح طـاعتهم ، ويتفقـد أمـورهم ، ويصبر على جفـائهم ، وأخـذ فى شراء العبيـد ، وأظهر أنه يـريد أن يتخذ من كل صناعة صنعة تغنيـه عن استعمال الرعية فى كل شىء من أمورهم ، ثم اشترى عبيداً لحمل سـلاحه ، وأظهر للجند أنـه أراد بذلك إكرامهم عن حمل سلاحه . ولما تهيأ لـه من ذلك ما أراد انتقل من دار الإمارة ، وصـار إلى قصره بعبيدة وأهله وحشمـه وأهل بيته ، وكـان انتقالـه ليلاً ، وأسكن معـه من يثق به من الجنـد، وكان يتـولى الصـلاة بنفسـه فى المسجد الجامع الـذى فى القيروان والمسجـد الـذى بناه وشـاده بـالقصر القديم .

فذكر أنه صلى يوما ، فلما قضى الصلاة عثر ببعض الحصر ، فأمر أن يؤتى بمن حضر الصلاة من وجوه الناس ، فلما أتوا قال لهم : « استكهنونى » فأبوا فقال : « لا بد » فقال : « إنى خفت أن يقول إنـى خرجت أصلى وأنا سكـران ، فأحببت أن تعلموا مـرادى » وكان حافظاً للقرآن عالما به .

وكان أبـو عبد الـرحمن النفزى الكوفى يقـول : قال لى الأمير إبـراهيم : « أحب أن أقرأ عليك القرآن ولك بكل حـرف اخطئه مائة درهم » فقلت : « إذاً تقلّ درهمى ــ أصلح الله الأمير ـ » فقـرأ علىّ فما أخطأ غير حرف واحـد نقله من موضـــع إلى مـوضع ، وذلك قـوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِـالبَيِّنَاتِ ﴾ فى سورة المؤمنين ، قـرأ هو : بأنه كانت تأتيهم . وهـــو « بأنهم ـ ها هنا ـ كانت تأتيهم » . فى التغابن « ذلك بأنه » .

ووفد عليـه رجل من المشرق ، وكـان أديباً ، وقد سخط إبـراهيم على رجال مـن الجند خالفوا عليه فاستشفعوا بهذا الرجل ، فقال : مثلى ومثلهم كما قال الشاعر :

كأنى سلبت القـوم نور عيـونهم وقد   فـلا العـذر مقبول ولا الـذنب يغْفـرُ
كـان وقد كـان إحسانى لهم غير مـرة   ولكن إحســـان البغيـض يُكفـــر

فقال : بل مثلك ومثلهم أيها الأمير ، كما قال مروان بن أبى حفصة :

فما أحجم الأعـــداء عنك تقيـــة   عليك ولكن لم يـروا فيك مطمعـــا

فضحك وسر بقوله وعفا له عن القوم .

وثار رجل من أبناء العرب ، يقال لـه حمد يس بن عبد الرحمن الكندى ، فخلع السواد وجمع جموعاً كثيرة ، وأتى بعرب أهل البلاد وبربرهـا ، فلما كثرت جموعه بمدينة تونس بعث إبراهيم عمـران بن مخالد إلى تونس ، وبعث معـه عسكراً فيه وجوه القـواد ، وأمره أن يحث السير إليه ، وكـان فيما أوصاه بـه أن قال : « يـا عمران ، إن أعظم النـاس خطراً وأفلحهم حجة الحازم المعدّ لأمره ، وأعلم أن العـرب لم يخـرج بها مخـــالف قط منذ جـــاءت دولة بنى العباس وهو أعظم كفراً من هذا الفـاسق ولا أبين بالخلافة ، ولا أشك أن الله سيقطع دابره ، فإن ظفر الله تعالى به فاقطع أثره وأثر من يتابعه ، وأعلم أنك إن أبقيت منهم رجلا ممن يـرى رأيه لم تعـدم أن ترى كل يـوم قـرن فتنة نجم ، وعقـال خلاف انطلق ، فـانهدّ لما أمرتك به ، ولست أدع أن أمدك بالخيل إن شـاء الله »، فسار عمران بن مخالد حتى لقيهم بسبخة تونس فـاقتتلوا قتالاً شديـداً ، وكثر بينهم القتل حتى جعل ناس من أصـــحاب حمد يس يقولون « بغداد بغداد ، فلا والله لا اتخذت لكم طاعة بعد اليوم أبداً » .

وأبلى حمزة بن الشبـاك ذلك اليوم بـلاء عظيما ، ونـادى عمران فى أصحـابـه « يا أبنـاء الدعـوة وأهل الطاعة لابـد من الموت ، فهبوا إلى اللـه ساعة من الصبر والحفيظـة » ومازال يحرضهم ، فمازال حمد يس وأصحابـه إلى أن انكشفوا وقتلوا مقتلـة عظيمة ، وقتل حمد يس فدخل عمـران تونس فجعل يتبعهـم ويقتلهم حتى أفناهم . وكـان خروجه فى سنـة ست وثمانين ومائة .

وكتب إبـراهيم بأمر حمد يس إلى الـرشيد بـرسالـة كبيرة ، وصف فيها ابتـداء خروجـه وحـروبـه إلى مقتلـه ، وأعلمه أنـه قتل من أصحـابـه عشرة آلاف ، فلما استقـامت الأمـور

لإبراهيم بن الأغلب ، واشتدت لظاته بلغه ما اجتمع لإدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن حسين بن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ــ من الجموع وأطاعه من حوله من القبائل ، فدعـا يحيى بن الفضل صاحب البريد وابن غانم القـاضى وابن عوانة الكلبى ، فشاورهم فى أمر إدريس ، وتكلم بكلام كثير ، فقـالوا : « أصلح الله الأمير ، قد علم من حضر وغاب من أمر المغـرب إنه لم يظفر بمثل ظفـــرك ، ولا كـــان له مـا كان لك ، فدع ابن إدريس ما وادعك ، وأرض لك وله بالسلامة . .

قال بعضهم : إن ابن إدريس لم يجتمع إليـه إلا . . . . . . [فقال ابن] غـانـم : « وما هو هذا ؟ » قـال : « السم القاتل من ساعته ! » قال : « أرنيه » فـدفعها إليه ، فضرب بها ابن غانم عمـوداً كان فى المجلس ، فكـــسرها وأراق ما فيها ، فقـــال لـه : « ما صنعت ويحك ؟ ! » قال : « أو أترك معك ما يقتل الناس اغتيالاً»

وشق إبراهيم بن الأغلب يوماً سماط القيروان ومعه ابن غانم من باب أبى الربيع ، فلما صـار إلى موضع البـزازين ، وزادت دابته فى المشـى ، فجازت دابـة ابن غانم ، فجـازه فى المشى ، فلما رأى ذلك وجه دابته إلى داره ، فأرسل إليه إبراهيم وقال له : « ما حملك على أن عطفت حتى فـارقتنى ؟ » فقـال : « أصلح الله الأمير ، إنما القـاضى بحـرمته وإنما تنفـذ أحكامه بقدر نفوذ جأشه وتحركت دابتك فلو ساعدتك وحركت دابتى سقطت قلنسوتى ، وإذا سقطت قلنسوة القاضى لعب بها الصبيان ! » .

قال : وكان إبراهيم بن الأغلب جالساً يوماً وعنده ابن غانم فدخل عليه صاحب بريد إفريقية ، وقد وردت عليه كتـب من هارون الرشـــيد فدفع الرسول إلى إبراهيم كتابه وإلى ابن غانم كتابه ، فقرأ إبراهيم كتابـه ودفعه إلى ابن غانم ، فقرأه ورده على إبراهيم ، فقال له إبراهيم : « هـات كتابك اقرأه . . . . . من ذلك » فقـال له : « فلم قرأت كتــابى ؟ ! » قال : « أنت دفعته إلى ومددت به يدك ، وكـرهت أن أردها ، وأما أنا فلست أطلعك عليه فإن أمير المؤمنين أسر إلى فيه شيئا لا أطلع عليـه أحداً » فقال له إبـراهيم : « أما علمت أنه يقال إن أمير إفريقية يقتل قاضيها ؟ ! » قال : « أعلم أن قد ذكر ذلك ، ولكن لست ذلك

الأمير ولا أنا ذلك القاضى » ، وإنما تهيأ لابن غانم هذا لكتابة هارون إليه وكان من قبله ، ولا أطلق لإبراهيم عزله . فلما مات ابن غانم صلى عليه إبراهيم بن الأغلب ، ثم جلس على كرسى ينتظر دفنه ، فوقف على قبره معد بن عقال خال إبراهيم وكان عامله على القيروان ، فجعل يجزع ويبكى على ابن غانم فلما فرغوا من دفنه دعا إبراهيم بمعد فقال له : « لم بكيت على ابن غانم ؟ » قال : « كان لى صديقا أبر كابن غانم » فقال له إبراهيم : « والله ما ملكنا إفريقية ولا أمنا إذا مات ابن غانم » . وتوفى ابن غانم من فالج أصابه فى شهر ربيع الآخر سنة تسعين ومائة أيام إبراهيم بن الأغلب . وولى إبراهيم القضاء أبا محرز ، واسمه محمد بن عبد الله ، وذلك فى سنة إحدى وتسعين ومائة بعد موت ابن غانم .

قال سليمان بن عمران : لما ما ابن غانم أراد إبراهيم أن يولى القضاء رجلاً فقال له رجل من أكابر أصحابه أن قال سليمان بن عمران : وكان مالك بن أنس يجل عبد الله بن غانم ، فإذا جاءه أقعده إلى جانبه ، وأقبل إليه يسأله عن المغرب وأخباره ، فكان إذا رآه ابن القاسم وطلبة العلم معه قالوا : « شغله المغربى عنا » . فلما بلغ مالكاً ولاية ابن غانم القضاء قال لأصحابه : « علمتم أن الفتى الحميرى الذى كان يجالسنا قد استقضى على إفريقية . وكان مالك قد عرض عليه أن يزوجه ابنته ويقيم عنده ، فامتنع وقال . إن أخرجتها إلى إفريقية تزوجتها .

وعن عبد الله بن أبى حسان قال : مضيت على عبد الله بن عمر بن غانم بعد ولايته القضاء إلى ضيعة بالديدان فقال لى فى الطريق : « ما يقول الناس يا بن حسان فى ولايتى » قلت : « ولاك ابن فروخ » قال : « على ذلك ، لقد قال لى الأمير روح بن حاتم ، والله ما خرجت إلى إفريقية إلا وأنت قاضى » قال : « قلت كيف ذلك ؟ » قال : « لما أردت الخروج إلى إفريقية دخلت على أبى يوسف القاضى ، وهو إذ ذاك قاضى القضاة ، فقلت يا أبا يوسف ، قد ولانى أمير المؤمنين إفريقية ، وأنا خارج فما كانت لك من حاجة

فأذكرها » قال « أوصيك بتقوى الله ، وبمدينـة القيروان فتى يقال له عبد الله بن غانم قد فقه ، فوله قضاء إفريقية » فقلت له : « نعم » ثم ودعته ، فذلك الوقت وليت .

وكان هارون الرشيد يكاتب ابن غـانم وكان بعد ذلك قضاؤه من قبله لا من قبل ولاته على إفريقية . وكـان يكتب فى عنوانه : من هارون أمير المؤمنين إلى قاضى إفريقيـة عبد الله ابن عمر بن غانم .

وحكى سحنون قال : شهـد قوم من أهل البادية عند عبد اللـه بن غانم ، فلم يحسنوا الشهادة ، فقال : « كل من بـالبادية طريف إلا الـرجال » . وكان ابن غانم يكـــتب إلى مالك بن أنس ـ رحمه الله ـ وإلى أبى يـوسف القاضى فيما ينزل من نوازل الخصوم . فحكى عن هشام بن معـدان كاتب أبى يوسف القـاضى : قال : كنت إلى جـانب أبى يوسف فى مجلس قضائه إذ ورد عليـه رجل معتم فى زى أهل إفريقيـة فصاح : كتاب أبى عبـد الرحمن عبدالله بن غانم قاضى إفريقية ، فدعا به فلما صار بين يديه دفع الكتاب إليه ، فسأله من أنت قال : « أنا أبو التمام عبد الوهاب بن محمد خرجت حاجاً ، فكتب معى ابن غانم هذا الكتاب إليك وأمرنى بإيصـاله بنفسى وأخذ الجواب » ، فقال هاشم : فـدفعه إلى ، وقال« فضه واقرأه وارفـع صوتك يا هشام وأعلن بقـراء ته » ففعلت وقرأته عليه وأصـاخ نحوه فإذا فيه مسائل مما نـزل به يشاوره فيها ويستقضيه فى جوابها ، فلما فرغت من قراء تـه أمر بدرجة ، ثـم التفت إلى أبى التمام وقـال : « احضرسفـرك ؟ » قال : « نعم » قـال : « قـد ترى مـا نحن فيه ولعله لا يتهيأ لك الوصول إلينا ، فخـذ جوابك فى مقامك ، يا هشام ، اكتب له فى ظهره : « من يعقوب بن إبراهيم إلى عبد الله بن غانم قاضى إفريقية » ثم دعا له وشكره على تثبته فيما ينزل بـه وأعلمه أن ذلك كان صدر السلف الماضين ، ثـم تـابع إملاء المسائل على نحوهـا فى كتابـه ، كل مسألة وجـوابها ، وما أعاد نظـراً فى الكتاب ، وأمـرنى فختمته وعنونته ، وألقاه إلى أبى التمام وقال له : « هذا جواب صاحبك ، فإن أمكنك الوصول إلينا جددت معك كتاباً » قال هشام : هذا بعض ما يذكر من حفظ أبى يوسف رحمه الله .

قال ابن عبدون القاضى : كان ابن غانـم أحكم الناس ، خاصم عنده ابن زرعة أختا

له ، فحكم لها عليه ، فبلغ ذلك من ابن زرعة كل مبلغ. فوافاه فى طريق الديدان ، فقال له : « يا بن الفاعلة ! » وأغرق فى سبه ، فلم يرد عليه جواباً ، فلما كان بعد ذلك خرج أيضا إلى الديدان فلقيه ابن زرعة فسلم عليه ابن غانم وبره ، وقال له : « امض بنا » فمضى معه إلى متنزهه ، فأحضرطعاما فأكل معه ثم انصرف ، فلما أراد مفارقته قال له : «يا أبا عبد الرحمن ، اغفر لى ، فقد كان من يخطأ إليك » فقال : « أما هذافلست أفعله حتى أخاصمك بين يدى الله تعالى ، وأما أن ينالك منى فى الدنيا مكروه أو عقوبة فأنت آمن من هذا » .

يروى أن عبد الله بن غانم : جاءه ابنه من عند المعلم فسأله عن سورته وحفظه فقرأ عليه أم القرآن ، فأحسن فى قراء ته ، فدفع له عشرين ديناراً ، فلما جاء بها الصبى إلى المؤدب أنكر ذلك وظن بالصبى ظناً فأخذها وجاء بها إلى ابن غانم ، فقال له : « لم رددتها ، هل استقللتها ؟ » فقال المعلم : « ما أتيت لهذا ، إنما ظننت بالصبى ظناً » فقال له : « لحرف واحد مما علمته يعدل الدنيا وما فيها . »

وكان ابن غانم حسن اللباس ، يلبس من الثياب رقيقها ، وقد جعل للنساء يوما يجلس فيه للنظر فيهن ، فكان يلبس القرق الدنىّ والثياب الخلقة ، ثم يضرب ببصره إلى الأرض ، فمن كان لم يره قبل ذلك لم يشك أنه مكفوف . وكان له حظ من الصلاة فى ليله ، فإذا انقضت صلاته وقعد فى آخرها للتشهد . . .

[ولما توفى ابن غانم قال ابن الأغلب : « يا أبا محرز ، إنى عزمت على توليتك القضاء » فقال له أبو محرز : « لست [أصلحه لهذا الأمر ، ولست أطيقه » ، فقال له إبراهيم بن الأغلب] : لو كان لأغلب بن سالم ويزيد بن حاتم باقيين [لم أكن أنا أميراً] ولو كان عبد الرحمن بن أنعم وعبد الله بن فروخ باقيين [لم تكن أنت قاضياً ، ولكل زمان رجال وعلى الأمير الاختيار : ، فقال أبو محرز [متمثلاً] :

[خَلَتِ الديار فسُدتُ] غَيْرَ مُسَوَّد ومنَ الشَّقَاء تَفَرُّدِى بالسُؤْدُد

(فقال له « قد وليتك القضاء » فامتنع فأمر) به فأبى ، فأمر إبراهيم عامر بن المعتمر القائد وكان (صاحب الشرطة ليأخذ بضبعه ويخرجه من باب مقصورة الجامع فيقعد (للنظر بين الخصوم . فلما قدموا إليه نظر أبو محرز فيما بينهم فكبّروا فسمع إبرا هيم بن الأغلب التكبير فقال لأصحابه : (قد قبل أبو محرز القضاء .) . . . . وأربعة أشهر وعشرة أيام .

ولاية أبى العباس عبد الله
ابن إبراهيم بن الأغلب التميمى

لما مات إبراهيم بن الأغلب [انتقلت الولاية من] بعده لابنه أبي العباس عبد الله ، وكان غائبا [بمدينة طرابلس فقام] أخوه زيادة الله بالأمر ، وأخذ له البيعة [على نفسه وعلى أهل بيته] وجميع رجاله ، وقدم أبو العباس [عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب من طرابلس ، فتلقاه أخوه زيادة الله وسلم الأمر إليه .

تم بحمد الله

أ ـ المصادر ومراجع التحقيق :

١ ـ ابن الأبار ـ الحلة السيراء . تحقيق د/ حسين مؤنس القاهرة ١٩٦٣ م .

٢ ـ ابن أبيك ـ الدرة المضية فى أخبار الدولة الفاطمية . تحقيق صلاح الدين المنجد القاهرة ١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦١ م .

٣ ـ ابن الأثير ـ الكامل فى التاريخ دار صادر ـ بيروت ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥ م .

٤ ـ أحمد بن أبى الضياف ـ أتحاف أهل الزمان بأخبار تونس ، تونس ١٩٦٣ .

٥ ـ الإدريسى ـ نزهة المشتاق فى اختراق الأفاق نابولى ـ روما ١٩٥١ م .

٦ ـ الأصفهانى ـ مقاتل الطالبين تحقيق محمد صقر ـ القاهرة ١٩٤٧ م .

٧ ـ ابن واصل الحموى ـ تهذيب الأغانى دار الشعب ـ القاهرة ١٩٦٦ م .

٨ ـ الأنصارى ـ المنهل العذب فى تاريخ طرابلس المغرب ليبيا ـ ١٩٦٦ م .

٩ ـ الباجى المسعودى ـ الخلاصة النقية فى أمراء إفريقية . تحقيق محمد بيرم التونسى . تونس ١٣١٥ هـ ـ ١٨٩٧ م .

١٠ ـ البخارى ـ التاريخ الكبير القاهرة ـ بدون تاريخ .

١١ ـ البكرى ـ المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ـ باريس ١٩١١م .

معجم ما استعجم ـ القاهرة ١٩٤٥ م .

١٢ ـ البلاذرى ـ أنساب الأشراف . تحقيق جريفز فالدسين ١٨٨٣ م .

١٣ ـ التوحيدى ـ الأمتاع والمؤانسة . بيروت ـ بدون تحقيق وتاريخ .

١٤ ـ الجهشيارى ـ الوزراء والكتاب ـ تحقيق لجنة التأليف والترجمة ـ القاهرة ١٩٥٧ م .

١٥ ـ ابن أبى حاتم ـ الجرح والتعديل ـ دمشق ـ ١٩٦٨ م .

١٦ ـ ابن حجر ـ لسان الميزان . دار المعارف النظامية ـ الهند ١٣٢٩ هـ .

ـ تهذيب التهذيب ، دار المعارف النظامية ـ الهند ١٣٢٥ هـ .

١٧ ـ ابن حزم ـ جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٣٨٢ هـ ـ ١٩٦٢ م .

١٨ ـ ابن حوقل ـ صورة الأرض ـ ليدن ١٩٦٨ م .

١٩ ـ ابن حيان ـ مشاهير علماء الأمصار ـ ليدن ١٩٦٨ م .

٢٠ ـ الخزرجى ـ خلاصة تذهيب الكمال ـ بيروت ـ ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م .

٢١ ـ ابن الخطيب ـ أعمال الأعلام ـ الجزء الثالث . تحقيق أحمد مختار العبادى ـ دار البيضاء ـ المغرب ١٩٦٤ م .

الإحاطة فى أخبار غرناطة ـ تحقيق محمد عبد الله عنان القاهرة ١٩٧٧ م .

٢٢ ـ ابن خلدون ـ المقدمة دار الشعب ـ القاهرة ١٩٦٨ م .

العبر من ديوان المبتدأ والخبر ـ بولاق ـ القاهرة ١٢٨٤ هـ .

٢٣ ـ ابن خلكان ـ وفيات الأعيان ـ تحقيق محمد محيى عبد الحميد ـ القاهرة ١٩٤٨ م .

٢٤ ـ الدباغ ـ معالم الإيمان ـ تحقيق الدكتور محمد الأحمدى أبو النوز والدكتور محمد ماضور ـ تونس ١٩١٤ م .

٢٥ ـ ابن أبى دينار ـ المؤسس فى أخبار إفريقية وتونس ـ تحقيق محمد شمام ـ تونس ١٩٦٧ م .

٢٦ ـ الذهبى ـ ميزان الاعتدال فى نقد الرجال ـ تحقيق على محمد البجاوى ـ القاهرة ١٣٨٢ هـ ـ ١٩٦٣ م .

٢٧ ـ الرقيق القيرواني ـ تاريخ إفريقية والمغرب ـ تحقيق وتقديم المنجى الكعبى ـ تونس ١٩٦٨ م .

٢٨ ـ السبكى ـ طبقات الشافعية ـ تحقيق محمود الطناحى وعبد الفتاح الحلو ـ القاهرة ١٣٨٣ هـ .

٢٩ ـ السلاوى ـ الاستقصاء لأخبار دولة المغرب الأقصى ـ الدار البيضاء ـ المغرب ١٩٥٤ م .

٣٠ ـ السيوطى ـ بغية الوعاة ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم القاهرة ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٤ م

ـ تاريخ الخلفاء ـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ـ القاهرة ١٩٦٧ م .

٣١ ـ ابن شاكر ـ فوات الوفيات ـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ـ القاهرة ١٩٦٣ م .

٣٢ ـ الشماخى ـ السير ـ القاهرة بدون تاريخ .

٣٣ ـ الشهرستانى ـ الملل والنحل ـ تحقيق طه الزينى ـ الحلبى ـ القاهرة ١٩٦٣ م .

٣٤ ـ الشيرازى ـ طبقات الفقهاء ـ بغداد ١٣٥٦ م .

٣٥ ـ الطبرى ـ تاريخ الرسل والملوك ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٨ م .

٣٦ ـ ابن طولون ـ قضاة دمشق ـ دمشق ١٩٦٨ م .

٣٧ ـ ابن عبد الحكم ـ سيرة عمر بن عبد العزيز ـ تحقيق أحمد عبيد ـ القاهرة ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٤ م .

فتوح مصر والمغرب ـ بيروت ـ ١٩٧٨ م .

٣٨ ـ عبد الواحد المراكشى ـ المعجب فى تلخيص المغرب ـ تحقيق محمد سعيد العريان ـ القاهرة ١٩٤٩ م .

٣٩ ـ ابن عذارى ـ البيان المغرب فى أخبار المغرب ـ بيروت ـ ١٩٥٠ م .

٤٠ ـ أبو العرب ـ طبقات علماء إفريقية ـ تحقيق محمد بن أبى شنب ـ الجزائر ١٣٣٢ هـ ـ ١٩١٤ م .

٤١ ـ القزوينى ـ أخبار البلاد وآثار العباد ـ بيروت ١٩٧٦ م .

٤٢ ـ القفطى ـ أنباء الرواة ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار الكتب المصرية ١٩٦٤ م .

٤٣ ـ القلقشندى ـ صبح الأعشى ـ القاهرة ١٩٢٢ م .

٤٤ ـ الكندى ـ الولاة والقضاة ـ تحقيق رفن كست ـ لبنان ١٩٠٨ م .

٤٥ ـ المالكى ـ رياض النفوس ج ١ ـ تحقيق د/ حسين مؤنس القاهرة ١٩٤٩ م .

٤٦ ـ أبو المحاسن ـ النجوم الزاهرة ـ دار الكتب ـ القاهرة ١٩٦٣ م .

٤٧ ـ المسعودى ـ بروج الذهب ـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ـ القاهرة ١٩٦٤ م .

٤٨ ـ المقرىء ـ نفح الطيب ـ تحقيق . محمد محيى الدين عبد الحميد ـ القاهرة ١٣٦٧ هـ ـ ١٩٤٩ م .

٤٩ ـ النويرى ـ نهاية الأرب فى فنون الأدب ج ٢٤ ـ تحقيق د/ حسين نصار ـ مراجعة د/ عبد العزيز الأهوانى ١٩٨٢ م .

٥٠ ـ ياقوت الحموى ـ معجم البلدان ـ القاهرة ١٣٢٤ هـ ـ ١٩٠٦ م .

معجم الأدباء .

٥١ ـ اليعقوبى ـ البلدان ـ ليدن ١٨٠٩ م .

تاريخه ـ دار صادر ١٩٦٨ م .

ب ـ المراجع العَربيّة :

١ ـ أحمد فكرى ـ مسجد القيروان القاهرة ١٩٣٥ م .

آثار تونس الإسلامية تونس ١٩٥٨ م .

٢ ـ د / أحمد مختار العبادى ـ سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس . مجلة كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية ١٣٧٧ هـ ـ ١٩٥٧ م .

٣ ـ د / حسن إبراهيم حسن ـ تاريخ الإسلام السياسى القاهرة ١٩٧٣ م .

٤ ـ حسن حسنى عبد الوهاب ـ خلاصة تاريخ تونس ـ تونس ١٩٧٦ م .

آداب المعلمين ـ تونس ١٩٥٨ م .

ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية ـ المنار ـ تونس ١٩٦٦ م .

٥ ـ د / حسين مؤنس ـ فتح العرب للمغرب القاهرة ١٩٤٧ م .

معالم تاريخ المغرب والأندلس ـ القاهرة ١٩٨٣ م .

٦ ـ الزركلى ـ الأعلام ـ القاهرة ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٣ م .

٧ ـ زكى محمد حسن ـ فنون الإسلام ـ القاهرة ١٩٥٤ م .

٨ ـ د / سعد زغلول عبد الحميد ـ تاريخ المغرب العربى ـ الإسكندرية ١٩٨٤ م .

٩ ـ السيد عبد العزيز سالم ـ تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى .

١٠ ـ محمد زينهم محمد عزب ـ الإدارة المركزية للدولة الأموية ـ رسالة ماجستير ١٩٨١ م . آداب القاهرة .

١١ ـ محمد ضياء الدين الريس ـ الخراج ـ القاهرة ١٩٨١ م .

١٢ ـ محمد عبد الله عنان ـ تراجم أندلسية وشرقية ـ القاهرة ١٩٥٦ م .

١٢ ـ محمد عبد الله عنان ـ تراجم أندلسية وشرقية ـ القاهرة ١٩٥٦ م .

١٣ ـ محمد على دبوز ـ تاريخ المغرب الكبير ـ القاهرة ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٣ م .

١٤ ـ د/ محمود إسماعيل عبد الرزاق ـ الأغالبة ـ القاهرة ١٣٦٧ هـ .

الخوارج ـ فى المغرب الإسلامىّ ـ دار البيضاء ـ المغرب ١٩٧٣ م .

جـ ـ المراجع الأجنبيّة :

(1) NEVILL BARBOUR A SURVEY OF NORTH WEST AFRICA (THE MAGHIRB) LONDON - NEW YORK 1959 .

(2) MARCAIS LA BERBERIE MUSULMANE PARIS - 1939 .

(3) TERRASSE HISTOIRE DU MAROC PARIS 1952 .

■

الكشاف العام

أ ـ الأعلام

٢ ـ الأماكن الجغرافية

٣ـ الفرق والطوائف والبطون

٤ ـ الكتب الواردة فى النص

٥ ـ الآيات

٦ ـ الأشعار

❋ ❋ ❋

فهرست الموضوعات

■

رقم الإيداع ٢١٢٥ لسنة ١٩٩٤
الترقيم الدولى
I.S.B.N
977 — 5496 — 02 — 0

هذا الكتاب

بعد أن انتصر المسلمون على الروم فى موقعة سبيطلة ٢٧هـ ـ ٦٤٨م بدأت ولاية إفريقية فى الظهور عندما أنشأ عقبة بن نافع الفهرى مدينة القيروان ومسجده ، ومسجدها الجامع فيما بين سنتى ٥٠هـ ـ ٥٥هـ / ٦٧٠م ـ ٦٧٥م . قامت ولاية إفريقية الإسلامية ولاية مستقلة بنفسها ولها واليها وإدارتها المستقلة عن إدارة مصر .

ثم تتوالى إلى حد ما الولاة على إفريقية وكان من أشهرهم حسان بن النعمان الذى نجح فى فتح إفريقية والمغرب وقضى على كل عناصر المقاومة التى يمكن أن تَحُولَ دون تحويل هذا الجزء من العالم إلى بلاد إسلامية أولا ثم عربية بعد ذلك . ومن هذه الناحية يعتبر حسان من أعاظم الفاتحين والمنظمين فى تاريخ الإسلام ، فأدخل حسان نظم الإدارة العربية فدّون الدواوين ونظم أمر الجزية التى يدفعها أهل الذمة وأنشأ الدواوين لذلك ، وقد قام حسان بأنشاء ميناء تونس فلما عُزِلَ حسان تقلد موسى بن نصير صاحب الخطوة الأولى فى فتح الأندلس ، فترك القارئ والقارئة إلى الاستمتاع بتاريخ إفريقية والمغرب .

والله ولى التوفيق

الناشـر

دار الفرجانى

القاهرة ، ٩ ميدان الذهبى ـ منشية البكرى ـ مصر الجديدة

ص.ب. ٢٣٨٢ الحرية تليفون : ٢٩٠٥٨٩٥